obeikandl.com

نوستالجيا الحب والدمار

رواية

اسم الكتاب: نوستالجيا الحب والدمار
تأليف: السعيد الخيز
تصميم الغلاف :أحمد مراد
رقم الإيداع: 2015/7879
الترقيم الدولي: 978-977-6376-78-6

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01000405450- 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من النـاشـر؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

obeikandl.com

نوستالجيا الحب والدمار

السعيد الخيز

رواية

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى حبيبي محمد أمين بوادي..
محارباً وشهيد سرطان والذي قال ذات يوم: "أطالب بالتغيير" لن يفهمها الكثيرون لأنهم سيعتبرونها أداة لتزيين البروفايل.فيا ليتهم يدركون أنها أقل ما يمكنني قوله في زمن أصبحت فيه المطالبة بالحق جريمة.

إلى قسيم الروح أيوب مديان..
صديقاً وشاعراً، والذي قال لي ذات يوم: "لنحتم من الحياة بالحياة..لنرسم الطريق على شفاه الأطلس وننطلق بخطى ثابتة جهة الضوء..وأعلم أن كل ما تبقى مني هو نفسه ما تبقى منك.. شيء من الطفولة".سنبقى دائمًا قلبًا واحدًا بجسدين.

إلى أنا آخر أيوب شهبون..
شاعراً وجنديّاً، والذي قال لي ذات يوم: "والطفل..ذلك الطفل الذي يطل علينا من وراء، يرمم ذاكرتين من زجاج، ويرش جديلتيّ أيامنا بغيث الفرح"..قيل ذات قول: "الذين يكتبون الرواية، يكتبون الحياة".

obeikandl.com

obeikandl.com

استهلال

obeikandl.com

obeikandl.com

أنا كلي لك..
أنا صامتٌ كجسدٍ لفظ روحه
كمساءٍ قرض نهاره.
وكوحي لم ينزل من سماءٍ
أزهِري يا روحنا الكئيبة..أزهري
واسكني جسدنا الموقوت.
كساعةٍ حائطيةٍ
تنظر سقوط عقاربها.

الشاعر أيوب مديان

obeikandl.com

obeikandl.com

يجب أن أتغير، يجب أن أنسى كل شيء وأركز فقط على كلمة التغيير، يجب أن أكتبها آلاف المرات علّني أتغير بهذه الطريقة، سأسلك نهج التحوّل ليس على الطريقة الكافكاوية، بل على طريقة بروست في مد الجمل الطويلة، يستحسن بي أن أقرر، والآن، وأتشبع بقناعة التغيير وبالرغبة فيه، وأتنفس كل مساراته وألامس أسبابه الظاهرة والباطنة، دون القبض عليها تمامًا، لندع التوغل في التفاصيل إلى وقت آخر، يجب أن أمسك فقط بالكلمة الفكرة، وأتمعّن في حروفها وهندسة حركاتها، وألتقط لها صورًا من زوايا مختلفة، كأي موديل أزياء، فهي أنيقة حقًا ورشيقة، تستحق أكثر من فلاش وأكثر من زاوية نظر.وقبل أن أقرر وضعها على الغلاف يجب أن تكون لها إيحاءات بعيدة التأثير.

إن هذه المفردة تستأثر بعواطفي، ترفعني نحو السماء كأني خارج من عاصفة نفسية، سأفعل أشياء كثيرة تستدعي التحول، وسأسير في اتجاهات مختلفة، جديدة، مغايرة.

أولاً سأتخلص من بعض العادات بدءًا بآلة التحكم عن بُعد، بل مشاهدة التلفاز ككل، لساعات طويلة، على كلٍ فهي لا تبث سوى مشاهد الدمار العربي.

لن أشرب القهوة السوداء سريعة التحضير طوال اليوم

المشاعر الثابتة تنضج على مهل.

حتى أني لن أتسرع في دفع ثمن الطلبات عن الأصدقاء في المقهى، فكاترين نفسها تعتبرها حركة شرقية غير راقية وغير ديموقراطية، وقالت لي يومًا إن كنت تحسبها رجولة فهي ليست كذلك هي عنصرية تجاه المرأة، فأنت لست وصيًا علينا، ولست أبانا ولست أفضل حالاً منّا حتى تدفع فاتورة المقهى على حسابك.كم نحن

متخلفون وبدويون مهما تمدّنا! فكاترين تصدمنا غالبًا بوجهة نظر لا نقول مغايرة أو مختلفة، بل لا مفكر فيها أصلاً في منهجنا الاستدلالي.

لذلك يجب أن أتغير.

يجب أن أتخلص من بعض الشوائب التي تحول دون تقدمي، وسآخذ بعين الاعتبار كل ملاحظات الأصدقاء، خصوصًا كاترين، الرياضة، قراءة الكتب الممتعة كالروايات والقصص والمسرحيات، وسأتجنب ما أمكن الفكر الفلسفي والنقدي.

أحيانًا يجب أن تتخلص من كل شيء مهما بدا خفيف الوزن، فهو يكتسب قدرة على الالتصاق بك وعرقلتك، حتى أن وزنه يتضاعف مئات المرات، كذلك بعض الناس يجب أن تتخفف منهم في أسرع وقت ممكن، وإلا ظلوا متشبثين بذاكرتك يكزونها كزًا، وإن حدث وانسحبوا فتلك الفاجعة الكبرى، ستظل تنتظر عودتهم لتتخلص منهم بنفسك، بإرادتك، بمحض إرادتك، لن تجدهم لتفعل ذلك.

- تتكلم كثيرًا فقط تغير..دون ضجيج.

- أوكي.

تكرر كاترين على مسمعي جملها الشهيرة والحكيمة دائمًا، وأسمعها دون كثير اهتمام، ربما حان الوقت لأسمعها جيدًا وأعلقها داخل عقل تصرفاتي.تقول:

لا تنظر إلى الخلف، وأحيانًا لا يجب أن تنظر حتى إلى ما حولك من أمور، سر إلى الأمام كعسكري يعرف هدفه بدقة، كمجاهد لا يهمه الماضي ولا الحاضر.رفيقك الذي تعتقده صديقًا إن لاحظت تشبثه بالمكان فانسلّ منه ودعه يربي كسله وحده.لا تترك له فرصة التشبث بك لأنه لن يكون سوى مسمار تثبيت يمنعك من الاستمرار في المشي.أشياء كثيرة يجب أن نتخلص منها كل يوم كأكياس الندم والتأجيل والتسويف.

Obeikandl.com

وتقول أيضًا:

لا تضيع حياتك رفقة أشخاص يعيدونك دومًا للوراء. تقدم ولا تلتفت هناك، من لا يستطيع التقدم يعجبه إبطاء الآخرين، تخفف من العلاقات التي لا تنتج حركة وكن حرًا وافتح قلبك لأشخاص جدد يدخلون النور لقلبك ويسعدونك بأفكار جديدة بابتسامات جديدة. يجب أن تنتبه لبعض المسامير في مقعدك لا تنشغل بإصلاحه كل مرة، غيّر مكانك فقط فهناك أماكن أكثر راحة.

سأغير ربما مشيتي، فأنا أتكاسل كالسلحفاة العرجاء، أسير لوجهات غير محددة، سأعمل بقوله تعالى: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحَاً} صدق الله العظيم.

تسريحة شعري..

يجب أن تثبت في اتجاه واحد. تقول كاترين إنه طفولي يتدلى على جبيني وعلى أذني، أعرف أني أشبه الصينيين في نوع الشعر ولكني لا أملك طريقة أخرى لتسريحه، سأقصّه فقط ليصبح أقصر رغم أنه سيصير كأشواك القنفذ، سأتخلص بذلك من استدارة وجهي الطفولي، لولا اللحية التي تنبت بسرعة لتقول للعالم إنني لست قاصرًا لاعتقدوا أني في السابعة عشر من عمري، المهم شعري أيضًا سأغيره، لن أبدو آسيويًا جنوبيًا، سأثبته بمثبتات الشعر إلى الوراء.

سأغير عينيّ..

لن أضع النظارات ذات الإطارات السوداء الغليظة، رغم أن كاترين تقول إنه أجمل أكسسوار أضعه، فهي باستطالتها تمنح الطول لوجهي المدوّر كالكرة، يستحيل عليّ خلعها لأسباب صحية وفي نفس الوقت لكوني لا أحب العدسات اللاصقة.

سأغير لوني..

لا مستحيل، لن أبدل جلدتي، أي غباء هذا! أنا لست جاكسون ولست مضطهدًا في بلدي (اضطهادي من نوع آخر) ولكن ما

دمت أنشد التحوّل فلا بأس بحمامات شمسية مع زيوت برونزاج وكريمات وقائية ومغيرة للون البشرة.

أستطيع إذن أن أغير جلدي. هذا مستحيل هذا جنون!

لا.. لا.. ليس كذلك.. عادي جدًا، بل عبقري جدًا.

سيقولون عني أشياء كثيرة وغير محتملة بمجرد بدئي بسطور التغيير، ولكني بارتدائي الريح وانتعالي المطر لن يهمني رأي الأوحال في كعب حذائي، لأني سأغير أيضًا نظرتي إليها، ولن أكترث لها، وهذا جزء من مخطط التغيير، المظهر سينعكس تمامًا على الجوهر، وهذا هو المقصود، أن يؤثر الخارج على الداخل، شيئًا فشيئًا ستتلون أعماقي بألوان ملابسي، أنا لست متعبًا وكل ما أقوله سأنفذه، فهذه إجراءات واقعية وليست أحلامًا هاربة تمسك بتلابيب الزمن. لن أتخلى عن استايلي في اللباس وسأظل أتابع الإنتاج الياباني في الموضة، رغم عودتهم نحو الاستلهام من الكيمونو، لكن تركيزهم على منطقة الكتفين والصدر وجعلهم السراويل منطلقة في الطول يجعل قصار القامة أمثالي يبرزون شكل الجسم القصير كمثلث قوي. كما أن ألوان البهجة تطغى على لباسهم وهذا يناسب فلسفتي في التغيير. لحد الآن لا أسميها فلسفة، فهي ما زالت أفكارًا قيد الانشطار ولم تتفكك بعد.

هذا كل شيء يمكنني التفكير فيه الآن من أجل مشروع التغيير، ولكن حتى حين التنفيذ سأستمتع بعاداتي القديمة.

يا للهول! ما زلت أحنّ لأحوالي.. نقطة وأعود إلى السطر.

كم هو صعب أن أتغير! كم كتاب فلسفة أحتاج؟ ما دمت سأستمتع بعاداتي القديمة فهذا يعني أنني أحنّ لحالات الضجر وهذا يعني أني أقاوم التغيير في داخلي.

أحتاج شِعرًا..

أنا، أجد نصف معاني حياتي رفقة الشعراء، أعرف من تاريخي

أن الشاعر شخص استثنائي، يعطي الكلام حقه وحقيقته، حين يسير النهر غير مكترث بالمارة يقف هو ليحدّث المياه الشاردة والشخصيات الهامشية ويضع روحه رهن إشارة الحقيقة. وجسده مسرح فقير ينتج اللغة بعلامات قليلة وهو يلقي فتواه كأنه يحضن جمرة أو يسبح في بركان.. أحب الشعراء.

أحتاج شعرًا..

فالنضج العاطفي يسير بسرعة البرق بعد كل قصيدة.. والشاعر وحده قادر على قطع المسافات الطويلة في ميدان العاطفة الإنسانية، الشاعر وحده الذي لا يخجل من قول أحبك في وجه الوطن وفي وجه الأنثى وفي وجه الصديق وفي وجه الحرية ووجه المفاهيم. يكتبها على حائط المعاني ويدحرجها على حافات الخطر المعنوي، يعجنها خبزًا يوميًا لأنه كائن فضيّ لا يلمع إلا بحكه بمعجون الحب، ولأنه جرس ذهبي لا يبرق إلا بشمس الحب، فتراه ينثر الحب في الطرقات كما تنثر البركة. لا تلوموه لأنه بدل وضع نقطة نهاية لقصيدة يقول أحبك، وبدل أن يقول وداعًا يقول أحبك وحتى بدل أن يقول مساء الخير يقول مساء الحب. لا تلوموه فهو يبني عشّه بالحنان وقش مطحون مع بودرة الحب، وأينما حل وارتحل يضع قلبه عرضة لهواء الحب.

كاترين ملّت هذه الأسطوانة، ملّت سماع ثرثراتي حول التغيير، فالتحول عندي لا يبرح المجال الشفوي، عقلي يفكر ولساني ينطق وواقعي لا يتغير، ولكني هذه المرة سأثبت لها العكس، سأثبت لها قدرتي على التغيير وتنفيذ قراراتي، أحتاج كتب فلسفة؛ هي وحدها قادرة على قلب مفاهيمي القديمة وتعويضها بأركان جديدة. ولماذا أتغير من أجل أن أثبت لها شيئًا؟ لا سأتغير من أجل نفسي فقط.

أحتاج أيضًا أن أقرأ القرآن الكريم بصوت مرتفع كما كنت أفعل في المسيد، كي تدخل الآيات أعماقي وتغيرني. سأخلع نعلي وأدخل

المسجد وأمكث فيه طيلة ما بعد الظهر حتى العصر ثم المغرب، لأمتص السكينة والإيمان.

- منذ أن عرفتك وأنت تتغير، ولكننا لا نرى فيك جديدًا غير لباسك، وتسريحات شعرك، حتى أن اللون الشاحب الذي صبغته به يجعلك محط شبهة، وعنايتك الدائمة ببشرتك وسمرتك.. تقول كاترين.

يجب إذن أن أبحث عن الخلل الحقيقي، يجل أن ألج برنامجًا حاسوبيًا مضادًا للأخطاء التكوينية.. في الذات البشرية.

الخلل في الهوية؟ ربما.

الخلل في التاريخ؟ ربما.

لا أحب كلمة الهوية ولا كلمة التاريخ، فأنا متعدد وأعيش الحاضر، هنا الحسم والقرار، أقفل على الموضوع في صندوق المفاهيم، خصوصًا التي بنيتها منذ زمن وجلبت لها موادًا أولية من الشرق القديم، سأتسبب بتعاسة الكثيرين وقلقهم وغضب آخرين وحتى عنفهم تجاهي. ولكني قلت قبلاً أن الآخر لا يهم.

أين العطب إذن؟ أين التشوّه الذي أصابني وأصاب من حولي؟ أي مصداقية للكلمة وأي امتداد للمعاني على شجرة الصفصاف التي تغطي احتمالات الحرية. كل تلك الاستعارات من أجل البرهنة على الحب والتعاسة اللذين يشتركان في مسير ومصير واحد، يدخلان قلب الإنسان ويتصارعان داخله في حلبة أشبه بالجدل.

أين المساء الذي ينحني تواضعًا أمام أحزاني ليقبل عن قصد نقط العشق على شعيرات صدري؟ بل أين الملل الذي يختفي خجلاً أمام سهراتي؟ أين القمر الذي ينوي كل ليلة مناجاتي؟ يرسل ضوءه في حميمية لينعش أشلائي ويحيي الدم في نباتات الموسم الخرافي.

أين الطفولة في حساباتي؟ كم ضاع من عمر ومن نصف عمر أمام

obeikandl.com

انتظاراتي، أمام أسئلتي؟! كان يجب أن أدرس كل منحنيات الثورة في مراهقتي كي أعلم جيدًا أن بناء التاريخ على ضوء انفعالاتي جنون لا بعده جنون، وأن انكسار الموج على صفحات الرمل وصخور الحواشي لا بد منه رغم الشمس ورغم المد والجزر ورغم الضباب ورغم النوارس ورغم الحمام.

رغم الأغنيات ورغم جورج والجرجاني ورغم مارسيل والمتنبي، لو كنت أنا أنا لما بنيت احتمالاتي على شفا قبلة خاطفة من زمن ظلال الزيتون، ترتوي الانقباضات المشيمية من عذابات الأم وأنطرح إلى عالم كله ألم من سوء صنيعي، كم كأس حنان رضعت؟ وكم ضمة حب حقيقي شممت؟ وكم نظرة ود التقطت؟ كان العدد كبيرًا ليكون معادلة برحمة السنين على حدودي، ولكني خطّاء في جل حساباتي، وكان عليّ أن أعيد دروس الرياضيات من جديد في وقت انمحت فيه رسائل الغروب واضمحلت فيه اشتياقات الشروق الساخن في مدينة بطقس الجحود. كأنها منفى للمتهمين بالخيانة العظمى لوطن ليس لهم فيه إلا انتماء بالميلاد.

كان يجب أن أتخلص من الجنس حتى أستطيع التفكير بعقلانية، وهذا مستحيل، فكلما فرغت شحنة منه بأي شكل من الأشكال، عادت لتتكون في ظرف لا يسمح بالتعاطي الطويل مع الحلم والفجيعة فلسفيًا، بل تصبح الحاجة إلى الجنس طبيعة، وهذا مفروغ منه، إذن فسياسة التقشف الجسدي غير مجدية تمامًا وشاحنة المتعة تأتي مع كل امتلاء لتحط من قدر التمنطق وتعيق التغيير، مع العلم أن الرجل المخصي يعاني من كآبة دائمة وخمول وكسل في التفكير، إذن فانتظاري فراغ الشحنات ومرور شاحنات القمامة الجنسية من قبيل تضييع الضائعات. حيلتي هي في انتصاف الامتلاء، بحيث لا يجر إلى شهوة تذل الرجال، ولا تنقص من شهوة هي تاج الرجال، الاعتدال هي الكلمة الأنسب للاحتفال

بوضـع جسـدي يسـمح بالمرونـة القصـوى في اتخـاذ قـرارات لا رجعـة فيهـا مـن فصيـل التغيـير.

تخلصت إذن من ملابسي، شعري وعيوني.

تخلصت من آلة التحكم عن بُعد، نظاراتي وحتى جلدي.

وتخلصت من إغواء الشهوة مذلة الرجال ومانعة الاحترام.

يبدو أني تخلصت مني وهذا هو المنشود، فلأعد من جديد.

فلأبدأ من جديد، فلأكتب من جديد.

أعـرف أن كتابـاتي لا تغـيّر العالـم، لكـن رغـم ذلـك أكتـب، أكتـب رغبـة في تغيـير العالـم وهـذه معضلـة الكتابـة، تبـدو نشـاطًا موازيًـا للعالـم، ربمـا هنـاك سر أكـبر في فعـل الكتابـة ومسـك القلـم، فاللـه أمـر أول مـا أمـر بالقـراءة والقلـم، فليـس غريبًـا أن يكـون لفعـل الكتابة ذلـك الغمـوض اللذيـذ وكأنهـا سر كـوني لا يعلمـه إلا اللـه وقليـل مـن النـاس، تلـك الطاقـة الـتي تحملهـا الحـروف في أشـكالها وذبذباتهـا أثنـاء النطـق لهـا مفعـول السـحر والحـب.

أحببـت دومًـا أن أكتـب في السـر وأخفـي كتابـاتي، لأن مـا يدفعـني إلى الكتابـة شيء سريّ أيضًـا، فأحيانًـا آخـذ القلـم فقـط لأمسـح دمعـة أو أعتـذر عـن غلطـة.

اليـوم قـررت أن أحضـن ورقـة اليقطـين الـتي طالمـا وارت جسـدي وأكتـب الوحـي مـن إمـلاء حبـة البركـة وزعفـران الـروح، وأتعـرى مـن احتمـالات الحـب وأكتـب ضـد رغبـاتي.. أكتـب عـن جمـال نبتـة الدفلـة وقبلتهـا الطويلـة المالحـة، وعـن صديقـي الـذي أخافتـه جرأتهـا فأطلـق صمتـه، وانضـم إلى حـزب الهـدوء العاطفـي. أمـا أنـا فثـورتي لـم تهـدأ بعـد، ومـا زال لمـذاق عنـب الذيـب طعـم الرغبـة.

سـأكون عمليًـا، سـأتناول القهـوة السـوداء كل صبـاح، فقـط لدقائـق معـدودة. لـن أضيـع الوقـت في المقهـى وأنـا جالـس، سـأُبقِي ظهـري منتصبًـا كأي رجـل عمـلي، لـن أطلـق رجـلي تحـت الطاولـة وأتمطـط،

أصلاً لن يكون لديّ وقت للتمطط، سأجيب على الإيميلات الرسمية فقط وأترك رسائل الفيسبوك لوقت الفراغ الرابع، ففي الوقت الثالث يمكن أن أفعل أشياء أخرى مهمة. أكيد سأتغير، سأشذّب لحيتي كأي حديقة ملكية، فهي تبدو كحقل ذرة هبت عليه عاصفة مدارية. سأستعيد قمصاني من داخل الدولاب وأكويها ومعطفي الطويل أيضًا. لن أرتدي البيريه كي لا أبدو كاتبًا ستيريوتيبيك ولكن سأقص شعري الطويل كي أقنع أذني بتقبل النظارات الطبية.

سأكتب القصص القصيرة جدًا فقط، فهي تمتعني بمساحة كبيرة من الحرية، ففي أربعة أسطر يمكنك أن تختزل الوجود. أبالغ لكني متحمس لقصص قصيرة جدًا كتنورات البرازيليات من لاعبات التنس، فهي تكثف تختزل تمنح احتمالات التأويل، والأهم من ذلك أنه لا وقت لديّ للكتابة ولو لم تكن مرضًا مزمنًا لا يُشفى إلا بالقلم لتركتها، ولكن هذه القصص هي الحل في ظل زحمة حياة وسرعة مفرطة في العيش وتسابق لا هوادة فيه.

أكتب.

حبك سكر:

رش عطر الخزامى داخل مكتبه، يقال إن نبتة الخزامى تزيل عفن القلوب، وضع فنجان القهوة المقطرة والمعطرة بالقرنفل، يحبها حلوة جدًا بثلاث قطع سكر، يحب أن يرى السكر مترسبًا في قعر الفنجان الأحمر. وقبل أن يضعها رن الهاتف:

- صباح الورد وشقائق النعمان أحبك يا شقيّ.

حرك قهوته وشربها دون سكر.

موعد حب:

كتب لها رسالة هاتفية: أحبك، اشتقت إليكِ، يجب أن نلتقي سأكون هناك في الساعة الثامنة تمامًا لا تتأخري.

ردت: وأنا أحبك أيضًا، سأكون هناك قبل الموعد.

في الساعة الثامنة تمامًا فتح الماسنجر، ووجدها في انتظاره، تبادلا جملاً، تناولا بعض بطاقات الحب والتهاني حتى منتصف الليل، ودّعها ونام.

حافية القدمين:

كانت على موعد.

وضعت قاعدة من البودرة البيضاء على وجهها.

وضعت أحمر شفاه بلون التوت الشهيّ.

وضعت كحلاً أسود وماسكارا زرقاء.

وضعت ظلاً رماديًا تحت جفنيها.

بيّضت أسنانها بالأشعة الزرقاء المنزلية.

ارتدت فستانها الأرجواني من زارا.

رشت عطر ديور خلف أذنيها.

وجلست أمام شاشة حاسوبها.

نظف حياته:

دخل وحيد إلى الحمام لتنظيف أسنانه، وجد المغسل متسخًا، به الكثير من الأشخاص الغيورين منه، لم يهتم، أخذ فرشاة الأسنان ونظر في المرآة، هي أيضًا متسخة، بها بقع علاقات متعبة، ومشكلات عائلية بنية، وضع الفرشاة جانبًا، ورش مطهرًا على المغسل والمرآة فبدأ يكشط الأوجاع عنهما بهمة كبيرة، استطاع أن يعيد البريق إلى حمامه، فخرج وهو يحس بانشراح كبير.

أنا أيضًا يجب أن أنظف محيطي، تاريخي، وترتيب مخزون ذكرياتي، سأفعل ذلك حتمًا، رغم سهوي وسرحاني الدائمين، ذلك

obeikandl.com

يساعدني على التذكر والترتيب والكشط والتقشير والحذف. فرحت أطلق العنان لحنيني كالخيل يجري في كل الصحارى وكالموج يلطم كل الصخور.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

نوستالجيا حب ووطن يتعرى

لَستُ أهتَدِي بالحبّ حَذوَ ذَاكرَتِي.
فالحبُّ.. هرُوب مَا، من دُروب الذّكرَى.

الشاعر أيوب شهبون

obeikandl.com

obeikandl.com

-١-

أدري وأنـا أخـرج أن هـذا الخـراب سـيعلق بذاكـرتي إلى الأبـد وأنـه سـيحرمني النـوم ليـالٍ طـوال، الدمـوع جفـت في مقلـتيّ ولـن تخـرج، جمـدت صمـدت سـيّان، سـتبقى صامـدة، جامـدة، ذلـك أني أعشـق البيـت العتيـق، ترابـه، حجارتـه وسـقفه الخشـبي، هـذا المشـهد جـزء مـن ذاتي، تشـكله الجـدران ذات الألـوان الترابيـة، الأبيـض والبـني والأحمـر الآجـوري، الأبـواب الخشـبية المهترئـة، والشـبابيك الحديديـة ذات الزخـارف الملتويـة النابعـة مـن أعمـاق المـاضي، هـي لا تـدري أن التواءهـا يسـبب لي التهابًـا نفسـيًا حـادًا هـذه اللحظـات.

أحيانًـا أشـم رائحـة الطـين المرشـوش بالمـاء، وأسـمع خريـر الهـرة المرقّطـة، وأسـمع صـوت جـدي الـذي ينـادي، أسـمع كل هـذه الذكريـات، تداعبـني تقبلـني ولكنهـا لا تمـر دون أن تجرحـني.

ألا يكفـي أني أحتفـظ بتفاصيـل هـذا البيـت العتيـق في ذهـني، وفـاء لـه؟ أي نـوع مـن الوفـاء هـذا؟ لـم التعلـق بالـتراب والحديـد والخشـب القديـم؟

آه من رائحة أبواب العرعار المنقوشة ببساطة الماضي!

آه من خراب اللحظات الأخيرة!

لـم يكـن زلـزالاً، كان أقبـح مـن ذلـك بكثيـر، لـم يعـد مهمًـا مـا حـدث بالضبـط، المهـم طريقـة احتفـاظ الذاكـرة بـه.

لـم يكـن شـيئًا مهينًـا، كان أسـوء مـن ذلـك بكثـير، لـم يكـن هنـاك وقـت للإحسـاس بالإهانـة، هنـاك فقـط عـذاب، عـذاب ودمـوع متحجـرة داخـل المُقـل. كان النـاس يحتجـون والجـدات تولولـن، والرجـال يركضـون إنقـاذًا لمـا يمكـن إنقـاذه، إنقـاذًا لـكل شيء تجـري فيـه روح.

وكان لي الصمت، كاميرا خرساء تسجل في صمت هول اللحظات الأخيرة، كاميرا تسجل قدرًا مخجلاً، ثابتة، تحاول استبطاء الكون ولو للحظات قصيرة.

لكنها ليست لحظات قصيرة إنها اللحظات الأخيرة.

السقف الذي راقبته منذ ولادتي، بخشبه الثقيل، البني الحنون، الجدران بألوانها الترابية الطبيعية والنوافذ الحديدية، حين تفقد هذه الأشياء تشكيلتها الطبيعية تصبح مأساة حقيقية.. لم تعد النافذة وسط الجدار والسقف لا يغطي الغرفة وأعمدته لم تعد متوازية بل مبعثرة بعشوائية الجنون. الجدران لها عنوان التحدي، صمود حجارة الأساس عنون اللحظات باسم التحدي، خجلت ألا تتحمل ثقل اللحظات؛ هي التي حملت البيت قرونًا وقرونًا.

تعانقت مكونات البيت العتيق مكونة كومة من الذكريات والآلام، ما آلمني أكثر الزرقة النيلية لغرفة الضيوف، تلك اللطخات من الأزرق التي طبعت كومة الخراب لتنهي لوحة الدمار.

- هل كنت حاضرًا؟

- يا ليتني لم أكن حاضرًا؛ لما أثقلت الذاكرة بالخراب والدمار. يا ليتني كنت غائبًا، ويا ليتني لم أكن، يا ليتني ولدت في زمن آخر لا يحمل طعم الفجيعة.

حزن مراق على الأرصفة، يسحبه المطر في نواح إلى مجاري الأرق، قطع من اليأس تتجمع على حديد المداخل، وأنا أحترق، أخاديد جرح يتمزق، يصنع من الاحتمالات تسعين ألف وجه للقلق، يا دودة الخشب كفّي، كفّي عن النخر في العمق فما عاد القلب من جنس النطف. هو محجرة البرد محضن الصقيع. نتف من ريح الحرب تدق طبول الخوف.

جميع الأشياء في هذا الكون الفسيح، حين تتزحزح عن حيّزها الفضائي تسبب الفوضى والقلق.

-٢-

- ماذا حدث بالضبط؟

- خراب اللحظات الأخيرة.

الفئران تهرب نحو الإنسان، حين كانت الحرب عادية ذات زمن، كان الفأر يجتهد في عدم التقاط هدايا الإنسان المسمومة، يتحايل ما استطاع لإقلاق راحته أو سرقة حبوبه أو فقط نخر أخشاب بيته ككل القوارض، أما في لحظات الخراب فالفئران تركض في اتجاهات متعددة لا تدري أي مصاب حل بها، تستفسر عدوها الأزلي رغبة في النجاة، في الفهم، لا فرق الآن بين فأر ورجل. الفأر يقف بمحاذاة جمل الاستفهام، يستنكر ويشجب ويهرب.

أما الدجاجات فتجري نحو السلال، تلتقطها الأم بيأس ملحوظ، ملحوظ على وجنتيها الحمراوين من أثر البكاء، لا وقت للبكاء، تحاول التقاط أكبر عدد ممكن من الدجاجات هذه التي تنفض ريشها خوفًا وذعرًا، أما الديك فقد مات بكبريائه المعهود، مات تحت حطام خمه، عزيزًا كريمًا كأي بطل فضّل التحدي، فضّل الوقوف، إلى متى سيقف الأبطال؟

أما البقرات فرحلت في ساعات مبكرة، كانت أثمن من أن تنتظر اللحظات الأخيرة، كان الرهان فقط ضد الناس البسطاء والحيوانات الصغيرة. طاولة قمار بين الجبال، الرجل يرمي النرد والزمن يرمي القذارة في وجوه المساكين.

- هل هذا سبب حزنك وغموضك؟ ما أوسمك بتاج الغموض والقلق!

- الحزن يلازمني بسبب الأشياء المتحجرة في الذاكرة، إحساس قديم بأن الأشياء تتهدم أمامك أو بمعنى آخر تتمزق داخلك، ولا

obeikandl.com

تستطيع لمّها ومنع تشتتها.

فظاعة الخيانة هي في كونها شقيقة الألم وانعدام الثقة، تشتت الذهن والمشاعر كسكين حاد ينغرز في القلب لتقلب حياتك رأسًا على نار.

هل كانت خيانة زمن أم خيانة وطن؟ هذا هو السؤال.

- هل مات الناس أثناء الدمار؟

- الموت شرف لم نملكه آنذاك، بل لنا حياة من الذل والهوان ورحلة نحو المجهول. نحو اللا استقرار حيث تنفر منا الأراضي لا لأسباب غجرية، فبيننا وبين الغجر ذلك الصدع المسمى الأرض الأم. آه لو كنت غجريًا! ما أثقلت جثتي بالمرافئ والمناديل البيضاء. ولكان مركبي في بلاد أخرى وراء البحر، ولكني لست غجريًا.

التشبث بالأرض، الأرض الأم، إلى درجة أكل التراب، هذا هو المشهد الذي هد وجودي وجعلني أكفر بالجمال والحياة. جدي الذي كبر على هذه الأرض ما زال يذكر أول شجرة خروب زرعها في صباه، رعاها حتى نمت، فأتت عليها آلة ضخمة كلعنة من السماء. حق له أن يأكل التراب أسفًا على التاريخ والأرض، لم يكن يملك غير الأرض يحرثها ويزرعها، يسقيها ويحصدها، يجادلها وتجادله، هي مجاله وامتداده، قمة إحساسه بالوجود أن يستيقظ فجرًا ويذهب إلى إكران (وهي مدرجات على سفوح الجبال) لقطف حبة الطماطم والبصل وحفر درنة البطاطس وقطع غصن نعناع لصنع الشاي، يضعها في المطبخ وينصرف إلى حين إعداد الفطور، الفطور الثاني، فقد استيقظ فجرًا وتناول الحريرة مع حبات التمر، سبع حبات كالعادة، وإن قلّت فخمس أو ثلاث، هذه الحياة القروية القانعة البسيطة هي كل ما يشكّل وعيه.

- جنـون إذن أن تـأتي آلـة ضخمـة كالدبابـة، لتهـدم المـنزل فـوق الخضـار والمائـدة، جنـون إذن أن تتحجـر تربـة إكـران.

- نعم إنه الجنون.

- لقد أكل التراب، الجد أكل التراب.

مـن أجـل هـذا الـتراب قـاوم الاسـتعمار الفرنـسي، ودافـع عـن بلـده باسـتماتة، حـوصر وعُـذّب وسـجن، أيـأتي اليـوم مـن يحرمـه متعـة المـوت فـوق أرضـه بعـد أزيـد مـن أربعـين سـنة مـن الاسـتقلال؟!

أن تُعـذّب وتُهـان مـن أجـل وطـن سيخونك حـين تشيخ لـم يكـن في الحسـبان. جـد يـأكل تـراب حقلـه، إنـه خـراب اللحظـات الأخـيرة.

هـو كذلـك الوطـن، إمـا أن يغنيـك عـن التدلـل إلى أوطـان أخـرى وإمـا يدفعـك دفعًـا إلى الهجـرة طالبًـا اللجـوء الأدبي إلى بلـد آخـر.

هـي كذلـك الكتابـة، تغنيـك عـن اسـتجداء الوطـن، وتدفعـك دفعًـا إلى الهجـرة سرًا طالبًـا اللجـوء السـياسي إلى قصـص حزينـة، تركـب قـوارب السـطور في مغامـرة بحياتـك، تتلاطمـك أمـواج القهـر والعنـف والفقـر، تبحـث في أعمـاق البحـر عـن بطـن حـوت يونـسي يحتضنـك برأفـة فـإذا بـك تسـقط بـين فـكي قـرش تمزقـك أنيابـه.

تعففك الأدبي وسياستك الكتابية حصن حصين ضد شرور الوطن.

لا يمكـن أن تفهـم الوطـن، إنـه كائـن معقـد حقًـا وخيوطـه أكـثر تشـابكًا مـن كبّـة صـوف في السـدرة.

أحببـت دومًـا أن أكتـب في الـسر وأخفـي كتاباتي، لأن مـا يدفعـني إلى الكتابـة شيء سريّ أيضًـا فأحيانًـا آخـذ القلـم فقـط لأمسـح دمعـة أو أعتـذر عـن غلطـة.

أن تنظـر إلى ذلـك الخـراب لـن يجعلـك تبـكي، بـل سـتظل مشـدودًا

إلى مشهد الدمار بكل ما أوتيت من انتباه، ولن تجد فرصة للبكاء أو النحيب، سيبقى المجال مفتوحًا فقط لملامسة البقايا بعيون الألم.

لن أكتب؛ تلك المشاهد لا تُكتب، بل تعطل فعل الكتابة، ذكراها فقط تكتب بالجمر والنار، أما هي فتستعصي عن التعبير، منفلتة دومًا من قبضة الحروف.

أين كانت الحروف والكلمات حين أتت الجرافات على كل شيء، حين بدأت الدجاجات تهرب عن بيضها {تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا} التبن يتطاير في الهواء، والحمير تنهق بجنون، صوت الضجيج يزعج ترتيب الأشياء في فضاء رتيب وساكن.

وسائق الجرافة لم يبد قاسيَ القلب، بل كان يبكي، هل كان حقًّا يبكي أم أنه منطقي البسيط الذي يرفض أن يصل إنسان إلى هذه الدرجة من القسوة والتحجر؟ أحاول أن أنظر في عينيه علَّ منطقي يستقيم، أيقوم بكل ما يقوم به وهو في كامل وجوده الإنساني؟ أيستطيع -وفق منطقي البسيط دومًا- أن يدمر قرية بكاملها وهو مرتاح الضمير؟

كان السائق يبكي، فمنطق الألم والحكمة يقتضي ألا نلوم السائق ولا حتى الجرافة، بل أن نلوم فكرة الدمار.

-٤-

عندما تعود من رحلة القهر، تجد أسلوب الألم في انتظارك، فتُركّب جملاً مدرجة بالدماء.

دموع السائق كانت كدموع المحقق بعد ذلك، فبعد اعتقالي إبان المظاهرات والاحتجاجات كان موقف المفتش غريبًا أيضًا، أحب فيه قيامه بواجباته لأن الوطن يحتاج أناسًا يقومون بواجباتهم، ولكن أكبر فيه دمعتين أخفاهما عن الجميع، أكبر فيه إنسانيته، وفق منطقي البسيط دائمًا. لم أكن مدربًا على اللعب بالكلمات، بل دربتني الحياة على العدل والخير، قلت له حينها:

- عذّب كما تشاء، إن كان للجسد ثمن فلا بد أن يكون أرخص مما تظن، لكن انظر إلى الكون إنه أكبر من جسدي، أنا أتألم، لكن أخاف عليك أكثر من نفسي، أخاف أن تتألم روحك، فقد ظلمتني.

علينا ألا نلوم الأشخاص إذن، بل الأدوار التي خلقتها يد الزمن، المسألة مسألة حظوظ، والضحية والجلاد أدوار قابلة للتبادل في سينما الحياة، خصوصًا إذا كان المخرج رجلاً كالوطن يتقن فن العبث. لكن المحقق لم يبك وكذلك السائق.

لا يمكن أن تفهم الإنسان؛ إنه كائن معقد جدًا، أكثر تشابكًا من غابة الأمازون، كل ما يظهره وما يخفيه وما يظهره ليخفيه، ليس إلا القليل مما هو عليه حقيقةً. الإنسان ذلك المجهول.

حيوات الناس غريبة، لا تستطيع فهم الإنسان، إنه ذو طبع جميل، الإنسان في أعماقه لا يمكن إلا أن يكون إنسانيًا، أنا مؤمن بهذه الفكرة لدرجة أن الشرير لا يمكن أن تنطبق على بني آدم، إن الشر أسطورة تنغّص علينا حياتنا، وتلك الأدوار التي يخلقها

الزمان والمكان تجعل الإنسان ينسى طبعه الأصيل لتصبح تصرفاته غير مفهومة وغير مُستوعبة، الإنسان الشرير ليس إنسانًا، علينا أن نخلص الإنسانية من الشوائب والعيوب لتعود إلى طبيعتها الخيّرة. عبد الرحمن منيف هو الذي علمني كيف يمكن أن يكون الجلاد هو الضحية الأولى.

عندما نحتفظ بهمومنا الصغيرة يصبح الوطن فكرة ساذجة أمام تعاستنا، فكرة لا تتغير إلا حين يكون الوطن أكبر همنا، هذا كلام رجل مخلص، صحيح، أما السياسي فهمه أن يجعل الوطن فكرة ساذجة لسجن الرجال المخلصين في همومهم التافهة.

أفكار متضاربة، الوطن بقدر ما نعطيه معنى يفقدنا الصواب.

obeikandl.com

-٥-

أحقًا أحببتها؟ كيف أكون متيقنًا من حبي لها؟ صحيح، أحببت طريقتها في وضع ساعتها اليدوية، وكيف تديرها في معصمها، حقًا أحببتها! كنت مأخوذًا بها إلى درجة التقاط كلماتها كي لا تقع أرضًا وذبذبات صوتها كي لا ترحل بعيدًا، وأطلب من الصدى ردها لو حدث ورحلت، وجلب نظراتها كي لا تسرح، أحاول امتصاص كل إشاراتها كي أفهم جيدًا أني متيّم بها، كنت سعيدًا بانجذابي لها، هي الخريف وأنا الورقة اليابسة، يكفيني من حبها نسمات تدغدغني طوال الشتاء. هي القطة وأنا كبة الخيوط البنفسجية. العبي بي قطتي الجميلة، لست أكترث لحجمي فأنت امتدادي، أنت مدّي وجَزري. أنتِ البحر وأنا المركب تتقاذفني أمواج هيامي بك، أنت أنت وأنا لست شيئًا دون أنت.

إن كان هذا حبًا فقد أحببتها، لقد نسيت حتى أسئلتي المحيرة حول الحياة والألم والعقل والروح والآخرة.

في ابتسامتها الأولى اهتزت الطاولة، وفي الثانية تحرك الكرسي ورفعني عن الأرض، وفي الثالثة فرغت المقهى وبقينا: أنا وهي والطاولة، معلقين في مكان غير خاضع للجاذبية، هو الحب إذن حين يخفت الضجيج حولكما شيئًا فشيئًا إلى أن تنفصلا عن العالم أو يصبح العالم لكما وحدكما.. وطاولة.

تكفّان عن سماع ثرثرات الآخرين، تنصتان فقط لإشارات جسديكما، هذا الواقع الصوفي هو ما جعلني أكتشف حبي لها، أو جعل الحب ينكشف أمامي، لا يهم، فقد كنا نسبح في كل الاتجاهات، اختزلنا الوجود في ثلاثة أشياء: هي، أنا.. وطاولة.

أكان لا بد للطاولة من الحضور؟ ربما هي نزعتي الكتابية تترك

دائمًا احتياطًا للكتابة، أو ربما كانت الطاولة ضرورية للإبقاء بيننا على تلك المسافة من التعبير الإشاري، أو لنضع عليها بكل بساطة فناجين القهوة حين صحوتنا.

لا أفهم لغز الثلاثة، فأنا أحب الأرقام الزوجية، قلم ورقة وأنا وطاولة، هي إذن اختزال لأشياء متعددة. أحب حياة الاختزال فالتفاصيل لا تستهويني.

حب إذن أن أقبل أشياء لم أقتنع بها يومًا.

حب إذن أن أتخلى عن القلم والورقة وأسبح في دنيا التصوف.

إن كان هذا هو الحب فقد أحببتها.

«ليت قلبي لمحة من ذلك الضوء السجينِ

أهو حب كل هذا؟ أخبريني».

أحببتها وأنا أجلس إلى طاولة في مقهى، كثيرًا ما اعتبرت الجلوس في المقاهي كسلاً وجريمة ضد الحركة، الحب إذن هو الجريمة الأولى ضد الحرية.

والقانون.. هو الجريمة الثانية.

- ماذا تشربان؟ قال النادل.

- عصير الحب الخالص.

-عفوًا؟!

- كوكتيل مشاعر صافية، مع القليل من الجرأة للتقبيل.

كنا ندري أن طلباتنا لم تكن مدرجة في اللائحة، فمتى كان للحب ثمن. بل متى كان لنا الحق أن نطلبه، إنه عالم العشاق المفلس.

- ماذا تشربان؟ قال النادل.

- عصير ليمون حامض.

- والآنسة؟

- كوكتيل فواكه مع القليل من السكر للتحلية.

في الأدب فقط لا يكون للحب ثمن، ولا للجلوس في المقهى ثمن،

ولا للخـوف وجـود، والعشـق ومـا فيـه ليـس إلا كأس لـبن، بالقلـم فقـط يصبـح الإخـلاص والوفـاء والأكل والـشرب مجانيًـا، يمكنـك هكـذا بجـرة قلـم أن تطلـب مـن النـادل صحـن الديموقراطيـة لتطعـم منـه وطنك، وبالمقابـل يمكـن للوطـن بمسـطرة قانونيـة أن يحـوّل الديموقراطيـة إلى كـنز غـالي الثمـن، بعيـد المنـال، لا يسـدد إلا بالرقـاب والـدم، ويطعمـك كطبـق أخـير مـرارة غـدر الأوطـان. يدمـر بيتـك تحـت دجاجاتـك بـكل بـرود.

كنـت أشرب العصـير ببـطء شـديد، أو ربمـا شربتـه دفعـة واحـدة، لـم يكـن حامضًـا، الحـب عطّـل حاسـة الـذوق عنـدي، تـرك فقـط حاسـة البـصر، فـكلي أعـين مفتوحـة، أشرب عبرهـا مـا ينعـش حيـاتي مـن حـب وجمـال.

وتنهض كنساء السينما لتطل على المرآة.

أرجـو ألا تنظـري في المـرآة فأنـا أغـار مـن نظراتـك إليـك، ومـن تقابلك مـع زجـاج همـه الأزلي التحديـق في ملامـح العـذارى. اسـتعملي المشـط ببـطء ولا تضغطـي فأسـنانه السـكارى الـتي لا بـد أنهـا صنعـت عـلى يـد رجـل مـن قبيلـة المحدقـين يهـوى لمـس شـعور النسـاء، تجعلـني أموت مـن غضـب. لا تمـري قـرب البحـر فأنـا أغـار مـن ريحـه تلمسـك ولـو بنسـمات. والأخطـر مـن كل هـذا أن تقابـلي شـاعرًا يحضنـك مـن فـرط التشـظي ولـو بالكلمـات، فأنـا لا آمـن عليـك مـن سـطور القصائـد ولا مـن هوامـش الروايـات. أنـت لي وحـدي ولـك رجـل واحـد يحبـك حـتى مـا بعـد النهايـات.

نعـم هـو الحـب إذن يفـرغ فناجـين القهـوة وأكـواب العصائـر في الحلـق دون حاسـة ذوق، كمـا ليخفـي عنـك سرًا، أو يقنعـك بـأن مـا تعيشـه ليـس إلا حلمًـا.. محكومًـا بالجهـل وعطالـة الحـواس تدخـل المغامـرة، لا بـد أن تخـسر.

تلك نوستالجيا الدمار وتلك إستراتيجية الحب.

كلاهما يحملك بعيدًا عن نفسك، سواء تلك التي تسير بك عبر متاهات الحب ونفي الحب، أو تلك التي ترهبك بالدمار وإثبات الخراب، لا مفر من الكتابة، فلا الذاكرة ميتة ولا القلب صامت، أُكتب إذن أو كف عن إزعاج القلم، لو طرقنا باب الذاكرة فلن نجد إلا خرابًا في خراب، على خراب، والقلب الموجع بالحنين والذكرى لا يعرض عن الحب، فلو فتّشنا شرايينه فلن نجد إلا حبًا في حب.. على طاولة.

يقف الحب على حافة الذكرى، يجرّب الحياة على المخاطر والهوامش، في القلوب المنكوبة كأنك تنقل موناليزا دافنشي على كارنيكا بيكاسو، لتسأل كبيكاسو: أنت من فعل هذا؟ وسيجيب صوت من داخلك: «لا، الوطن فعل هذا»، تندم على التسرع وتعيد: «ربما الوطن فعل هذا»، أو أنك ستقول مؤكدًا: «أكيد الوطن فعل هذا».

-٦-

لكن لماذا يختار الخراب اللحظات الأكثر جمالاً ليطفو، ما رأيت زرقة البحر إلا وتذكرت الفضاء النيلي لغرفة الضيوف في القرية المهجورة، الغرفة كانت دائمًا على استعداد لاستقبال ضيف، طقم الشاي الفضي والكؤوس ذات الحواشي المذهبة معدة باستمرار كأن ضيفًا على الباب يدق، تقاليد ترسخت على حائط الكرم، نضع كل ما يلمع في غرفة الضيوف احتفاء بكل قادم يمكن أن يمر صدفة أمام البيت، لا بد أن يشرب الشاي لا بد أن يتذوق الفاكهة والحلويات، لا بد أن يشرب القهوة ويتناول بضع حبات من اللوز والجوز رفيقا مائدة الطعام، كأن الغرفة تنجبهما كلما دخل ضيف.

كلما دخلت الحديقة أرى بساتين جدي المتحجرة. وكلما عبرت سريرًا تزدحم الأسرّة في ذهني، وحمرة الغروب كل مساء، جمرة حارقة ألتقطها بين يدي، حمرة الغروب كل مساء، كل مساء، أتيه في ألوان زربية تازناختية كانت يومًا مسرح لعبي.. يا ذاكرة الخراب يا مسرح ألمي!

إحساس بالشتات، بالتبعثر، نعم تبعثر كأوراق شجرة الجوز في فصل الخريف، حتى لو حاولت جمعها، فإنها تتفتت بين يديك، وتزداد تشتتًا وضياعًا، داخل اللحظة يتطلب الأمر ساعات وداخل العمر يحتاج الأمر عمرًا آخر، عمر للخيبة وعمر للنسيان. الذكريات تظل تستنفد كل طاقاتنا، توقظ فينا بين الفينة والأخرى مشاعر غريبة، عندها تنهار وتسمح للدموع بالتساقط، فذلك يبدو أرحم من أن تبكي وحدك في الظلام، بصمت، غارقًا في بئر اليأس، لكن ليس أسوأ من أن تتحجر الدموع في مقلتيك وتأبى الخروج، سكاكين حادة تنغرز في لهاتك، تبحث عن الدموع فلا تجدها كأن جميع

السوائل نضبت من جسدك، حياتك تنقصها الحياة، وإذا رغبت في البكاء، لا تجد دموعًا كافية تغسل كل عذاباتك، مأساة، صدمة، كارثة، كابوس، مرارة.. تكرّس وضعًا ما كان له أن يكون، حين يصبح الجسد مستقلاً عنك يا إنسان، تصرخ صرخة قوية جدًا، يهتز لها الكون، ولا تغير شيئًا.. الإحباط.

فلا يبقى إلا التوجع ملء الحنجرة مع أغاني الغيوان حين يصرخون:

يا عالم كثرات لحزان
يا عالم علة ف لوطان
يا عالم مصير الإنسان
ياعالم نكبة ومحان.

ولا تبقى إلا الكتابة، قصص قصيرة تتراقص ألمًا، تود أن تقول شيئًا، أن تتكتب، فهناك عند نهاية كل شيء تبدأ الكتابة.

الزاوية 1

إن هناك في زاوية شبه مظلمة، يشعر باليتم، فقد مات شيء في داخله، شيء قديم كان يحبه، تذكره فجأة فأحس بثقل الذكرى، كل الرمادي يحيط جروح الماء الدرويشية المستحيلة. يحس بالتخلي، فالعالم يبدو من تلك الزاوية لوحة غامضة مخيفة ومستهترة، إنه يقاوم وحدته.

الزاوية 2

عادت إيمان من جديد لتقول له: كفكف حزنك وابتسم للحياة. كأن جوابها كان جاهزًا في حقيبة إسعافاتها العاطفية. باحترافية أخذت جملة مستعارة عادية لتلقيها صفعة على وجهه الرمادي كرمح عربي أخطأ مساره فزادته تعاسة. ورحلت وهي تبتسم كما

لتعلمه فعل الضحك. وبقي وحده يقاوم ضغط الحروف.

الزاوية 3

رفع رأسه من جديد لينظر في اتجاه القلق فوجد إيمان مرة أخرى أكثر حزمًا وقوة وتفاؤلاً تقول له: لملم شتات صفعة الكلمات ولتعزف به أنشودة لحن الحياة، لا تقل إنك حزين ففي الحزن عمق لا يدركه إلا المبتسم المتألم.. انظر في عيني وانظر إلى السماء وقل الحمد لله أني حزين.

تقول له انظر في عيني اليمنى لترى روعة الحياة، وانظر في عيني اليسرى لترى حلاوة العيش.

فتح عينيه بصعوبة واستسلم لابتسامة ولو أنها حزينة إلا أنها ابتسامة أمل.

obeikandl.com

obeikandl.com

-٧-

لكن، رغم كل شيء أحبيني.

شفتاك كزهر الرمان، أقضمهما كحبات العنب، يا قلبي لم خُلقت بكل هذه الأسرار، لا تنفع معك حكم جدي، تكلمي أو اصمتي، رائعة أنت في جميع الأدوار، مثّلي أو لا تمثلي فأنت معشوقة قلبي، تودين قتلي؟ أنا مقتول سلفًا، ادفنيني إذا شئت، أو لا تدفنيني، تمتعي بجثتي تتحلل، ستتحول حتمًا عظامي إلى جملة: أعشقك حتى الموت يا موتي.

هيفاء كسنبلة، لا تتمايلي، ارحمي جروحي، لا تضحكي، فكأنك تنزعين الضمادات عن جروحي المفتوحة دومًا في وجه الموت يا موتي.

لا تتحولي هكذا فجأة إلى سكين، كذب من قال إن الحب ليس عذابًا وألمًا، الحب عذاب طويل كالانتظار، ملتوٍ كالحية، يسير ببطء شديد كالدودة، ولكن يلدغ بسرعة كعقرب، لا يدع لك مجالاً للشك أو اليقين، تظل تطرح نفس السؤال: هل هذا هو الحب؟

يجدر بي أن أطير عوض التساؤل، السيارات والحافلات التي تملأ المكان تحسدني وتعبّر عن انشراحي بأضوائها، حفلة فضائية من أفلام الخيال العشقي.

عيناك، آه من عينيك! بنيتين كاللوز، غرفتي مليئة بك، وجدتك في الدولاب بين ملابسي، ملابسي الزرقاء، إنها أكثر ما يذكرني بك (الأزرق النيلي لغرفة الضيوف يطفو إلى الذاكرة، ليحتفل بعيد ميلاد ألمي، أشتاق إليك يا غرفة البحر الجبلية) الأزرق يستهويني، يشتت تفكيري وإحساسي ويعيد لمهما من جديد.

وكلما ابتعدت أبحث عن كوب حليب.

لا أدري لـم أتجـه دومًـا نحـو فكـرة شرب الحليـب كلمـا شـعرت بالضغـط النفسي. ربمـا بياضـه يوحـي بالصـدق مـع الـذات فأبحث عنه في غمـرة ارتبـاكي وبحـثي عـن نفـسي، أو هـو حنـين لثـدي الأم الـدافئ، وقـد يكـون حنينًـا للطفولـة ككل حيـث كل القلـوب بيضـاء كالحليـب؟ الأبيـض لـون الأطيـاف والأحـلام الجميلـة، الأصـل والمنتهـى، ومـذاق الحليـب الخاثـر الـذي يمـلأ الفـم بلزوجتـه الحليبيـة اللذيـذة يحملـك إلى عهـد قديـم مـن الذكريـات، كنـت فيـه كتلـة صراخ تحمـل مرضعـة وتجـر بـكاءك، ومـن عاداتنـا في الأطلـس أن نـرش العرائـس بالحليـب، حـتى أني شـاهدت جـدتي تغسـل ملابـس ملطخـة بقطـرات دم صبيحـة عـرس بالحليـب، وهـو نفـس الحليـب الـذي شرب منـه العريـس تلـك الليلـة، وربمـا هـو نفـس الحليـب الـذي.. مـا أروع سـيميولوجيا الحليـب الأبيـض، حـتى تلـك القصـة عـن الحليـب الـتي كتبهـا أحمـد بوزفور يومًـا عـن الحليـب تتداخـل الآن مـع أفـكاري داخـل هـذا النـص الأبيـض. إنـه لـون الطفولـة والمراهقـة ولـون الحيـاة والحـداد والمـوت. أمـا رائحتـه فهـي رائحـة معزاتنـا السـوداء الـتي تتنـاول نبـات الكـركاز بزهـره الأصفـر ورائحتـه القويـة الـتي تصـل حـتى لحـم وعظـام الماعـز. لذلـك كلـه لا أنظـر إلى سـواد عينيهـا أكـثر ممـا أنظـر إلى صفـاء بياضهمـا الحليـبي وعمقـه وتاريخـه ومـا خَطَّتـه العـروق الحمـراء الصغـيرة مـن قصائـد عليـه. سـأشربك إذن كلمـا شـعرت بارتبـاك وجـودي فناوليـني عينيـك يـا سـيدة البيـاض يـا حلـوة البيـاض يـا أنـت.

حـب قُـدّ مـن فـرط الإحسـاس، يسـير عـلى خطـى بنفسـجية مـن حسـن صنيـع الشـوق. كعالـم يرسـمه أورسـن ويلـز. إضـاءة هنـا وقبلـة هنـاك. طائـر مـن فـرط الدهشـة ينقـر المجـازات الـتي انسـكبت عـليّ مـن بهـاء إقبالـك عـليّ. أنـت وحـدك تنظمـين لي حيـاة فيهـا حيـاة. كمـا تنظمـين عقـدًا مـن الفـرح. عقيقـة بيضـاء ثـم عقيقـة حمـراء ثـم حقيقـة شـفافة ثـم حقيقـة كاملـة، وتختمـين بقطعـة مبسـم تتوهـج

داخـل سـريـدة كيـاني كمصبـاح يشـتعل، كثلـج ينهمـر ينتعـل حروفًـا مـن أبجديـة حـوار المـاء والنـار.

obeikandl.com

obeikandl.com

-٨-

مـات الجـد بعـد ذلـك، يقولـون مـات تحـسرًا عـلى الأرض، هـذا صحيـح، فقـد طلـب أن ندفنـه في المقـبرة القديمـة، كان يهلـوس مـدة يومـين قبـل موتـه، تحـدث عـن كل شيء تقريبًـا، عـن أمـه وقريتـه ونضالـه ضـد الاسـتعمار الفرنـسي وأصدقائـه في النضـال والمقاومـة، أول قنينـة غـاز قامـوا بتفجيرهـا في مقهـى فرنـسي، السـجن، التعذيـب، يلعـن الخونـة، في السـاعة الأخـيرة قبـل موتـه تحـدث إليّ بـكلام لـم أفهمـه.

بعـد أن تـأوّه تأوهًـا اعتقـدت أن روحـه فارقتـه، رفـع جفنيـه بتثاقـل، فتـح عينيـه بصعوبـة ثـم قـال:

- أنـت رجـل علـم وحكمـة، خـذ القلـم، أنـت أهـل للقلـم، خـذ القلـم وفـك رمـوز الحـروف وأسرار الأسـئلة.

صمـت للحظـة كأنـه مـات، تحـرك قلـبي مـن مكانـه لحظـات، ذعـرت كفـأر محـاصر، لكنـه استرسـل:

- السـؤال ليـس نصـف الجـواب، السـؤال كل الجـواب، وأنـت مكتـوب عليـك أن تحمـل القلـم وتكتـب، ربمـا هـو شـقاء أبـدي أو لعنـة قديمـة، هـذا مـا سـيقولونه، لا تكـترث لهـم، إنهـم جُهّـل مغبونـون، بالقلـم تسـتطيع حـل الألغـاز وقـراءة بواطـن الأسـماء، تـم اختيـارك لتحمـل القلـم، فـلا تـتردد، سـتكون.. رجـل حكمـة، ضـع.. هاتـين الكلمتـين في ذهنـك، رجـل وحكمـة، رجـل وبعـد ذلـك تكتسـب الحكمـة.

- ارتـح قليـلاً يـا جـدي، ستُشـفى قريبًـا وننهـي هـذا الحديـث، يجـب أن ترتـاح، الطبيـب يؤكـد ألا تجهـد نفسـك.

إنها حكم ما قبل الرحيل، وصايا الوداع، عرفت ذلك.

بعناده المعتاد أجابني مقاطعًا:

Obeikandl.com

- أنا علّمت ذلك الطبيب، أنت أيضًا ستعلم الأطباء، اسمع يا ولدي، ابحث عن الحكمة بالقراءة والسفر، سافر، فالمكان ليس مقدسًا (هذه أول مرة أسمع فيها نبرة التخلي عن الأمكنة عند جدي المتشبث دومًا بالأرض) الزمان عَرَض والمكان عَرَض، ابحث عن جواهر الأشياء وخوافي النفوس، ولا ترضى بغير الأجوبة التامة الكاملة الشافية.

هل عرف جدي شيئًا لم أكن أعرفه؟ لقد تأكد كلامه، صدقت تنبؤاته، أخذت القلم، كان قدري أن أكتب أقدارًا أخرى في قصص حزينة حزن المداد الأسود، هل عرف جدي أني سأشطط في استعمال القلم؟ لقد وقعت -كما توقع جدي- في هوى وغرام القلم والحرف، لا أشفى منه إلا بجرعات دائمة من البحث والسفر والحب.

في احتفالية الفراق وجماليات الحزن، ينهض جدي دومًا بقصيدة على بحر الحديث. يسترسل في الكلام في الهذيان في الانكتاب شفويًا داخل صدري.

فلأكتب إذن.

obeikandl.com

-٩-

ويمتصون من التأمل حليب السياسة، يقول الحجر وينسحب خجلاً: كلهم يرتلون القضايا قلقًا. يقول المطر وينزوي إلى سحابة حنونة: كلهم يفتتون النوايا جملاً على أذهان الآخرين. يقول ابن جيراننا وينصرف رفقة لفيفته الحشيشية الأم.

شيء من صمتها يقتلني، أمعناه أنها توافقني كلامي، أم أنه الصمت اللا مبالي الذي يستحث المزيد من الصمت؟ شيء من نظرتها يحيرني، كلما دخلنا مطعمًا تجعلني مقابل نظراتها والحائط كي لا تدع لي المجال لاستراق نظرة ولو عابرة لأنثى أخرى قد تدخل المقهى. احتياط فطري ضد كل امرأة.

غيرة النساء دائمًا تعمل في الخفاء.

شيء في صمتها يقتلني، في عمقها سيدة المسافات الحزينة وفي عينيها دملج وقت يغطي الأمنيات، تسير صمتًا إلى جنب مع الفراغ، تمتطي أسئلة مؤجلة كالأمل. ترتدي فستانًا طويلاً من النظرات الشاردة كسكون ميت لا محل له من الرقن، تحضن القلق تهدهده كي لا يثور فتسفك الدماء، هي حبيبة نهر اسكتان، تترقرق صورًا أرجوانية من تراتيل المعبد القديم. قربها مر عبد الله بن ياسين ليستنجد بالأمازيغ ويحكي لها عن غدر الرمال، كساعة سالفادور دالي السوريالية تتدلى على حيرتها تسكبها أنخاب تأويل مخدر لا يسمح بالتكرار، خلخالها مستكين ينصت لترنيمة عائدة من سيمفونية الحاج بلعيد تبحث لنفسها عن رباب يليق بمشاق رحلتها السيميولوجية.

رغم صمتها الغامض وحركاتها العفوية العادية، أحسست حبها يتدفق عبر شراييني، يدفئني، لا يمكن أن أخونها في لحظة شرود

ذهني، إنها تائهة يشغلها أمر ما عن التركيز على جمل الغزل التي تتزاحم للخروج من قلبي. شفتي خضراء، عيناي خضراوان، ربيع الحب يلونني، سأتكلم، لا سأسكت.

سكتت أيضًا، لا فائدة من الكلام، في الصمت مهلة لترتيب الحوار من جديد، في حوار كهذا بين العشاق، تفتح مساحات الصمت حوار الأمكنة، ويبقى لديكور المقهى وشكل الإنارة النطق بحكم الحب، أوقع فعلاً أم لم يقع؟ وما هي أدلة الإثبات؟ صمتُّ أيضًا، لم أستطع إجبارها على ملء الفراغ، فخيم صمت ثقيل. الصمت الثقيل يولّد شكًّا مزدوجًا، الشك في الحب والمحبوب.

للصمت تاريخ بحجم كل ما قيل من كلام، فيه يحدث كل شيء، فيه نحيا، نحدث أنفسنا، نرتب دواخلنا، نبني الحدث القادم، في الصمت أيضًا نموت، ندفن آلامنا وشكوكنا. في الصمت مهلة لترتيب الحب داخلنا، لتفعيل قوى السكون والهدوء، يجب أن ننصت لما تحكيه الريح على عتبات الخريف، وما تحكيه النوارس للفنار، هناك في عمق السكوت الطويل رداء ضد الثرثرة العابثة والفراغ، كل الأشياء تحكي في صمت رسوبيّ قديم، الشبابيك الحديدية الملتوية وخشب العرعار وعتبة البيت وقشور طلاء ماء الجير وتلك الرسومات الزرقاء في سقف الغرفة، اليد النحاسية على الباب الكبير، كم لها من قصص ووجوه. الكتب المُجلّدة تحكي، التلفاز الرمادي، المذياع الخشبي، صمت ثقيل يحكي التاريخ بعيدًا عن الضجيج بعيدًا عن الحكي نفسه وكل مداراته، الردهات المظلمة ليل نهار، المواعيد خلف الدار. موسيقى أعراب أتيكي الشعبية، اللوز والجوز وزهر الليمون، رؤى حلم صامت حد الكلام.. تكلم يا صمت تكلم.

أكره الصمت الثقيل الذي يطبق على المكان كتلك اللحظات ما بعد الأخيرة، التي والت مرحلة التدمير، حيث السكون التام الذي

يـوازي النهايـة، نهايـة كل شيء.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٠-

كتلـك الدقائـق غـير المحسـوبة عـلى الزمـان، الـتي مـال فيهـا رأس جـدي بـين ذراعـي، وهـو يـوصي بالوطـن خـيرًا، رغـم كل شيء.

ذلـك حـوار الأمكنـة الـذي يأخـذ مـن الصمـت خيطًـا يغـزل بـه نسـيج المقاهـي والغـرف والقـرى المهملـة ورأس جـدي الـذي مـال كسـنبلة مثقلـة.

ذلك حوار الأمكنة، ينظم المتشابهات والأمثلة.

Obeikandl.com

obeikandl.com

-١١-

لحظات الصمت طالت بيننا، تنبئ بقرب نهاية ما، كنهاية قريتنا الجبلية، لكن هل يمكن أن تكون جمل الغزل التي أرددها كركام الجدران؟ وأن يكون للمساتي صوت انكسار أبواب الغرف والمخازن؟

لن يحدث هذا بالحماسة التي التقينا بها، لا يمكن أن نفترق بهذا البرود الصقيعي لحب نضج على نار هادئة، إنه يحدث في ذهني فقط، أنا المهووس منذ فراق القرية باستباق الفراق واستعجال النهايات، إذ بفلسفة غبية أردد: بعد النهاية مباشرة تظهر الأشياء على حقيقتها حين تستنزف مقومات الزيف والتزوير والمظاهر الفارغة، الحقيقة تنتصب بعد الخراب لا غبار عليها.. لا غبار عليها أي حقيقة هذه؟ الحقيقة الوحيدة هي أن الغبار غطى كل شيء، أوراق الأشجار، الأثاث المكوم أمام أبواب المنازل، الماشية، خصوصًا الحمير السوداء التي تحولت إلى اللون الرمادي، مسخت مسخًا تامًا، كل شيء غطاه الغبار.. ووجه جدي أيضًا، لننسى حتى حين.

لا أستطيع أن أنسى.

صدري يشتعل بالغضب والتمرد كلما ساقني حرف إلى الحديث عن قريتي المدمرة. لن أغفر للوطن هذه الخطيئة.

نظرت نحوي وقالت:

- ماذا تريد من الوطن؟
- أريد وطنًا يضمني إليه بحنان، حتى يكسر أضلعي حنانًا.
- عجبًا! لا تتحدث عن الوطن إلا وتتحدث عن التكسير والعنف؟
- لقد شرب أسلوبي من منابع الدمار، كيف له أن يتحدث عن

الحنـان، عـن ضمـة وطـن أو قبلـة بلـد؟

- هل تحبني؟

- نعم.

- صحيح (وتضحك) ما الذي يعجبك فيّ بالضبط؟

- بالضبط؟ لا أدري بالتحديد.

هـي كذلـك المرأة تضع نفسـها بينـك وبـين الوطـن، لا لأنهـا تهـوى الحديـث عـن الحـب، بـل لأنهـا وطـن احتيـاط يقبـل دون شروط لجـوء الرجـل المُبعَـد قسرًا عـن الأمـل.

- كيف لا تدري؟

- ربما عفويتك وبساطتك.

- أنـا أبسـط ممـا تعتقـد، أنـا مثـل جيـل بكاملـه، بعنفوانـه، بحبـه، بغضبـه وفرحـه.

نعـم أعـرف ذلـك، أنـا الغريـب في هـذا الجيـل بهـذا الوطـن، أنـا نـوع آخـر تكونـت أحاسيسـه تحـت الحطـام والفقـر، يعيـش الحـب حـتى النخـاع ويشـك فيـه بعـد أن ينضـج ويكـبر. أمـا غضبـه؟ لـم يعـد يغضـب، ماتـت الأحاسيس في جوفـه ودفنهـا، تغضبـه الذكريـات فقـط، لا تغضبـه تمامًـا، بـل تزعجـه كالذبـاب. حمـار عـلى أبعـد تقديـر كمـا قـال أحدهـم: «مـن اسـتغضب فلـم يغضـب فهـو حمـار».

- لم أنت حزين؟

- لسـت حزينًـا، أحـس موتًـا داخليًـا يعشـش في قلـبي، أمـل يابـس، أو لنقـل لي قلبـان، أحدهمـا حزيـن والآخـر يتعلـم الفـرح.. عـبر النسـيان.

- أوه، كن عاديًا!

- لا أستطيع.

- افـرح، افـرح، لـن تخسـر شـيئًا، انهـض واصرخ في هـذا المطعـم، قـل أنـا سـعيد جـدًا، وستسـعد.

- لا أستطيع.

- أحيانًـا لا أفهمـك، نضالـك وقوتـك تصبحـان كمركـب صيـد قديـم تتقاذفـه أمـواج البحـر، لا أذكـر أيـن قرأتهـا ذات يـوم، لكنهـا قولـة جميلـة، تقـول: لا يجـب أن تزعجنـا الأشـياء الـتي لا نسـتطيع تغييرهـا.

- سأصبح تافهًا وبسيطًا كالذباب.

- أن تفـرح حقـك الطبيعـي، لا أحـد يمنـع الفـرح، يمكـن أن تفـرح هكـذا مـن فـراغ وتسـتفز جسـدك عـلى إنتـاج السـعادة، انظـر إليّ (تقـف وتـدور حـول نفسـها برشـاقة، لفتـت انتبـاه مرتـادي المقهـى لكنهـا لـم تكـترث لهـم بـل تابعـت مسرحيتهـا الـتي تغريـني بالفـرح) أنـا سـعيدة، فرحــة، مــن يســتطيع أن يثبــت العكــس، منســجمة مــع ذاتي، فرحــة بأخطـائي وهفـواتي وفضـولي، وحـين أغضـب أصـبّ جـام غضـبي عـلى موضـوع غضـبي في ذات الحـين.

- أنا لست غاضبًا، أنا حزين.

- وتستحلي فكرة الحزن، هذه مصيبتك.

- هذه لعنتي، إني أتعذب، أتعذب.

ربمـا ليـس عذابًـا، أخـاف فقـط أن أستسـلم لفـرح سـاذج يسـتنفد دفء الإحسـاس بالحـزن والدمـوع السـخينة، يـا لبـؤس هـذا الإنسـان! لا يسـتطيع التخلـص مـن الحكايـا القديمـة.

Obeikandl.com

obeikandl.com

-١٢-

ماريا مقبلة على الفرح دون احتياطات، كما تقبل على الحب، حركاتها تشع حيوية حتى طريقتها في شرب العصير فيها الكثير من اللذة، كأنها تحتفي بكل قطرة تحتسيها، عكسي تمامًا، فإما أن أشربه دفعة واحدة وإما أتركه. أنظر في الكأس أقيس درجة اصفرار البرتقال، بين الأحمر والبرتقالي، فلا أشربه، فلونه قد يكون لون قصعة الكسكس الساخن الذي تسقيه جدتي كل يوم جمعة، يجتمع حوله أطفال الدوار يلتهمونه ولا يحسون بسخونته في زحمة الصراع إلا بعد أن تسلق أصابعهم.

{وتلك القصعة أتت عليها جرافة الوطن، فاستحال أحمرها دمًا على الخد يسري، وجدتي ما عادت تفتل السميد}.

تحضر إلى مواعيدنا في الوقت المتفق عليه مسرورة باللقاء، تقفز كالغزال تمزج ألوان الأمل على جسدها في بذلة محسوبة المقاس، تحيط خصرها في دقة متناهية. تترك دائمًا فرصة لرؤية أعلى صدرها، خصوصًا حين تنحني قبل الجلوس مباشرة لتدع لك مجالاً لتدرس التاريخ على مدى خط مستقيم يرسمه التصاق نهديها، فتلعن في نهايته فكرة صناعة الأقمشة والألبسة، ينتفض جسدك وينخطف بصرك، يتصلب كالخشب لسانك في أقل من ثانيتين، تبحث عن المدى وامتداد المدى، وتتخيل العرق أو الندى على تَلّتين مكورتين ترفعهما وتضغطهما صدارة من الجهتين، يا تضاريس المدى! كيف للإنسان أن يستقيم ومستقيم كهذا، لم ترسمه مسطرة، يهز أركان الجسد ويصب في الأعماق قطرة سم؟ المدى.. الندى.. ماذا؟

أما أنا فأحضر ساعة قبل موعدنا، لأتلذذ بالوحدة ولأدع مجالاً

لأتأمـل الأشـياء وأتذكـر المـنزل الأول والحبيـب الأول.

كم منزل في البعد يألفه الفتى

وحنينـه أبـدًا لأول منــزل

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

مـا الحــب إلا للحبيب الأول

أنـا غـبي، شرد ذهـني، أراني حمـارًا يعشـق العـذاب تحـت أشـعة شـمس حارقـة، وقربـه ظـلال وارفـة، أطريقـتي في الحـب صحيحـة؟ هكـذا يتـصرف المحبـون؟ لأن تنشـئتي خاطئـة لا يبقـى أمامـي إلا المقارنـة، عابـس دومًـا، هـل أنـا عاشـق ماهـر؟ صحيـح أني أفكـر في ماريـا أحايـين كثـيرة، وتسـتولى عـلى بـصري صورتهـا، فأراهـا في جميـع الزوايـا والممـرات.. والأسرّة. وأحيانًـا أجعـل طيفهـا يسـتحم معـي، لكـن...

obeikandl.com

-١٣-

حين سألت صديقي مراد يومًا، ما الحب؟

قال:

- أنـا أعشـق ولا أحـب، ألتهـم العنـق وآكل الشـفاه، ألعـق الظهـر وأمـص النهـد، أضغـط الأرداف وأعـض الأكتـاف.

- أتعشق دجاجة أم امرأة؟!

ضحكنا بعدها، رغم أن الزمن مضاد للضحك.

ابتسـمت لهـذا الحـوار العالـق بذهـني، مـر زمـن طويـل، كأنـه يصـف وجبـة شـواء. لا بـد أنـه مـن النـوع الـذي يـرى المـرأة «وليمـة فـوق سريـر».

أفقـت مـن هـذه اللقطـة السـاخرة وأنـا أبتسـم بغبـاء راسمًا ابتسـامة البلـه عـلى وجهـي، لـو أن أحدهـم مـر بقـربي آنـذاك لازدادوا يقينًـا بغرابـة أطـواري.

أنـا لسـت مـن هـذا النـوع، أيـن مـراد الآن؟ إنـه بعيـد كل البعـد، أتصـوره يدفـع عربـة الأطفـال في الحديقـة العموميـة، عربة طفلـه الرابع أو الخامـس. وزوجتـه تمسـك بذراعـه، تمسـكه بقـوة، هـل تـزوج فـدوى أم ابنـة عمـه؟ ابنـة عمـه عـلى الأرجـح، فقـد وعـده أبوهـا بالعمـل معـه، حياتـه إذن مريحـة، أتصـوره بضًـا كثـير اللحـم والشـحم، بـارز الوجنتـين، أحمـر كالتـوت، منتفـخ البطـن كبطـة، مترهـل المقعـدة، أملـس البـشرة، بـارد الأحاسـيس، تصنـع لـه أمـه العجـوز مقويـات طبيعيـة تقليديـة تشـعله كل ليلـة، مسـحوق الجـوز واللـوز والإلان والتمـر والفـول السـوداني وأشـياء أخـرى، هـذه نتيجـة عـض الأكتـاف وهـز الأرداف.. وحمـاه وحماتـه يتحكمـان في أصغـر تفاصيـل حياتـه،

obeikandl.com

ربما يهددهم بين الفينة والأخرى بالرحيل وترك الزوجة والأولاد، لن يفعل ذلك؛ لا يستطيع؛ إنه جبان. باطلة حياتك يا مراد، قاومت الحب بالجنس، فدوى دوختك ورفضت الاعتراف بذلك، هل كنت مثلي حينها لا تدري إن كان حبًا أم شيئًا آخر؟ ما لا يمكنك نكرانه أنها رفضتك.

وحياتي أيضًا باطلة.

مراد على الأقل ساهم في التعمير، أنجب أولادًا، يكبرون، يدرسون، يثقلون الكرة الأرضية، يحركون الاقتصاد، يتزوجون، يتناسلون، أما أنا فقد توقفت معي عجلة الحياة والاستمرار، أنا الباطل، الباطل يأتي من بين يديّ ومن خلفي ويخرج أحيانًا من أسفل حزامي، لا يهم، أردت لنفسي حياة أخرى، ما زلت أبحث لها عن معنى بحضوري قبل الموعد بوقت طويل.

obeikandl.com

-١٤-

ماريا تحب الزيتون، تحضر كيسًا من الزيتون الأسود أو «المشرمل»، تأكل منه كل وقت وحين، هي من أصول برتغالية، انتقلوا قديمًا إلى الأطلس شمال إفريقيا، وحين غادروا مدينة مازاغان إلى البرازيل بأمر من العسكري الماركيز بومبال، بقيت عائلتها بالمغرب، لأنها كانت مرتبطة -على غير عادة المستعمرين- بعائلة أمازيغية عن طريق المصاهرة، وتحتفظ عن أجدادها الإيبيريين بشعر أشقر، كما تحتفظ بإتقان اللغة البرتغالية، وهذا ما يميز الكثير من العائلات التي استقرت بالمغرب بعد انتهاء الحملات الاستعمارية وخروج أغلب المعمرين، وورثت عن أخوالها الأمازيغ عينيها البنيتين وأنفها المستقيم الصغير، حضارتا الشرق والغرب أنجبتا هذه المرأة الرائعة على أرض هي تاج إفريقيا. أنجبتاها من أجلي.. وحدي. ابنة أكبر إمبراطوريات العالم تجلس إليّ في علاقة حب بائسة.

والبائس أنير (كما يسمونني)، يفتخر جدي لأمي بأصوله العربية حين يتحدث عن قبيلة «أيت داود» يقول دومًا «أجدادك يا بني عرب، حضروا من الشرق، يحملون إرثًا ثقيلاً من علوم الصين والهند والجزيرة العربية».

كان جدي دائمًا يفكر في اتجاه الشرق، تجاه الشمس، تجاه مكة المكرمة.

وعندما أسأله: «ألم يكونوا يهودًا في البداية؟» لا يجيب.

يفضّل الصمت، يسكت دون سابق إنذار، ربما هو لا يدري، كل ما يفخر به بعض ما يسميه، «أسرار الكون» يقول إنه وارثها،

Obeikandi.com

وسـيعلمني إياهـا بالتدريـج، علمنيهـا لكـني نسـيتها، يتحـدث عـن الأوليـاء والصالحـين كأنـه عـاش بينهـم، يعيـد ويكـرر سـيرة أبي الليـوث أو الأسـود، ويـصر عـلى أنـه راقـد في مـكان قريـب مـن قريتنـا يسـمى «وامسـلاخت»، أنصـت لخرافـات جـدي باهتمـام، تعجبـني طريقتـه في الحـكي والمبالغـة وتهويـل الأمـور واستسـهال تنقـل الأوليـاء الصالحـين بـين البلـدان، مشـيًا أو عـلى الـدواب الـتي لا تتعـب، تجدهـم في عـدة أماكـن في نفـس الوقـت، وعندمـا أتعـب مـن حكاياتـه أسـتمر في الاسـتماع، خوفًـا مـن غضبـه الشـديد، عصـاه الطويلـة قـد تطالنـا في نوبـة غضبـه، وقـد يـصرخ بشـدة في وجوهنـا.

- لذلـك حرمكـم الله مـن البركة لأنكـم لا تحترمون الأوليـاء والصالحين أسياد الدنيـا والآخرة.

يذهـب جـدي سـنويًا إلى مراكـش يـزور رجالهـا السـبعة، ويعـود فرحًـا منتشـيًا، كأنـه عريـس، يجلـب البركـة إلى هـذه الأرض عـبر ممـر "تـزي نتاسـت"، الممـر الوعـر بـين جبـال الأطلـس الكبـير، لكنـه كان عنصريًـا يحـب إكرامـن ويكـره إسـمكان. يقـول دومًـا: "أينمـا حـضر الأسـود فانتظر مصيبـة"، وذلـك حـين يغضبـه أحـد الخماسـين» أمـا إكرامـن (الشرفـاء) فـلا يذكرهـم إلا بلقـب سـيدي أو لَـلاَّ.

أمـا أبي، أبي رجـل حـر، أمازيغـي، سـكن الجبـال قرونًـا وقرونًـا، يحـب الزراعـة والأرض، حرفتـه الـتي يتقنهـا، في مجـال تحكمـه العـادات والأعـراف والتقاليـد ولا يرضـخ لسـلطان، حـين تضيـق بـه الجبـال وأرض البيضـان، يرحـل إلى صحـراء السـودان، وسرعـان مـا يعـود إلى أرض الأجـداد.

مـات الأب في ريعـان الشـباب، ولأنـني كنـت صغـيرًا فقـد نقلـت تعلقـي الأبـوي إلى جـدي، أمـي لـم تعـد إلى بيـت أبيهـا بعـد ترملهـا، بـل فضّلـت البقـاء في البيـت الكبـير وفـاء لأبي، فالـكل يعـرف قصـة حـب طائشـة وصلـت أخبارهـا الدواويـر المجـاورة. تعلقـت بـه وبذكـراه

ورفضت أن تتزوج بعد موته، وبقيت أرملة وفية لحياته، كما كانت تعبر فهي حين تتحدث عنه تقول: «حياة باباك الله يرحمه». ومات الجد أسفًا على أرض دمرتها آلة ضخمة من القرن العشرين بكل بساطة، أحسست هول الصدمة ووقعها على جدي، فالأرض بكل هذه الامتدادات والمعاني لم تكن بالنسبة إليه مجرد أرض، مات كمدًا بعد أن أضحى من المعمرين وتجاوز سنه العشرة بعد المائة.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٥-

- تريدين عصيرًا آخر؟
- لا شكرًا، أريد أن أسمعك تتحدث، استمر!
- مقهى جميل، مؤثث بطراز رفيع أصيل، أليس كذلك؟
- بلى، مقهى الزعفران، إنه رائع، تالوين ما زالت محتفظة بطابعها الخاص. ولكن تلك الزخارف الأندلسية وألوانها الطافية لا تسير مع طبيعة المكان، في الجبل أحب أن أجد المثلث.
- أتأتي إلى هنا مرارًا؟
- نعم.
- مع من؟
- مع ذكراكِ.
- أكانت ذكراي رشيقة ترتدي الكعب العالي؟
هي المرأة دومًا تضع احتمال وجود أخرى، لا تحب حتى أن يكثر رجلها من استعمال المفردات المؤنثة، فقد تجعل للذكرى سيقانًا وأقدامًا وتلبسها كعبًا عاليًا.
- لا كانت تسبح في السماء كطيف أزرق.
- سأترك طيفي يواعدك إذن ويحرسك، فأنا مسافرة إلى طنجة لإجراء مقابلة معهد السياحة، وسأبقى أيامًا، فأنا أحب هذه المدينة كما تعلم.
- قررتِ السفر إذن، غريب! أحتاجك أكثر بقربي.
- أنت آخر شخص أودعه.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٦-

عزيزتي الغالية ماريا:

اشتقت إليك بعد أن رحلت مباشرة، أعرف أنك رتبت الأمور بطريقة تجعلني آخر من يودعك، آخر من ترين في هذه المدينة التي أجدها اليوم فارغة بدونك، كأنك سحبت الوهج الذي يضيء طرقها وأسوارها بمغادرتك.

في البداية عندما أخبرتني عن سفرك وجدته عاديًا، تقبّلته، لكن في هذه اللحظات وأنت بعيدة، وربما ما تزالين على متن القطار إلى طنجة أحسست بفراغ قاتل، لذلك قررت أن أكتب لك، وأرسل رسالتي على جناح الأمل بأن تصلك في الوقت المناسب، كما يعبّرون في كتب الرسائل القديمة، لقد اكتشفت حضورك في غيابك، أود الآن لو أترك كل شيء لألحق بك، وأضمك بحب زائد فوق العادة، لأتبادل معك شحنات تقيني شر الفراق والاشتياق، بدون تحفظ إذن، أحبك، أحبك كثيرًا يا ماريا، يا فتاة الحضارتين، أتذكرين هذا اللقب؟ فرعونية أنت في استقامة أنفك، غجرية في تجعيد شعرك الذي يغطي كتفيك.

أعرف أني أتعبتك بحبي وذكرياتي، ذكرياتي على الخصوص، لذلك قررت أن أكتب لك كل شيء منذ بداية المأساة، كما احتفظ بها عقلي الصغير حين كنت طفلاً، رغم أن الطفولة دائمًا تجرّنا إلى أشياء لولبية، ضاربًا عصفورين بحجر واحد سأبدأ الحكي، الحجر الأول أن أتخلص منها (أعني أشياء الذاكرة) والثاني أن أؤنس غربتك ووحدتك -رغم أني أشك في أنك ستبقين وحيدة- ستجدين الوقت الكافي في مدينة كطنجة لتقرئي كل شيء، أنت التي تحبين الإطلال على جذورك، طنجة هي المدينة المناسبة لك.

كنت في الحظيرة أضع العلف في المخلاة وأعلقها في عنق الحمار، عندما انتبهت إلى أن جدي انقطع عن العمل، غسل يديه من الطين العالق بهما كأنه يغسل الغضب، وتوجه إلى ساحة القرية التي يجتمع فيها «آيت ربعين» هذا المجلس الذي يعتبر كمجلس شورى، يتباحث فيه الرجال أمور البادية من تنظيم للسقي، وحل للخلافات، وعقد المصالحات. جمعت الأدوات التي يمدر بها جدي جدار إحدى الغرف، ورششت الطين المتبقي بالماء، كي يبقى مبللاً صالحًا حتى الغد والتحقت بالساحة.

منذ الستينيات كانت الدولة تبحث مخطط إقامة السد على وادي سوس، وقامت بدراسات كثيرة، تقرر إنشاء سد بالمنطقة حيث بدأ العمل فيه منذ الثمانينيات، بإحصاء ممتلكات السكان الذين سيتعرضون لنزع الملكية، وهي أقود مسطرة في القانون، صدمة أهالي الدوار والدواوير المجاورة لا توصف، فلا يطلب منك التخلي عن أملاكك فقط، بل عن تاريخك، حضارتك وماضيك.. رد الفعل كان عكسيًا، ازداد السكان تعلقًا بالأرض والأشجار.

أعيد سرد هذه الأحداث، وكأني أضغط على الدمامل والبثور، وأثقبها بمسمار حاد. تحدث مقدم القرية (الذي فقد هيبته أمام الناس، منذ أن أصبح منحازًا للسلطة بعيدًا عن قرارات مجلس القرية هذا) فكان كلامه قرارات مخزنية، مليئة بالتهديد والوعيد، وهذا ما أدى بالبعض إلى شتمه، لكنه واصل:

- سواء أردتم أم لا، وعلى الجميع التعاون مع موظفي التجهيز لإحصاء ممتلكاتكم وأراضيكم ومزروعاتكم وهذا في صالحكم.

- مصالحنا في البقاء على أرضنا والدفاع عنها.

- لا نريد تعويضًا، نريد البقاء في منازلنا ولتهدم فوق رؤوسنا.

بعد فورة من الغضب والسب والشتم والصراخ والمناقشة، تفرق الأهالي دون حسم الأمور.

جاء فيما بعد موظفو التجهيز، حمر الوجوه، تظهر عليهم آثار النعم، كروشهم منفوخة ومتهدلة، أقلامهم كالخناجر، حدث هذا بعد مدة طويلة، هؤلاء الموظفون أسوأ خلق الله. بدوا لي أثناءها سربًا من الخفافيش ورفًا من الغربان.

اصطحبهم المقدم أولاً لإحصاء أشجاره وممتلكاته (المقدم أيضًا ضحية، لكن التزاماته تفرض عليه أن يبكي إلى داخله وأن يذرف الدموع إلى صدره ،حسب منطقي الإنساني الساذج البسيط)، ونظرًا لفهمه العميق لحيثيات الإحصاء رشى الموظف، الذي بدأ يعد أشجارًا غير موجودة، حتى الأزهار ربما اعتبرها شجرًا لكي يضخّم قيمة التعويضات للمقدم، وكان يعتبر جذوع نفس الشجرة أشجارًا مستقلة.

على عكس ما حدث مع جدي، عوض تقديم الرشاوى، قدم أطباقًا من الكلام القاسي، والسباب والتذمر واللعنات، واستنجد بكل الأولياء والصالحين (لم يحضر منهم أحد، مراكش بدت بعيدة وأبو الليوث أصبح نعجة) وهذا جعل الموظف يتعامى عن الكثير من الأشجار والممتلكات، وحتى منازل جدي وأعمامي الأربعة اعتبرها منزلاً واحدًا. بعض هؤلاء الموظفين أضافوا أسماء زوجاتهم للاستفادة من التعويضات ووضعوا أسماء خيالية ربطوها بحساباتهم البنكية.

في البداية استسلم الناس لهول الكارثة، وربما استمتعوا بحضور الغرباء إلى الدوار خصوصًا الفتيات، فقد وجدن في ذلك فرصة لاصطياد زوج. حتى في وقت الحرب ستظل الفتاة القروية تترصد الفرص لاصطياد زوج.

طلب منا إخلاء المكان في ظرف أسبوع، يا إلهي! إلى أين سنذهب؟ لم يكد ينتهي الأسبوع حتى جاءت الجرافات والمخول، وجاءت أيضًا قوات مسلحة، يا لظلم الوطن! أين سيسكن هؤلاء

Obeikandi.com

البشر الحشرات؟ إنها أسوأ لحظات حياتي، لم أستطع حتى الآن استيعاب هول الكارثة.

كلمات رجال السلطة ذكّرت جدي بأيام الاستعمار الفرنسي، على الأقل آنذاك كان بإمكانه الدفاع عن الأرض المستلبة ضد عدو واضح المعالم، كافر كما يقول، أما اليوم، فإنه يصرخ في هستيريا كئيبة يندى لها جبين الوطن:

- اليوم قامت قيامتي، هذا التراب سآخذه معي أينما رحلت.

ثم بدأ يأكل التراب في جنون أصابني بالذعر والخوف.

أخافني جدي الذي تغيرت ملامحه، وجهه داكن حد السواد، منتفخ الودجين كحيّة، خفت آنذاك أن يموت غضبًا، كمدًا، أسفًا على تاريخه، صدقيني ماريا، كنا في عالم منعزل كأي قرية جبلية في الجنوب الغربي، تجري مياه وادي سوس وسط قريتنا لتسقينا وتطعمنا، قريتنا كانت جزيرتنا التي نعيش فيها مكتفين بالقليل، نعيش في قناعة وبساطة إلى أن حضر مهندسو الدمار.

أرجو أن تعفيني من وصف مشاهد الدمار، لأني بدأت أفقد السيطرة على أسلوبي، خلاصة الأمر أننا هاجرنا قبل الحصول على التعويضات، جدي رفض كل تعويض، فلا يمكن للمال أن يعوضه عن الكرامة، لكن عمي لامه كثيرًا، فالكرامة يمكن أن تباع تعويضًا عن التشرد أو الموت جوعًا وبردًا، معنى الكرامة قابل للاسترخاص في المزاد الوطني كلما ارتفع معدل الفقر والجوع.

تقيأنا الوطن في منطقة غابوية كالوحوش، اثنا عشر دوارًا في فج صغير لا يسع آلامنا، ماشيتنا أو ما تبقى منها بعناه، التحق البعض بأهاليهم في مدن وقرى أخرى، وبقي الآخرون، نحن أقمنا خيمة من البلاستيك والقش وأخشاب استطعنا تهريبها أثناء الدمار.

كأن زلزالاً أتى على القرية، دمرها تدميرًا تامًا، لا يمكن قياس درجته إلا بمقياس غدر الأوطان، يا وطنًا قدمنا له دماءنا في مرضعة،

obeikandl.com

أتطعمنـا سـمًا بعـد أن نبتـت أنيابـك؟!

رفضتنـا المنطقـة الجديـدة، فترابهـا لا يصلـح للبنـاء، عـلاوة عـلى أنها في ملـك أنـاس آخريـن، تقدمـوا بملفاتهـم ضدنـا في المحاكـم وحكمـت المحكمـة لصالحهـم، تحيـط بنـا مصالـح الميـاه والغابـات الـتي اجتهـد مديرهـا في رصـد معزاتنـا، فكلمـا هـرب تيـس وتجـاوز الحـدود ندفـع ضريبـة عـلى ذلـك، المهـم أن الإدارات والـوزارات تكالبـت علينـا كأننـا حـشرات زائـدة عـلى أرض هـذا الوطـن. يـا وطنًـا يلتهمنـا كبعوضـة عـلى لسـان ضفدعـة!

مـا أقبحـك يـا وطـن حـين تتخـذ شـكل مسـطرة قانونيـة يعـتز موظفـو التجهـيز الجُهّـل بتطبيقهـا حرفيًـا عـلى أعنـاق الفقـراء!

obeikandl.com

-١٧-

ماريا حبيبتي:

لـولاك، لـولا عينيـك، مـا كنـت لأنظـر في أعـين البـشر. أحبـك كثـيرًا؛ تسـتمعين لتفاهـاتي دون أن تمـلّي، تسـتحملين عقـدي وضعفـي ولا تشـتكين أبـدًا، قـدرك وحظـك أن تقـرئي هـذه المأسـاة.

هـدم البيـوت والمنـازل تـم في أسـبوع، أمـا صرف التعويضـات فقـد استغرق عـشرات السـنوات، وحـتى الآن وأنـا أكتـب لـك بعـد ٢٧ سـنة، هنـاك مـن لـم يتوصـل لدرهـم واحـد مـن مكتـب الإيـداع.

هـل مصلحـة الوطـن تقتـضي قطـع الإنسـان إربًـا إربًـا ورميـه في كـوخ بلاسـتيكي؟ لا يمكـن لأي تعويـض محـو هـذه الصـورة مـن ذاكـرتي، سـأظل أسـتقبحها في وجـه الوطـن، ألعنـه وأسـبه في سري وعلانيـتي، لأنـه تركـني عرضـة لـبرد الشـتاء تحـت كـوخ بلاسـتيكي بعـد أن هـدم منـزلي وقطـع أشـجاري ورفـش مزروعـات بسـتاني الصغـير.

أعـرف بأنـك سـتقولين بـأن الوطـن فكـرة مجـردة لا علاقـة لهـا بتصرفـات إدارة قاسـية، وأن الوطـن هـو ذلـك المعـنى الـذي نقاتـل مـن أجلـه كل الـدلالات، وأن نـدوس عـلى قلوبنـا فرحًـا مـن أجلـه، وأن نعـتز حـتى بآلامنـا في حضرتـه.

أعـرف هـذا، لكـن مـاذا لـو كان الوطـن هـو الـذي يـدوس قلبـك؟ وهـو الـذي يهينـك وهـو الـذي يجرحـك، فهـل يبقـى فيـه أمـل حـين ينهـي ماضيـك ويدفنـه مـن أجـل بحـيرة مـاء، سـيغرق فيهـا مسـتقبلك أيضًـا؟ فيـا لـه مـن وطـن!

ضـاع المعـنى وتقنـع، واحتفـل عـلى لسـان الحـشرات بوجـودك في سـمائي.

معـنى مقنـع لا ينتمـي إلى كلمـة، قـرر أن يهبـط عـلى ظهـر نحلـة تكـثر

التوهان بين حقول الذرة. يلامس في بعض رموشه شيء من الخجل الذي تحتويه نظرتك السرية كأنك تنظرين من تحت وشاح قصيدة نزارية بالغت في وصفك. حط المعنى على حاشية الطريق السريع ليراقب نملة منهمكة في لم ابتسامة تشبهك بعدما قررت أن الشتاء هذا العام سيتأخر وسيترك لها فرصة الرقص مع المعاني الهائمة على وجوه القصائد. طار المعنى محلّقًا فرحًا قلقًا على حوامله يستند إلى السنين الثمانين من عمر آخر ديناصور طائر. ارتكن لجذع نخلة لينظر إلى دعسوقة تحتفي بالأحمر مثلك كزهرة رمان قررت ألا تستحيل ثمرة هذه السنة ما دام العشاق يكتفون بالزهر منظرًا ومثلاً. واستمر المعنى يبحث لنفسه عن سند كجسد يرتقي بالحيرة إلى مصاف الحكمة ويرتوي من الغسق والفجر وشمس الصباح. ويكتفي برذاذ المطر كي لا يحبط النملة. ويقضي ما تبقى من رحلته المعجمية باحثًا عن ربوة تليق بعشق دعسوقة منقطة بالهوى تهوى الكاماسوترا الهندية، تلف ورقة التوت على جيدها المدعم بحكايا شهرزاد.. وحط أخيرًا على اسمك بعدما قرر أنك حاملة لمعنى الحياة في تفاصيلها إلى درجة البحث في أحاسيس نملة متمردة.

أنت المعنى وأنت الوطن.

-١٨-

ماريا حبيبتي:

ضعي قلبك على قلبي، ونبضك قرب نبضي، ونفسك حذاء نفسي، لنصنع موسيقى توحدنا، تحملنا، تحضننا، ترحلنا إلى حيث لا ظل للقصائد الصدئة ولا النوتات الشاردة من سمفونيات الأندلس الهاربة من جحيم التفرقة وركس الهزيمة.. دعينا نتبرم من سطور أدونيس حين يترفع، ودرويش حين يتمنع، ونزار حين يتلوع أو يتمتع، والرافعي حين يتورع أو يتخشع، دعينا نبرم صداقة مع السيّاب حين يحن، فهو الوحيد الذي يمكن أن نكتري قرب نافذته بيتًا من الريح يحملنا هنا وهناك، ونكون جيرانه الأوفياء كلما استبد الألم، دعينا نزوج رؤيتك بحلمي لنلد ملاكًا هناك قرب سنديانة وارفة الحب.. سوف لن نبحث بعيدًا عن مأوى، فنظرة جدتي وهي تعد حساء الشعير قرب الكانون الدافئ بيديها المخضبتين بحناء طازجة. نحشر حبنا بين تجاعيد جبينها يتبرك بسنون الدوام.. دعينا نتمسك بتلابيب جلباب جدي العائد توًا من السوق الأسبوعية، يطلب قهوته اليقين المعطرة بالقرنفل المنسمة بشيح الجبل متكئًا كأمير على وسادة محشوة بالتاريخ مادًّا رجليه على حصير من الدوم. دعينا ننظر إلى عمتي فوق سطح البيت تنشر قفة من محصول التين تجففه ليعمّر كموسيقانا عمرًا من الحنين. فبين حبة وحبة آلاف من حكايا النوارس الهاربة من سخط القبائل العربية. دعينا نسجل عنوانًا على خط الحرث ونحط كلقلاق متجبر على محراث خالي الخشبي. دعينا ندفن حبنا في جبل يحميه زلزلة اللغة ومكر الملل واحتراق الغيم على ضفاف أبي رقراق، دعينا نطمئن كبقرة تجتر في سكون برسيم الهدوء، كأنها

Obeikandi.com

حكيمة إفريقية عمرت ربع تاريخ أو يزيد. دعي قلبك على قلبي.. وضعي خذك على صدري وأنصتي لخطى الطبيعة ترقص داخلي. واطمئني.

ماريا حبيبتي:

تحاملت عليّ رنات الملل وترامت عليّ أيقونات التعب، فحملت بعضي إلى «تفريت» أخوالي، أحمل عصا من القصب أهش بها على أفكار تسلسلت مذ قرر امرؤ القيس أن القول شر لا بد منه. دون قلم ودون مذكرة في تحدٍ صارخ لشهوة الكتابة. أجلس إلى جُملي أبعثرها. أنظر في موسم الهجران أعشاشًا ترحل تاركة بيضًا معلقًا بين الفراغ والفراغ، والعصفورة الأم تولول من هول ما جرى. ذاب الرمل، سكت الصدف، ما عادت للبحر ملاحمه، ما عاد للدير رهب والشيخ تكممه عمائمه البيضاء. أسرق بعض الطمي من مجرى الفن التاسع وأرسم بإصبعي شكل قلب مسهم من أحلام مراهقتي الأولى على شجرة الجوز الوحيدة المترفقة بحالي. خططت إذن في استسلام لشهوة أبدية وكتبت دون سابق انتظار: أحبك.

إلى اللقاء في رسالة أخرى.

obeikandi.com

كالعـادة لـم أرسـل الرسـالة، وعـوض الضغـط عـلى زر الإرسـال ضغطـت عـلى زر الاحتفـاظ وتركتهـا في علبـتي الإلكترونيـة إلى أجـل غـير مسـمى، قـرب عـدد كبـير مـن الرسـائل الأخـرى والمقـالات وقصاصـات الجرائـد الـتي تناولـت موضـوع التجهـيز لبنـاء السـد الملعـون.

لا يمكـن أن أرسـلها لهـا، فأنـا لا أريـد أن تحـزن وهـي في غربـة، لأني أحبهـا.

تركـت الحاسـوب بعـد ذلـك لصديقـي الـذي ينـام قربـه حـتى الصبـاح، يقـول إنـه يسـتمتع ببعـض الصـور الـتي ترسـلها بعـض المواقـع إلى علبتـه الإلكترونيـة، لا أدري كيـف يسـتمتع، ولـم أسـأله لأني أحـترم خصوصيـات النـاس، فلـكل الحـق في التمتـع بالطريقـة الـتي يراهـا ممتعـة.

اللحظـات القليلـة قبـل النـوم تضعـك في مواجهـة كـبرى مـع جسـدك، إذ لا تـدري كيـف تتـصرف، ليـس مـع الذكريـات ومخـزون المـاضي فقـط، بـل مـع بعـض شـعيرات الجسـد الـتي تدغدغـك في غفلـة عـن نفسـك، وتولـد فيـك إحساسًـا ورغبـة بمعانقـة أقـرب شيء إليـك ولـو كان مجـرد وسـادة خاليـة، وإن كان إلحـاح الجسـد حـادًا، تخـرج مرتديًـا معطفـك وقبعتـك وتنطلـق في عالـم الليـل.

تسـير بمحـاذاة رصيـف خـالٍ بسـبب المطـر والظـلام، تنظـر إلى أصحـاب مهـن الليـل ومحالهـم المفتوحـة، المخابـز، المقاهـي، المطابـع.. قـد تصـادف كناسًـا يتكاسـل في جـر العربـة والمكنسـة، بعض الـكلاب الضالـة الـتي لا تنبـح، خوفًـا عـلى نفسـها، في الليـل يستسـلم العالـم للسـكون، الـلا وعـي فقـط يـصرخ متخـذًا فـم سـكران يسـب ويلعـن ويشـتم.

تتحـاشى كل هـذه الصـور الباهتـة، وتتجـه إلى هدفـك، امـرأة ليـل.. تعـود مـن الشـارع الـذي لا ينـام سـالكًا طريقًـا خلفيًـا أو زقاقًـا جانبيًـا مظلمًـا، تعـود إلى غرفتـك خـالي الذهـن، غبيًـا، وترتمـي عـلى سريـرك البـارد دون أن تحـس بـشيء.

الجسد سكت، الرغبة ماتت، والشعيرات نامت.

- تصبح على فراغ.
- وأنت أيضًا.

obeikandl.com

-٢٠-

تستيقظ على فراغ، تعد قهوة، بسكر أو بدونه لا يهم، تحتسيها على عجل، ترتدي ثيابك المعتادة وترحل.. لا يمكن أن تفعل أشياء أخرى، هذه عادتك، بودك لو تقرأ جريدة اليوم قبل الخروج كما في بعض الأفلام، لكن من يحضر لك الجريدة؟ تكتفي بنظرة سريعة على صفحات جريدة الأمس، بحكم العادة أيضًا تشتري الجرائد، قد لا تقرأها، لا يهم أيضًا.

- ألن تدخن سيجارة الصباح؟

- لا أدخن كثيرًا؛ ليس من عاداتي.

- لن تضع مزيل العرق؟

- الجو بارد؛ لا.

- عجبًا! هذه اللقطات اليومية كيف تسقطها من مشهد يومك؟ حتى أنك لم تنظر في المرآة.

- وهل سأجد شخصًا آخر؟

- ربما هذه أمنيتك أن تجد شخصًا آخر عندما تنظر في المرآة، لماذا لم تنزل لشراء الجرائد من الكشك القريب؟

- كل شيء قريب.

- لا بد أنك شخص آخر، انظر في المرآة أرجوك.

- ما رأيك أني لن أمسح الحذاء ولن ألمعه، وسأترك بقايا الخبز على أسناني.

- على الأقل أكلت خبزًا هذا الصباح، إنك شخص آخر، أنا متأكدة.

- لا تقاطعيني، ولن أذهب إلى العمل حتى.

- ماذا؟! هذا مستحيل! يمكن أن تكون شخصًا آخر، لكن ضروري

Obeikandl.com

أن تعمـل.

- أكُلُّ ما نفعله ضروري؟!

- أعتقد ذلك.

- لا تعتقدي؛ لن يحدث شيء.

- أخبرني، ألن تسلم على صاحب الدكان في الأسفل؟

- هل هذا ضروري؟

- تفعله كل يوم.

- اليـوم لا، لـن أسـلم عليـه، سـينفجر غيظًـا ويتسـاءل عـن سـبب ذلـك ويسـأل الببغـاوات أمثالـه، سـيجد عـلى الأقـل حدثًـا يلوكـه حديثًا هـذا الصبـاح.

- والصبية الصغار ألن تقف لتلاعبهم؟

- لن يكون هناك صبية؟

- لماذا؟

- اليوم عطلة.

- اليوم عطلة، عطلة، عطلة.

- لمـاذا تكررينهـا عـلى مسـامعي؟ لا عمـل اليـوم، سـأعود إلى النـوم إذن.

- تسـتعد للخـروج إلى العمـل في يـوم عطلـة! هـذا مـا أزعـج ترتيبـات الصبـاح الروتينيـة.

- أزعجت حتى صديقي.

- صديقك نائم.

- وأنتِ، لماذا لم تنبهيني؟

- لا يمكن، فأنا نفسك، أنسى ما تنساه.

- نبهيني على الأقل يا نفسي.

- إذا نبهتك سيعذبني الضمير.

- لا تهتمي له.

- هل ستنزل لشراء الجريدة الأسبوعية؟
- سأفعل.
- لا تنسَ تلميع الحذاء وغسل أسنانك.
- نعم، لا، نعم نعم.
- لا يمكن أن تتخلص من اليوميات أبدًا!
- فظيع، كم تتملكنا الأشياء!
- استسلم لها.
- لا أدري.
- «لا تدري» أيضًا من المسلمات والكل يقول «لا يدري» وينجو.
- أدري إذن.
- لن تنجو.
- اسكتي! بدأت أحدثك بصوت مرتفع، قد لا أنجو فعلاً، اغربي عن وجهي.

اللحظات الأولى بعد النوم أيضًا متطلبة، خصوصًا إذا استسلمت للوسادة، تتمطط أوتارك وعضلاتك، تستيقظ عكشًا منفوش الشعر، تدخل يدك في سروالك القصير، تحك، تعدل وضع أعضائك، احترامًا لصديقك، يثيرك دفء لذيذ، يرفض الجسد الانحناء، ترفعه إلى الأعلى وتضغط عليه بحزامك، إبقاءً للاحترام أيضًا، واحتياطًا كذلك، فصديقك وعلاقته الغريبة مع الصور على الإنترنيت لا تسمح بتجاوز حدود اللياقة.

وإن كنت ساخطًا على صديقك إلى درجة الحقد، فقد تعمل غريزة الانتقام، تنتف يدك شعرة من جسدك لتضعها مع الجبن في قطعة خبزه، وتتلذذ بعد ذلك بمشاهدته يلتهم فضلاتك.

- لكنك لم تحقد عليه أبدًا.
- ألم تغربي عن وجهي؟ حتى لو حقدت عليه لن أفعل ذلك.
- آسفة، يجب أن أتدخل فأنا نفسك.

obeikandl.com

- أكرهك يا نفسي.
- اكرهني، لكن لا تطعمني فروة بطنك.
- أوه! سأنتقم منك الليلة، سأدخن بشراهة وأسكر أيضًا.
- ستسكر؟ افعل أرجوك، أحب ذلك، على الأقل سأتحدث كما أريد.
- تسايرينني في أهواء رخيصة.
- طبعًا فأنا نفسك.

obeikandl.com

-٢١-

نزلت إذن لشراء الجريدة، وصديقي لم يستيقظ بعد، قرأت كوارث الصفحة الأولى، تأثرت كثيرًا، أخبار الجرائم، أخبار فلسطين، الكثير من الشهداء، جامعة الدول المتفرقة تندد، الدول الديموقراطية تشجب، وقبلت صورة إحدى ملكات جمال العالم على الصفحة الأخيرة.

- لا أدري لماذا يضعون صور الحسناوات على الصفحات الأخيرة؟

- ليقبلها أمثالك.

- ستزداد المبيعات بسبب هذه الصورة؟

- لكن من يشتريها لا يرى الصورة في البداية، اللهم بعض المشتركين المكبوتين.

- صحيح.

- ألن تخرج؟

- بلى، سأخرج لأتمشى، أشتري بعض الأشياء وأتناول الغداء في المطعم وأعود.

- ستتناول طبقًا كبيرًا ومتنوعًا من السمك.

- صحيح، من أخبرك بهذا؟

- أنت.

- نسيت أني فكرت في هذا البارحة.

- ارتدِ بذلتك الرياضية المريحة ومعطفك، فالجو بارد.

أرتدي بذلتي الرياضية المريحة ومعطفي فالجو بارد، كما أني أريد التخلص من اللباس اليومي، وعندما أعود أتصل بمن ترافقني هذا المساء، فالمساءات كثيرًا ما يكون لها طعم الجرح القديم،

Obeikandl.com

خصوصًا حين تغيب الشمس بين أشجار زيتون لها أكثر من تاريخ، تلك الحمرة التي تسبب تعاسة لا مرئية تنتاب الروح، وتنبش في الأعماق دون سابق إنذار، لذلك بعد العصر مباشرة يحضر المرء لاستقبال المساء البرتقالي، ويبرمج لقاءات وصدف تقيه حر الوحدة وتعينه على الارتماء في أحضان ليل كحيل، تراجعت عن الفكرة دون سبب.

- اتصل بها.
- لكنها مسافرة.
- غيرها.
- هذه خيانة.
- وما فعلته البارحة أليس خيانة؟ أم أنها ضرورة جسد.
- ليست خيانة، فأنا ما زلت متعلقًا بها.
- متعلق بها، معلَّق إلى غيرها، هذا مضحك.
- لا تسخري مني، أحبها فعلاً، لكنها غائبة.
- وهي أيضًا ستخونك وهي بعيدة.
- لن تخونني.
- لا أدري تفاهة الجسد، كيف يمكن أن تحب امرأة وتمارس الجنس مع أخرى، كأنها حركات بسيطة، حتمية وضرورية أحيانًا، فارغة من كل معنى.
- أنتِ اهتمي بشؤونك الخاصة ودعي الجسد وشأنه.
- تقمعني وتغرقه في الجنس كي لا يزعجك؟
- الجنس تعويض عن كل شيء.
- والكتابة تعويض عن الجنس، بمعنى كل شيء.
- لا، هذا خطأ، الكتابة تعويض عن كل شيء إلا الجنس.
- ماتت الأحاسيس داخلك.
- أهل مكة أدرى بشعابها، أخبريني أنتِ!

- الصمت حكمة.

الجسد متطلب جدًا، يريد الغذاء والدواء، ويريد أجسادًا أخرى، الحياة قاسية جدًا، فأنت تتعب وتعمل، لا تدري لصالح من، تظل تلبي طلبات جسدك دون جدوى، لا يشبع، يستمر في التسول إلى أن تلين نواياك فتلبي رغباته كيفما اتفق. الرغبة هبوة يرميها الجسد على النفس فيعمي بها المنطق، يختار يوم السبت على الخصوص، يهيج، تغرقه بالبيرة والسجائر والنساء، فيخمد حتى حين، تقضي يوم الأحد في تنظيف غرفتك، تجمع قنينات البيرة الفارغة، أعقاب السجائر، وملابسك الداخلية، المنتشرة في كل مكان طيلة الأسبوع، تحت السرير، فوقه، على الأرضية، فوق الزربية، على الكنبة، تختلط بالكتب والأوراق والدفاتر.

تحمل الملابس المتسخة إلى الغسالة، الأقمصة والسراويل على الخصوص، قد يكسرون بعض الأزرار، لا بأس، لن تحتجّ على ذلك، لا نملك ثقافة الاحتجاج، أما ملابسك الداخلية فتضعها في الطست تحت الصنبور وتفركها بعد أن تضع عليها مسحوق الغسيل تعلقها لتجف في أي مكان، على الأرجح على النافذة، في مجرى الهواء. ستتكفل تيارات الهواء بتنشيفها.

- لماذا تكتب هذا؟

- للتاريخ.

-ومن يهتم لملابسك الداخلية المتسخة والمقززة، عرق ومذي ووذي ومني.

- أنتِ دائمًا غبية، قد يأتي قوم آخرون للعيش على هذه الأرض وسيهتمون بالبحث عن طريقتنا في العيش والحياة.

- سيهتمون مثلاً بالمكان الذي تعلق في سروالك؟

- ولم لا؟ فأنا الآن بي فضول لمعرفة كيف يتغوط الفرعون المصري، وأين بالضبط، وبماذا يمسح مؤخرته، فلم يكن هناك

ورق صحـي، أم أنـه يسـتعمل ورق الـبردي، وكليوباتـرا كيـف تحيـض، ودم حيضهـا مـاذا تضـع لـه.

obeikandl.com

-٢٢-

يستيقظ صديقي فجأة، يزعج حواري مع نفسي، منتفخ العينين من شدة السهر، نظر إليّ بازدراء كأنه يكرهني، لم يقل صباح الخير، دلف إلى الحمام، عاد منه فقال:

- صباح الخير.

- أهلاً.

عجيب! كيف ينعش الماء الجسد الكسلان؟ فالكسل يوجد فعلاً تحت كل شعرة أم أن كل شيء وهم؟ صديقي يعيش وهمًا، تكفيه ساعات أمام الحاسوب أو شاشة التلفاز ليجد معنى، هو يذكرني دائمًا بديوجين اليوناني أمام الملأ. صديقي لا يفعل إلا أمام نفسه. صدع كبير بيني وبينه كأننا من أجيال متباعدة رغم أنه لا يكبرني إلا بسنتين.

- لست أفضل منه.

- طبعًا، فالفضيلة دفنت مع الأنبياء.

- قادتك الرغبة والشهوة إلى الخروج، وهو قادته إلى الحاسوب.

- من منا استمتع أكثر؟ هذا هو السؤال.

- كلاكما أستمتع أكثر كل حسب منطقه، السؤال هو: من أنتج أكثر؟

- من أنتج أكثر! من أنتج أكثر؟

- لا أحد، حيواناتكم لم تنمُ ولم تكبر، لقد ضاعت فقط.

- لكنه مريض بالوهم.

- وأنت أيضًا مريض بالوهم.

- الوهم هو السبيل الوحيد للعيش وإدراك وجودنا، وإلا فنحن

غـير موجوديـن.

- والفكر؟

- وهم.

- وهذه الأشياء، الاقتصاد، السياسة، السلطة، الموت، الحياة.

- أوهـام، أوهـام، صدقيـني كل هـذه الأشياء وهـم، لـو قدمـت لـك شـايًا في كأس مـن فضـة، وقدمـت نفـس الشـاي في كأس مـن اللدائـن، فسـتجدين الأول ألـذ مـن الثـاني وهـذه ليسـت حقيقـة، ليسـت حـتى واقعًـا.

- حواسنا تخدعنا.

- هـذه حكمـة قديمـة، نحـن مخدوعـون مـن رؤوسـنا حـتى أخمـص أقدامنـا، تقـدم لنـا النمـاذج جاهـزة ونحـاول بلوغهـا، نتعـب نضيـع وقتنـا، وعندمـا نصـل إلى النمـوذج نجـد أنـه ظـل، خيـال، صـورة قديمـة، صبغتـه مخيلتنـا بالأوهـام المترسـبة عندنـا.

- لا أحب هذه الأفكار.

- لأنهـا تؤلمـك، فأنـتِ الآن تعتقديـن أن سـيارة فخمـة يمكـن أن تسـعدك، لكـن عندمـا تحصلـين عليهـا، سـتبحثين عـن أحسـن أنـواع السـيارات، وسـتتوقين إلى طائـرة، يخـت.. وتتابـع الأوهـام هكـذا إلى نهايـة لا تـسر.

- وصديقك هل هو وهم أيضًا؟

- ربمـا هـو وهـم خلقتـه لأنتقـد تصرفاتـه الغريبـة، حـتى أني سأسـميه ديوجـين مـن الآن فصاعـدًا، وبذلـك أكـون قـد تجـاوزت حقيقـة كونـه أنيـس المؤنـس، وأصبـح ديوجـين الوهـم.

- ديوجين بدل أنيس؟!

- هـو أيضًـا يوهـم جسـده ويمتعـه بالأوهـام والصـور، أصبحـت حيـاة النـاس كلهـا صـورًا عـن الأشـياء وليسـت أشـياء.

- هذه حكمة قديمة أيضًا.

- لكنها صحيحة، فأنا مثلاً أنتظر عالمًا حقيقيًا أعيش فيه، لحد الآن لست مقتنعًا بما يحدث، فما يحدث غريب، الناس يموتون بدون سبب، الحروب كثيرة، الأموال كثيرة ولا فائدة منها، العدالة لم تتحقق، بعض الكتب تقول لنا أن نتزوج ونكوّن أسرة ونعاشر زوجاتنا فقط، ولكن ما هو موجود أننا نتزوج ونعاشر غير زوجاتنا، وربما الحيوانات والصور والأفلام، فنحن لسنا صادقين، نحن واهمون.

الناس مُسرِعون، مندهشون، منبهرون بكل شيء، الناس فارغون، مغبونون، ويعجبهم كل شيء، والعجب من عجبهم أكبر، الناس يتفرجون، يشترون، يستهلكون كل شيء، الناس يتهافتون، يتنافسون، تافهون، الناس إطارات فارغة، إنهم ليسوا حتى إطارات، هائمون، يتناسلون ويتكاثرون، وبين هذا وذاك يثرثرون، يقولون كل شيء ولا شيء.

إنها المظاهر الزائفة، وحتى عكسها زائف، الإنسان فقد جوهره، لم يعد إنسانًا، أصبح مجرد رقم في شركة الاتصالات، التأمينات، زبون في متجر، ربما الزبون الأوفى، لكن سيكون رقم واحد كما قد يكون رقم المليون.. من قال إن إنسان العصر الحجري ليس سعيدًا، ستقولون إنه لم يكن يعرف الكثير من الأمور، إنه يعرف ما يكفي ليبقى على قيد الحياة، والإنسان الآن يعرف ما يكفي ليبقى قيد الموت. الإنسان مغرق في التفاهة، كلما عرف شيئًا يكتشف أنه لا يعرف أشياء، كلما ارتدى ثوبًا -مهما كان ثمنه- سيخعله يومًا وستبقى قيمته في حدود ثوبه، مهما فتل عضلاته ستترهل يومًا، وستبقى قيمته في حدود عضلاته المترهلة، مهما كسب من مال ستبقى قيمته في حدود ثروته.. فلم التشبث بالأثواب الباهظة الثمن، والأشكال المحددة؟ مهما عاش من حياة ستبقى حياته في حدود أيامه، هناك إذن حدود.

رجل يعد الملايين والآخر يعد الدريهمات، بنفس الطريقة، رجل يرتدي الحرير والآخر يرتدي الخيش، يستران نفس العورة، رجل يركب سيارة والآخر دراجة، والعجلات تدور بنفس المبدأ.. في كل شيء يشبعان نفس اللذة.

- هل تناولت فطورك؟

- نعم (ديوجين).

- أترين كيف أنافقه؟ فأنا لا أعيش معه الحقيقة أقول: نعم بصوت مسموع وديوجين في صمت.

- لا يهم، أفضل ألا تجرحه فهو لطيف، انتبه إنه يحدثك.

- ما هو برنامجك اليوم؟ ستخرج مع ماريا؟

- لا فهي غير حاضرة، إنها في طنجة، ما هي الأفلام التي شاهدتها البارحة (ديوجين)؟

- يا لك من خبيث! تسأله عن الأفلام، لن يجيبك بصراحة، كدت تقول ديوجين، انتبه.

- لم أشاهد أي أفلام، أنهيت أوراق المشروع وهو الآن في صيغته النهائية، اطلع عليه فربما تكون لديك ملاحظات.

- لا أنا لا خبرة لي بالمشاريع، لست سوى...

- لقد قمت بعمل أسبوع كامل ليلة البارحة، انظر هذه واجهة المبنى و...

- أترين؟ إما أنه يكذب وإما أني واهم، هو لا يكذب فعمله واضح ومؤرخ، أعني أنيس لم يشاهد فيلمًا أو مسرحية، أنا فقط صغت هذا العالم في ذهني، فسواء كان يكذب وكنت على حق أو أني أتخيل، فالكذب والخيال ضروب من الوهم، إنه يتحدث، دعيني أستمع.

- ولا تنسَ بعيدًا عن أعين السلطات، سأعرض في هذا المركز السينمائي أفلامًا للشباب، تعرف ماذا أقصد، أفلام من النوع

الـذي... أنـت تعـرف، وسـتكون المداخيـل مهمـة.

- أوهـام، أوهـام، أوهـام يـا نفـسي أكاد أنشـطر نصفـين، أيـن الحقيقـة؟

- لـم أنـت سـاكت، لا تتفـق معـي، عندمـا تهطـل عـليّ الأمـوال كالأمطـار سـنتفق جيـدًا. سـتنكمش مبـادؤك وتضمحـل ينابيـع الـشرف الـتي ترويـك ولـن يبقـى لـك إلا أثـارة مـن ذكريـات بعيـدة لا تسـتطيع مسـكها لتطعـم منهـا أهلـك وولـدك.

oheikandl.com

obeikandl.com

-٢٣-

اسـكت ديوجـين، لا تذكـر الأمطـار، فأنـت لا تـدري معـنى هطـول الأمطـار، وتلـك السـمفونية الـتي تعزفهـا قطـرات المطـر عـلى سـقف الخيمـة البلاسـتيكية، فأنـت حـين تعيـش انكسـارًا عبثيًـا ترتبـط لديـك الأشياء بمعـانٍ مـن الـذل والخـوف، فتصبـح قطـرة المطـر حـتى بعـد خمسـين سـنة رصاصـة تنغـرز في عمـق الألـم، إن كلام ديوجـين يـضرب في العمـق ليـس فقـط لأنـه شريـكي في السـكن بـل لأن الفـترة الـتي جمعتنـا صنعـت منـا ذاكـرة واحـدة مـن قـوة التكـرار والحـكي، كلكـم تافهـون، وتلـك المـرأة تقـول إن طيفهـا سيحرسـني، وإذا كانـت الأطيـاف تحـرس، لمـاذا لـم تمنـع الأعـداء مـن مهاجمـة قريـتي؟ وتالويـن ليسـت جميلـة، تألقـت فقـط لاسـتقبالك ذلـك اليـوم، يحـدث أن تكـون الأماكـن عنصريـة الطبـع.

ذات زمـن سـارت بنـا الأيـام إلى هنـاك، حيـث أخـوالي، للإقامـة عندهـم إلى حـين بنـاء منـزل جديـد في دوار المهجريـن، الـدوار الـذي أصبـح فجـأة عنوانًـا لروايـة مـن الروايـات الحزينـة مـن نـوع «رجـال تحـت الشـمس» لغسـان كنفـاني، «عـودة الطائـر إلى البحـر» لحليـم بـركات و«كوابيـس بـيروت» لغـادة السـمان، و«المبعـدون» لا أدري لمـن، لـم تكـن إقامتنـا عنـد الأخـوال مريحـة، الواجـب يفـرض عليهـم اسـتقبالنا، الواجـب فقـط. هـذا الواجـب أيضًـا كان وهمًـا، سرعـان مـا عدنـا إلى الـدوار الجديـد، غرفـة واحـدة مغطـاة بالخشـب والـدوم أحفـظ لكرامتنـا مـن المكـوث عنـد الآخريـن مهمـا كانـوا مقربـين، ومهمـا سـعوا لإرضائـك أو بالغـوا في الترحيـب بـك.

الإلحـاح في الترحيـب يشـعرك بوضعـك الاسـتثنائي بينهـم، وبلـزوم المغـادرة في أقـرب فرصـة.

الأرض الجديدة أيضًا ترفضنا، فقد كانت تنبت العقارب والثعابين أكثر مما تنبت الزرع، تربتها لا تصلح للزراعة ولا للبناء، واضطر الجميع للبناء بالحجر والأسمنت، وهذه فضيحة أخرى.. من يحمل عنا بعض أوزار الوطن دعونا نكبر في سلام ونغني الأناشيد الوطنية كجميع أطفال العالم، تكالبت علينا الأقوام والأحجار.

في البداية سكنا مع بعض الجيران، كل الجيران في شبه بيت واحد، به غرف منفصلة من البلاستيك والقصدير والقصب، نحن الأطفال كنا ملتصقين، عندما يبول أحدنا تلتصق التهمة بالآخرين. في غرفة واحدة، تراقبنا أمي لأنها الأرملة الوحيدة، هنا بدأت خبرتنا في الاحتكاك بالآخرين. فبعضهم بلغ الثانية عشر من العمر، وهي لم تكن طفولة في الوسط الجبلي، بل أكبر من ذلك بقليل، المهم أن السردين في علب التصبير التخليل أفضل حالاً منا.

obeikandl.com

-٢٤-

والحدث الذي احمرت له الأوجه وتعالت بوخزه الضحكات وانكمشت الأعين بالغمزات وأفيضت الهمسات والنكت، هو حين رفضت جارتنا رقية مناداة زوجها للفراش، كانت المسكينة منهارة، منهكة بالعمل طوال النهار في جلب الحجارة والمياه للبناء، تحمل ضعف وزنها ثلاث مرات فصبت جام غضبها على زوجها بصوت مسموع.

- ابتعد عني، تريدني حمالة أثقال بالنهار وبالليل.

وفي دواخلي حزنت للاثنين، رغم أني اعتقدت –ساذجًا– أن الإنسان المقهور لا يفكر في أمور الجنس، إلا أني انتبهت إلى أن الجنون كان أقرب إلينا من حبل الوريد، ولا سبيل إلى دفعه إلا بالحب، بين عواصف القهر ولجج الظلم وآلام الجوع وقساوة البرد، تحتاج الرجولة محطة تجريب ليس إلا، على الأقل للتأكد من دافع للحياة، من مؤشر على الاستمرار، وهذا الرجل كأي ذكر، حين يحل الظلام يحتاج إلى ثقب يفرغ فيه ألمه، لا عشقه، فالنساء لم تكن جميلات، عضلاتهن تضاهي عضلات الرجال، وبنيتهن مماثلة لهم، ولا يخفى على بني إنسان من لحم وأعضاء أنه حين تصبح الأنوثة في منتصف الطريق إلى الرجولة، لا نتحدث حينها عن الجمال والحب، وإنما عن قتل الرغبة ودفنها علّها تخبو مدة من الزمن، قتلها بحركات سريعة وعنيفة، مؤلمة ولذيذة أحيانًا. أما الرجولة حينها فتعلو أكثر فأكثر وتسمو سموًا يصعب معه القول إن الذي حافظ على حياة أولاده ليس سوى رجل.

الرجال في المخيم عضلاتهم صغيرة وقوية بعروق بارزة جدًا وكثيرة. عظام وجوههم ناتئة وأعينهم غارقة في حفرة.

في مخيمنـا هــذا تحــول الجميـع إلى حيوانــات ضروس في محاولــة عيـش، مـؤشر الإنسـانية انخفـض رغـم أن الجميـع تلاحـم وتعـاون، إلا أن هــذا التعــاون ســببه الحاجــة إلى الآخــر، واســتحالة الخــلاص الشــخصي.

المـرأة الـتي تمـارس عمـل البغـال نهـارًا كيـف لهـا أن تتحـول حوريـة جبـل ليـلاً.

لا أعاتبهـا، لكـن الرجـل الملحـاح في الليلـة المواليـة جعلهـا -غـدرًا- تستسـلم لـه، تحـت ضغـط الرجولـة، لا يمكنهـا أن تنسـحب مـن لعبـة الجسـد، القـدر عاقبهمـا فيمـا بعـد بحمـل غـير متوقـع، وهـذا سـبب تخوفهـا منـذ البدايـة، فانشـغالها بحسـاب عـدد حبـات القمـح أنسـاها حسـاب دورتهـا الشـهرية.

obeikandl.com

-٢٥-

لا يمكـن الاحتفـاء بالحيـاة في مـكان مُعـدّ للمـوت، أنجبـت الطفلـة أو تبرزتهـا، قذفتهـا بعنـف، سـيان، أرضعتهـا، نظـرت إليهـا بحـب شـديد فهـي أم، عـصرت ثديهـا بقـوة، لكـن لا شيء، ثديـان كالفلفـل المشـوي كانتـا.. نظـرت إليهـا مـرة أخـرى بحنـان زائـد تعـوض بـه خيبـة أملهـا في حليـب الرضاعـة، انكسـار أمّ هـو ألا تجـد حليبًـا يسـمن وليدهـا، أرضعتهـا حليـب العـنزة الـذي أحضرتـه أمـي، رفضتـه الطفلـة. فتحـت عينهـا نظـرت إلى الجميـع في ذهـول واستسـلام، خافـت مـن الوجـوه المتجهمـة المترقبـة، وأسـلمت روحهـا، جـاءت غـدرًا وخطـأ ورحلـت كذلـك. فعلـت صوابًـا.

سـميتها «تـودا» آنـذاك بيـني وبـين نفـسي، وجعلتهـا أسـطورة ورمـزًا لـلا مبـالاة بالحيـاة، هـي لـم تبـكِ كثـيرًا، كانـت هادئـة ومستسـلمة، شـبه مبتسـمة، شـهيدة المخيـم، هـي سـتعود حتمًـا، إطلالتهـا القصيرة دليـل عـلى أنهـا سـتعود، صمتهـا، صبرهـا، نظرتهـا كجميـع الأسـاطير سـتعود، سـتظهر يومًـا مـا، في زمـن آخـر غـير زماننـا، في مـكان آخـر ليـس هنـا، «تـودا» اسـتخفت بأسـلوب وجودنـا فرحلـت قائلـة: كفـى، وداعًـا.

«أم حياة تمد الردى بالدموع؟».

لا أدري، لا أدري، حقيقـة لا أدري، كل شيء أكـبر مـن فهمـي، لا يسـع حـزني إلا شـعر شـاكر السـياب، فـ«تـودا» تظـل تـردد في داخـلي بذلـك الصـدى الكئيـب والاسـتهتار العـام بالوجـود:

«نزع ولا موت

نطق ولا صوت

طلق ولا ميلاد».

أي زمـن هـذا؟! إذا رغـب رجـل بزوجتـه تحـدث المأسـاة، تسـتيقظ

الأساطير القديمة تلفه تحبك ضده الأقدار، تخرج مسرحية.. كوميديا بداية تضحك أطفال المخيم وشبابه، ثم تراجيديا تنطبع في ذاكرته إلى الأبد، كل هذا من أجل قطرات تلح على الخروج في لحظة معينة، جعلها الزمن الغادر لحظة شؤم، لو فطن الأب المتعب إلى هذا السيناريو السخيف قبل الإخراج، وارتمى في أحضان أول نسمة نوم أو غفلة، وقتل الجسد العفيف في حضن آخر لضحك بلؤم على هذا الزمان.

obeikandl.com

-٢٦-

حـارس الغابـة كرهنـا مجانًـا، لا نـدري سـبب ذلـك، لباسـه شـبه العسـكري يخيفنـا، متعجـرف، اعتدنـا وجـوده في الغابة المحيطـة بنا، لا يحرسـها تمامًـا، فشـاحنات محملـة بخشـب العرعـار والأركان وحيوانـات الغابـة تمـر أمامـه ولا يمنعهـا، القانـون الـذي يحمـي أشـجار العرعـار لا يـسري عـلى كبـار التجـار الناهبـين للملـك الغابـوي، معامـل نجـارة ضخمـة تحـت تـراب أولـوز لا يعلـم أحـد بوجودهـا تصـدر ديكـورات وتـذكارات السـياح بمدينـة الصويـرة، وأثريـاء الولايـات المتحـدة الذيـن يسـتمتعون بصيـد الحيوانـات البريـة مـن حجـل وأرانـب وغـزلان، مـن أجـل دفـع الاكتئـاب الـذي يعانـون منـه بسـبب التخمـة الشـحمية، وعـذاب الضمـير. يمنـع فقـط جـدة تحمـل حزمـة الحطـب عـلى ظهرها، يخـرج مـن بـين الأشـجار كالجـن، يجعـل المـرأة العجـوز تتوسـل إليـه وتقبـل يديـه ليسـمح لهـا بالاحتفـاظ بحزمـة الحطـب، (الحطـب ليـس إلا مـن شـجر الأركان وأشـواك الحلفـاء)، وعـدم الـزج بهـا في السـجن، تقـدم لـه ورقـة نقديـة مـن فئـة عشريـن درهمًـا، يرفضهـا بحجـة أن غرامـة الاعتـداء عـلى الملـك الغابـوي باهظـة الثمـن، تدفـع لـه عشريـن درهمًـا أخـرى وهكـذا. الفقـر المدقـع يمنـع النـاس مـن شراء قنينـات الغـاز، وحـارس الغابـة يمنـع عنهـم الحطـب، هـذا يعـني أن الوطـن يريدنـا متوحشـين، نـأكل الطعـام الـنيء. تكالبـت علينـا الأقـوام.

قبـل مغادرتـه المنطقـة، أقبـل حـارس الغابـة عـلى دفـع التقاريـر لمصلحـة اسـتخلاص الغرامـات، فتوالـت الغرامـات كاللعنـات عـلى الأهـالي، واحـدًا تلـو الآخـر، لـم يسـلم حـتى مـن هربـت دجاجتـه وتجـاوزت الملـك الغابـوي، كانـت هـذه آخـر طعنـة مـن هـذا الرجـل القـاسي، الغريـب في قسـوته، فقـد كانـت ينتظـر منـه التعاطـف مـع

المهجريـن ومسـاعدتهم، لـولا مغادرتـه في أسرع وقـت لمـا اسـتطاعوا جمـع أشـلائه مـن فـوق نبـات الصبـار، فقـد توعـده الكثـيرون واتفقـوا عـلى قلتـه، رسـموا خطـة لذلـك. هـذه نتائـج التوحـش الـذي زرعـه بينهـم، خصوصًـا عندمـا حـاول الاختـلاء ببعـض الأطفـال في الغابـة. لقـد هممـت بكتابـة روايـة عاطفيـة ولـم أرد لمثـل هـذه الشـخصية المقـززة الدخـول إلى صفحاتهـا ولكـن القلـم يكتـب بصـدق لا يحيـد. كان شخصًا لا يوصـف بكلمـات اللغـة بـل بصرخـات مـن الشـارع وأقبـح كلام قـد تصـل إليـه عبقريـة المشرديـن في إنتـاج الشـتائم والسـباب. كان كلبًـا أجـرب، كان أحمـر الوجـه مـن أثـر البـيرة وأنـواع النبيـذ كالخنزيـر في حظـيرة المسـتعمرين، كمـا يصفـه النـاس الذيـن عاشـوا فـترة الاسـتعمار.

Obeikandl.com

-٢٧-

كياني يصر على لقائك، هل تحتاجينني أم أحتاجك؟ هاتفتك عدة مرات لكني لم أجرؤ على إزعاجك أو أطلب منك العودة، كانت بيننا تلك الرغبة العميقة في اللقاء، ولأننا لا نريده عاديًا بقي مؤجلاً مدة طويلة، ترى متى سيكون لقاؤنا القادم، من سيتحدث أكثر؟

بلد لست فيه لا حاجة لي بجنسيته.. أنا متسول حب.. غجري الهوى.. أنتِ انتمائي.

أكيد سنلتقي لكن قد لن نقول شيئًا، وسنظل ننظر إلى بعضنا بعض، فالبعد خطير يخلق بين العاشقين غربة كالهاوية، ويصنع من رواسب الشوق حاجزًا كلسيًا بينهما، لكن تكفي ذكرى واحدة لكسر زجاج الصمت، لا لسنا من هذا النوع، سنلتقي ونبدأ الثرثرة منذ اللحظة الأولى، وبعدها نعيد ترتيب الأشياء، فأنا وأنت لدينا تلك القدرة العجيبة على التحدث في أربعة مواضيع دفعة واحدة، دون أن ننسى التفاصيل، إنها مهمة جدًا يا حبيبتي.

تحتاج إلى هذا الحب، هذا النوع بالضبط.

الذي يجعلك تحدث الكواكب والمجرات، تخبرها بلوعته، الحب.

الذي يجعلك تشعل عيدان الثقاب واحدًا تلو الآخر في فصل الثلج لا لتدفئ نفسك كأمير الثلج، ولكن فقط لتستمتع بنور وهجه لحظة زمن قصيرة بعد أن أشعلك العشق نارًا متوهجة، الحب.

الذي لا يثقلك ككوابيس منتصف الليل، بل يداعب فؤادك كحلم يقضة ممزوج بالزعفران، الحب.

الذي يمنحك فرصة التعبير، الوجود، الامتداد، ويجعلك تتوقف في محطات معينة تعالج فيها سيارتك لتنطق من جديد في دروب

حياتـك، دون أن تقـف مطـولاً.
نحتاج إلى هذه الحوارات، إلى اختبار الذكريات.

obeikandl.com

-٢٨-

استيقظت في حالة مزرية، وجب أن أنظر في اليومية لأعرف اسم اليوم وموقعه من الشهر، احتجت خمسة عشر دقيقة للقيام عن السرير، أحسست وأنا قائم بشيء صلب لمس قدمي، إنها رواية دخلت فراشي الليلة، قرأت منها ثلاث صفحات، بداية قصة حب وغيرة بين صديقين وامرأة، أنا أعشق الحب الذي يصهر أكثر من جسدين حيث أضلاع المثلث المتحولة تطول وتقصر حسب درجة حرارة الحوار. بتلك الزوايا التي ستتكامل لتعطي رقمًا واحدا لا أكثر، حيث المرأة تسوس الحبيبين وتزن بالذرة مثقال العشق، تخطئ المرأة دائمًا -أو لنقل غالبًا- حين تدخل بين صديقين وتعتقد أنها ستفوز بهما معًا.

تذكرت قصتي، كل تلك الحوارات انتهت بعد أن رحلت، النهايات التعيسة للحب أو فترات الفتور الباردة تجعلك تستمتع بلذة أشياء أخرى خلقت كتعويض، فقبلها لم أكن أستمع إلى محمد الحياني وهو يغني «راحلة».

«ترى ترحلين، في لهفاتي ولحني الحزين».

الرحيل أبيض، المناديل والوداع وآخر قطعة سكر في الفنجان الأبيض غير القابل للتكهن، فقهوته بقيت مرة كالحنظل رغم التركيز المبالغ فيه على حلاوة الكلمات الأخيرة، برودة رخام المطارات تسللت للذوات، يمكن أن تضمن وفاء الذاكرة للحنين ولكن كيف تضمن وفاء الجسد للجسد؟ الوجوه الغريبة كل الوجوه غريبة. الوداع احتياط ضد الخيانة. الطائرة تنفث دخان الفراق في الساعات الأولى.

انسابت الألحان من الراديو كما ينساب شعرها، تحب أن تجمعه

إلى الأمام على كتفها الأيسر، تمسده بيديها الناعمتين، هل يمكن أن يحدث هذا فعلاً؟ لكم أحببتك ماريا! ما كان عليك أن ترحلي، حتى أتوه أكثر مما فعلت بين خصلات شعرك، أعترف متأخرًا بأني أحببت وجودك المبهر دون احتمال غيابك، كان يجب أن أفعل أشياء كثيرة بعينيك.

غبت إذن.

تركتني في مواجهة المدينة.. تارودانت.. ها أنا ذا يا مقبرة الأحلام، احضنيني بأسوارك البنية الدافئة، أدخليني برجًا من أبراجك، قصبة من قصباتك، فما أحوجني إلى حضن مدينة بدفئك وغموضك وقلقك، حضن مدينة في صورة أثنى يسع غيابها. أكتشف ضعفي حين أحتاج مدينة تحضنني بدل امرأة.

بدأت أتعاطى مخدرات لا تستهويني، فأنا عبد الكلمات، وأنت عبدة اللون والإضاءة والتاريخ والعمارة والأثاث، تحولين العشرات من القصبات والأبراج إلى فنادق، اختصاصية ديكور، تحولين كل ركن إلى فضاء شاسع، حولي ذاكرتي المثقلة بالهموم إلى ركن من أركان حبك، واقبلي قلبي قنديلاً مشتعلاً بوقود دمي، ما دام الأحمر الآجوري لون الجدران المفضل لديك، ها هي تارودانت ستلهمك، اجعليني غرفة أمازيغية، لكن استقري فيها ولا ترحلي.

في تارودانت فقط تحس بالوجود. السور دافئ ونديّ، زخات مطر حنونة وجولة من المحطة إلى البيت على الأقدام تعيد إليك روحك الفرحة. رائحة السور المبلل بماء المطر تدللك. السماء تبللك. وصديق كنت تنتظر رؤيته في المحطة وإذا به يعتذر من تحت غطائه الثقيل. صديقك الشاعر كان ليجعل جولتي أجمل لو حضر ليلقي على مسامعي قصيدة درويش.. الجميلات هن زخات المطر.

«لمن سأغني».

obeikandl.com

-٢٩-

بقيت طول اليوم في غرفتي، أستمع إلى الموسيقى، يونس ميكري، إزنزارن، ناس الغيوان، سيلين ديون، وموسيقى هندية ويابانية أطرب لها بعيدًا عن المعنى، رقصت أيضًا، أخطأ من قال إن الإنسان لا يحتاج إلى الرقص، رقصت كقائد قبيلة إفريقية في أعماق الأدغال، رقصت ببدائية؛ جعلني الحزن والملل كالقرد. دخنت، شربت، وكتبت كثيرًا، يا لها من طقوس تخلقها الوحدة والجدران الأربعة وباب مقفل بإحكام! فقد يرميني ديوجين بالحمق.

حبك إذن جعلني أرقص كحيوان استوائي في موسم التزاوج، كحشرات الربيع لا همّ لي سوى الأكل والرقص والنوم.

وكان لي في تلك الليلة حلم جميل.

أجلس قرب العين، أنتظر بشغف حضورها، ماء العين بارد، عذب، كأنه نابع من جنة، حصى صغيرة ملونة تتلألأ في القاع، بعض الأسماك الصغيرة التي لا أعرف نوعها ولكنها نهرية لم ترَ البحر قبلاً وكبرت في ماء عذب زلال، تسبح حين يخفت الضجيج حول العين، وتختبئ بسرعة بين الصخور عندما تستشعر وجود أحدهم.

أجلس في صمت أراقب الأسماك في تماوجاتها، حلازين الماء تلتصق بالصخور.. أنتظر.

نسيت الانتظار أمام هذه المشاهد الخلابة في جزء صغير لا يتعدى مترين مربعين، آلاف الأشياء تحدث، هدوء المكان واستكانة الأسماك جعلاني أنساها. أسبح كالأسماك في دنيا التأمل المريح، تأمل أشعرني بعبثية الانتظار، فلتحضري أو تغيبي، لم يعد يهمني، حتى أني لست من ذلك النوع الذي ينتظر بفارغ الصبر دون أن

Obeikandl.com

يستمتع بالحياة المتدفقة من هذا النبع المائي، كلما رأيته أخلع ملابسي كأني مقبل على مغامرة جنسية، داعبتني المياه من جديد، لاعبتني، أوقعتني، قدت قميصي من دبر ومن قبل، السباحة تحت ضوء القمر طقس لذيذ، أخيرًا منحني الوطن سويعة هدوء وجمال.

خرجت سمكة من قاع النبع وقدمت لي ورقة مكتوب عليها «اللحظة التي تعتقدها أقل أهمية هي التي ستحدد مسار حياتك، انتبه لهذه اللحظة الخطيرة لأنها تأتي وأنت غائب عن نفسك، لا تقبل التفاحة».

تذكرت قولة صديقي: «إذا قدم لك الوطن تفاحة فاحترس فقد يخرجك من الجنة».

انتهى الحلم.

يا له من وطن لا يحب إلا في جنح الأحلام!

نمت جيدًا ولساعات طويلة، أخذت مذكرتي وقرأت ما سطرته البارحة «الفكرة التي تعتقدها تافهة وبسيطة تسيطر عليك أحيانًا إلى أن تعدو لحجم الكون، والكون حين تفكر فيه ببساطة يصبح مجرد فكرة قابلة للتغيير بسهولة، احذر القلق فإنه فكرة مسيطرة، اقض عليه بحبة دواء واحدة، أثق كثيرًا بفكر الإنسان، لقد استطاع حصر أهوال القلق في حبة واحدة كالقمحة».

تناولت قرصًا منومًا إذن، لا أستغرب نومي الطويل، لكنه كان حلمًا جميلاً، أين التفاحة؟

- آلو، ماريا، كيف أنتِ؟
- بخير، صوتك غريب.
- إنه النوم.. لا تناولت قرصًا منومًا فقط.
- اعتقدت أنك تخلصت من هذه الحبوب.
- لم أستطع النوم، غنيت، رقصت، شربت، كتبت، ولم أستطع

النـوم. أيـن أنتِ؟

- أنا في الجنوب.
- ماذا تعنين، في الجنوب؟
- في تارودانت.
- سنلتقي إذن.
- طبعًا.

obeikandl.com

obeikandl.com

-٣٠-

عدتِ إذن.

اشتقت إليكِ أو I miss you، هذا ما سأقوله عندما ألتقي بك مباشرة، أي اشتقتك، فرحت بلقائك، هذه أيضًا جملة استقبال، لكن قد أقول غير ذلك وأفاجئك بجملة أكبر من معجمي الخاص وأقول: أحزنني غيابك، ولو فكرت قليلاً وتذكرت كرهك لمعاجم الحزن لقلت: غبت طويلاً، قد تفهمين أني نسيتك، لذلك قررت أن أسكت وأترك لك الكلمة الأولى.

ظهرت إذن.

تلبسين الكعب العالي، وفي مشيتك شيء من الارتباك أو زائد من الأناقة، تحملين رائحة البحر الأبيض المتوسط في عينيك، شيء من طنجة يسبقك، شعرك مرفوع إلى الأعلى، تسريحة جديدة، خسارة، أقصر من الأولى.

اقتربت إذن.

أحمر الشفاه لم يعد أحمر (ماكياج ما بعد حداثي) شيء من البني والنحاسي، وأيضًا على العينين، ارتعشت أهدابك، ماسكارا ثقيلة شديدة السواد (أو الزرقة)، أين عيناك؟ وأخيرًا بعد طول انتظار، ابتسامتك الأولى.

جلست إذن.

دون انحناءتك الأميرية، دون أن تنتظري وقوفي لجر الكرسي، رميت قبلة خاطفة على خدي الأيمن وجلست، قميصك الأزرق المخطط يمنع كل شيء، فلا مدى ولا امتداد، تحملين تحت إبطك الأيمن ملفات كثيرة، تغيرت، أينك أنتِ، عرفت غيري، نسيت حبي.

تكلمت إذن.

Obeikandl.com

«أنير طال فراقنا» فهمت أنك نسيتني، أنا الذي صمت حذرًا من زلة لسان، رميتني بآخر احتمال، وكما لألتقط عقيق الكبرياء المبعثر قلت مجيبًا «طال غيابك»، الكلمات القليلة الأولى بعد الفراق أخطر من أن تفهم أو تقال بعفوية.

كل هذا المكياج لتقولي انتهى كل شيء؟

قوليها مباشرة سيدتي الجميلة.

لا تخافي، ما عاد في القلب شيء قابل للانكسار، وضعت اللمسات الأخيرة، مرحى لك، أنا آنية فخار، ابحثي لي عن زاوية نصف مضاءة كي لا تقلقك نظراتي.

قوليها مباشرة سيدتي الجميلة.

أصبحت تتأبطين المشاريع وتدعين أمر الماكياج والتسريحات للصالونات، ليرتبوك ويرسموك كما أراد هو، لا وقت لديك تضيعينه على التفاصيل المؤنثة الأخرى.

- ماذا تشربين سيدتي؟ قال النادل.

- قهوة سوداء.

- وأنت سيدي؟

ماذا يشرب رجل أحلام أمام امرأة أعمال حطمت مشروعه العاطفي، وباعت أسهمه الحميمية؟

- كوب ماء من فضلك.

صديقي.. أرجو أن تحضر الآن لتقرأ الفناجين ورموز الألوان، لترى سواد القهوة وصفاء الماء، لو كنت مكاني لطلبت حليبًا في موقف كهذا، موقف يتطلب السير عكس اتجاه الحواس، لكنك تعرف أني أحب التزام الحياد عند النهايات، كنت فتى دون مشاعر الشفقة دون أحلام المراهقة، لم أصرخ لحظة التهجير، لم أبك موت الجد، لا انفعل كثيرًا، لا أطلب الكثير، أعمل فقط، أعمل وأدرس، أعمل وأقرأ كثيرًا، لم أزعج أحدًا طيلة حياتي، أتنازل دومًا عن

حقي مقابل السكينة والهدوء والصمت، ما أجمل الصمت! لا أحب غناء العصافير ولا هديل الحمام، أحب الصمت المحايد الذي يجعلك تنظر داخلك وتسمع كائنات عالم آخر، كبرت معي هذه الكائنات، لاعبتني منذ الصغر، وحدثتني في عالم موازٍ لهذا العالم، عالم الروايات.

سيدتي كوني صريحة، قولي كل شيء، استلهمي الصفاء من كوب الماء ليكن القدوة، وأبعدي عن عينيك سواد القهوة.

جلست إلى اليمين وبقيت أنا إلى اليسار، لا أحد مقابل الآخر وجدار مقهى «ندى» المطلي حديثًا يستغرب طريقتنا الجديدة في الجلوس، لا تستغرب يا جدار الخديعة، أنت أيضًا غيّرت ملامحك.

لا تخافي سيدتي الجميلة، ارتكبت صوابًا.

«أين عيناك؟

غارتا في قرار؟

وابتسامتك إلى احتضار».

فشلت، لا لأني فارقتك، بل لأني لم أضع في الحسبان احتمال فراقك، فالحب يقاس بما تبقى منه، وأنا أضعت لحظاتي معك ولم أختزن في قلبي ذكريات تسليني في حالة الفقدان.

غريب أني لا أتذكر جملك، أكانت عادية إلى درجة نسيانها؟ صحيح أني لا أحب في الأنثى لغتها بقدر ما أحب حركاتها، همسها، وتلك التفاصيل الأخرى التي تتقنها النساء ولو من قبيل إصلاح وضع حقيبة اليد.

كان عليك أن تتحدثي بلغة أجمل تصلح لرواية، حتى أستطيع في غيابك مغازلة كلماتك على ورقة بدلاً عنك.

لم تدمني أساليب الحكي مثلي؛ سأفشل حتمًا في إحاطتك بالعبارات.

كان عليك أن تتقني فن الكلام حتى أستطيع في غيابك أو تخليك

obeikandl.com

عـني أن أكتـب روايـة أهديهـا لذكـراك.

صحيـح أنـه بفرقعـة أناملـك الرقيقـة توحـين بألـف قصـة، لكـني لـم أفكـر بالقلـم في حضـورك، فلأسـتمتع إذن بخسـاراتي الأدبيـة، أكتـب احتمـالات شـعر لـم تقوليـه أو حـتى إمكانـات نـثر، أنـثره في ثنايـا قصـة قصـيرة جـدًا أفـترض لهـا عنوانًـا مـن قبيـل «نوسـتالجيا الحـب» كمـا قـال هرمـان هـس «ليـس لدينـا مـن يوجهنـا، قائدنـا الوحيـد هـو حنيننـا».

obeikandl.com

الحنين ذلك السفر عبر الأمكنة، من مقهى بكراسٍ غير خاضعة للجاذبية تمنحك لمسات بنفسجية وقبلات هوائية، مقهى بلون التراب يحمل عبق التاريخ وقلق الشعراء، إلى نفس المقهى بطلاء حديث، بكراسٍ حديدية ثقيلة، سوداء، تثبتك إلى واقع أكثر سوادًا، على زليج أبيض أملس تنزلق عليه الأحاسيس وترتمي خارج القلب. لا تستطيع أن تطير في مكان لا يصلح إلا للزحف. مكان بارد لحب بارد.

وطلباتنا أصبحت على رأس اللائحة، قهوة سوداء في فنجان أبيض، صرخة حادة تنبع من هذا التناقض القاتل، إنه الغباء، نص صيني مكتوب بحروف عربية، قد لا تقرأه أبدًا، قصد الاعتدال تطلب كوب ماء بدل عصير الليمون الحامض. كنت تتلذذ بخلط مذاقين، حموضة الليمون وحلاوة السكر، والآن تكتفي باللا مذاق، وهي أيضًا تنكّرت لعصير الفواكه الملون، كل شيء واضح الآن، الحب وحده كانت له ألوان.

الآن.. حتى النادل أصبح يرتدي بذلة سوداء على قميص أبيض، وربطة عنق، فراشة سوداء، كل شيء بالغ الأناقة من أجل نهاية متوقعة تحضرت لها ديكورات المقهى ودهانها، النادل الأنيق والفناجين الجديدة، إنها النهاية المنتظرة، كل شيء حزين وجميل. كالموت كانت نهاية حبنا، استقبلناها بالأبيض والأسود، العالم كله يرتدي الأبيض أو الأسود حدادًا. وأنا أشرب كوب الماء، بقيت عاريًا من الألوان، ذلك أني لا أحب أن أحزن على غرار الآخرين. فضلت كوب الماء لأفكر في طريقة أرحم، أسعد، أجمل، أنهي بها حبي لها.

لـم أسـتطع ذلـك، فأنـا إنسـان، عـلى غـرار الآخريـن، حاولـت ذلـك عندمـا عـدت إلى غرفـتي، خلعـت ملابـسي، كل ملابـسي، لـم أرغـب في ارتـداء أي لـون لكـن دون وعـي مـني، أخـذت قلمًـا أسـود وكتبـت عـلى ورقـة بيضـاء، الأبيـض هـو الحـل، إنـه لـون الطفولـة والياسـمين، وحليـب الأم وحليـب عنزاتنـا، ولـون أوراق التنـازلات وكفـن جـدي والصغـيرة تـودا، لقـد ربحـت يـا أبيـض المصـير، لكـن لا تخـدع نفسـك فالصفحـة مهمـا اتسـعت لا بـد لهـا مـن سـطور سـوداء، إني أكتـب عليـك أيهـا الأبيـض الحقـير بالأسـود، منـذ الحـرف الأول حـتى الحـرف الأخـير.

زهرة التوليب:

جـاء محتضنًـا باقـة زهـر أحمـر بـري، لأنـه يكـره ورود البيـوت البلاسـتيكية، تعبـيرًا عـن حبـه الطبيعـي لهـا، جلـس ينتظرهـا، طلـب قهـوة سـوداء بـدون سـكر، انتظـر، انتظـر مـرة أخـرى، كانـت أمامـه زهـرة توليـب بلاسـتيكية تزيـن طاولـة المقهـى، تحـدث إليهـا مطـولاً، أخبرهـا لواعجـه، مواجعـه، تأكـد أنهـا تسـمعه جيـدًا فقـد كانـت تنحـني إلى الأمـام فرحًـا، وحزنًـا تنحـني إلى الـوراء. نـسي انتظـاره، أخـذ زهـرة التوليـب الاصطناعيـة ووضـع مكانهـا الـورد الـبري، قـرر أن يحدثهـا كلمـا أحـس بالوجـع.

زهرة اللوتس:

«وأنـا كأنـا عـلى مرمـى نظـر. أعاتـب اسـتقالة الفـرح مـن الحيـاة، وأنظـر صـوب الوجـود بنكهـة الترقـب والصمـت، أضـم بعـضي إليّ في حالـة أشـبه بالوحـدة، وأنـام مـلء الأرق أداوي ذكريـاتي الجريحـة، أضـع الشـاش لصـورة انكسـار القلـب عـلى مرايـا الزمـن بُعيـد ظهـور الحقيقـة بقليـل، أضغـط عـلى البثـور المنتفخـة خديعـة، وأقـشر بقايـا حـب مهـزوم كي لا تتكاثـر فيـه طفيليـات التكـرار. أسـوار قلـبي منيعـة،

كشـجرة نبتـت مـن هـواء فـلا جـذور ولا أوراق تعانـق الفضـاء، زمـن بارد مـن الأوراق الصفـراء والخريـف، رؤى سرابيـة الأبعـاد تؤدلـج كالتاريـخ أعمـاقي وتفضـح انتظـاري مطـر الجسـد وهطـول حبـات السـفر الأنيق».

يا زهرة اللوتس أجيبي دعوة الحنين، أحبيه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني
أوراق الورد الحزينة

obeikandi.com

obeikandl.com

فليس الحنين ذكرى
بل هو ما يُنتقى من متحف الذاكرة
الحنين انتقائي كبستاني ماهر
وهو تكرار للذكرى وقد صُفيّت من الشوائب
وللحنين أعراض جانبية منها
إدمان الخيال النظر إلى الوراء
والحرج من رفع الكلفة مع الممكن
والإفراط في تحويل الحاضر إلى ماضٍ
حتى في الحب

الشاعر محمود درويش

obeikandl.com

obeikandl.com

-١-

في القرية..

لا شقائق نعمان ولا أقحوان، رحلات قهر وطنية تعتزم الاحتفال قسرًا بربيع مزيف مصنوع من الورود البلاستيكية الفلبينية، الصمت بالصمت، وشعب بدون حنجرة يصفق بمرارة مع توالي الخيبات. وطن ملتوٍ كشبابيك الرياض الرودانية القديمة وأزقتها الضيقة المظلمة. كواليس وجود بطعم حارق يتمسرح فيه بوعزيزي كل يوم في صمت أقرب للموت، يحترق مجازًا بلا نار وينتج دخانًا من الآلام. تاجر يبيع الوهم مخلوطًا ببعض الحقيقة التاريخية المزخرفة بالعسكر. لك الويل؛ كيف تصنع من خبز الفقراء مهرجان فرحك المزور، ومن كبد تلاميذك وجبات؟

باب المقبرة قصيدة يعلوها الصدأ، أزيز قافيته بحرف الراء، ذبحني كشاة قاصية عثر عليها مجرم في غابة الألم، قبر جدي مسوى بالأرض كما طلب دائمًا، تمتمت فرد الصدى صوت أحزاني، يا لهدوء المقابر!

أرواح تهمس في أذني: لو كان أهل المنابر، قطاع طرق الوطن، سارقو أغطية زلزال الحسيمة، مدمرو القرى والمداشر، يزورون المقابر لحد بطشهم، إن وجودهم المتواصل في القصور يجعلهم يستخفون بالموت. فلتأتوا يا أصدقاء الموت إلى هذه القبور، افتحوا صدوركم لنسيم الأماكن الغامضة! علّها تلين.

لم أبك يوم مات جدي، تلك كانت بداية مسيرتي، اقتنعت بلا جدوى البكاء، فأصبح للموت عندي معنى أكبر، لم أكترث للحياة؟ تأملت طويلاً جثمانه، ماذا أبكي؟ موته أم رحيله وفقدانه؟

لم أبك، حين نبكي شخصًا مات، نبكي فقداننا إياه وابتعاده عنا،

نبـكي أنفسـنا، أمـا إذا بكينـا موتـه فكأننـا نـسيء الظـن بـه، افترضـت أن جـدي صالـح؛ فرحـت لـه في داخـلي، هكـذا قاومـت حـزني.

لغـة الدمـوع عميقـة.. هنـاك دمـوع ضربـات الباعـوض الطبيعيـة، كـرد فعـل بيولوجـي، وهنـاك دمـوع فـرح بمذاقهـا الحلـو تكـون قليلـة وتزيـن الخـدود وتنـير الوجـه.

وهنـاك دمـوع الحـزن ثقيلـة كثـيرة متقطعـة ومؤلمـة وغالبًـا تأخـذ مـن الـروح ومـن أعمـاق الحضـور.

وهنــاك دمعتــان ســخينتان بلوريتــان ماســيتان تســقطان دون ســابق إنـذار دون سـابق اعتـذار، تخـتزلان ألمًـا صغـيرًا لحظيًـا، لكنـه عمـودي كماسـور مركـب شراعـي. إنهمـا دمعتـا الرغبـة العميقـة في فعـل شيء غـير مقـدور عليـه، دمعتـا الإعاقـة والصمـت.

أنا اخترت اللا دمع.

لحظة الفراق هي الأصعب، لا الفراق ذاته.

سرعان ما ننسى، نحن منافقون.

أوراق الـورد حزينـة وصفـراء كتعبنـا القديـم المولـود قبلنـا بسـنة رمليـة، حـين كان رمـل البحـر يسـتنجد مـن شـدة مللـه برمـل الصحـراء ليبادلـه قصـص البحـارة الغـرقى بـسرود البـدو الضائعـين. المـوت يحيـط كل الحكايـا ويفـرض منطـق البدايـة مـن أجـل النهايـة. ونحـن بيـادق الوجـود نـضرب موعـدًا مـع الصمـت في عمـق المحيـط ونشـعل المـاء نـارًا ونحيـل عظامنـا غبـارًا.

حـين تهديـك المقـبرة هـدوءًا وسـكينة، أتزعـج نفسـك برصـد توازنـات الحيــاة البائســة؟ انطلــق إذن إلى أشــياء أخــرى ولا تبحــث في ثنايــا اللحظـات عـن السـعادة، اذهـب إلى المقـبرة فقـد يكـون مـا تبحـث عنـه متعلـق بالنهايـة.

قـبر جـدي لا رخـام ولا زليـج ولا بنـاء عليـه، متخفـف مـن كل

ما يثقل موت الآخرين، كما ترفع في حياته عن بطاقات أعضاء المقاومة رافضًا أن يهين وطنه بأخذ ثمن نضاله، لكن الوطن أهانه، حين ساوى بين المناضلين الشرفاء والمحررين وراقصات الفنون الشعبية، حين أصبح يمنح للجميع المزايا ذاتها ويعلق على صدورهم نفس الأوسمة، وكأنه بذلك يقول: إن تحريك البنادق لقتل الأعداء، كتحريك الأرداف، وساوى بين المقاتلين والفنانات، إن الوطن لا يخجل، لا وجه له.

لماذا نزين القبور بالشواهد الرخامية، أليس لنقنع أنفسنا بالوفاء لهؤلاء الموتى، وما أدراهم إن كان فوق عظامهم صلصال أو رخام؟ نخدع أنفسنا، نصنع التوابيت الأنيقة والشواهد الجميلة لطرد الآلام.

تصالحت منذ القدم مع الموت. ارتكبت صوابًا.

طلب جدي أن نسوي رمسه بالأرض، علاقته المتينة بالتراب قبل موته ظلت بنفس المتانة بعد موته، تراب دافع عنه ضد الاستعمار الفرنسي، ضد السرقة الداخلية، ولكن عندما لم يستطع حمايته ضد سد ملعون وضد لهيب ماء حارق، (الماء يحرق التاريخ ويرمي أوراق الحضور بالغياب)، مات كمدًا، التراب احتضنه بعد وفاته اعترافًا بالجميل، احتضنه في قبر صغير مسوى بالأرض، الجثث التي باعت الوطن وحدها يرفضها التراب.

كلما عدت إلى هذه القرية أبدأ زياراتي بالأموات قبل الأحياء، أتوجه إلى المقبرة إنها حديثة العهد، فيها قبور قليلة، فبعد ترحيل السكان من الدواوير التي غطتها مياه السد الملعون، اجتمعوا وحجزوا -كأول إجراء- مكانًا للمقبرة. وقد كانت مشكلة حقيقية حين لم يجدوا مكانًا لدفن الأموات، انتظروا إلى أن حضر أحد المتبرعين الصالحين المحسنين ليجعل أرضه وقفًا على المقبرة.

obeikandl.com

-٢-

كان النـاس يتخوفـون مـن مـوت أحدهـم، بقـي الجميـع متمسـكًا بالحيـاة إلى أن افتتحـت المقـبرة بجثمـان الطفلـة «تـودا» الـذي تم نقله إلى المقـبرة، الطفلـة الـتي عاشـت أسـبوعًا واحـدًا وكان لهـا جنازتـان، كأن القـدر أراد لهـا الاسـتمتاع بالمـوت مـا دامـت فـرص الحيـاة شـحيحة.

قبرهـا صغـير جـدًا تحيـط بـه الحجـارة، يقـع في أقـصى اليسـار، معلنًـا رفـض الحيـاة، «تـودا» الـتي كان ميلادهـا رمـزًا يحمـل الـلا معـنى، أصبـح لموتهـا معـنى أنجـب الكثـير مـن الـدلالات عـلى الأقـل بالنسـبة لي، لقـد جـاءت خطـأ، وحـتى عندمـا فضّلـت الرحيـل لـم تجـد مكانًـا تغـادر إليـه، لـم تسـلم مـن مـأزق الحيـاة، فـلا ظـروف الحيـاة كانـت مواتيـة لميلادهـا ولا ظـروف المـوت مُعـدّة لاسـتقبالها، ولـدت في شـبه مخيـم، وماتـت في شـبه مقـبرة، وأخـيرًا عندمـا وجـدوا لرفاتهـا مكانًـا أزعجـوا اسـتكانتها وذكروهـا بالحيـاة في جنـازة أخـرى.

لن أنسى أبدًا نظراتها الأخيرة.

«تـودا».. لا تحـزني في قـبرك، يـا حمامـة بيضـاء تحلـق في العليـاء، فلتهنـئي ولتسـعدي لأنـك لـم تحمـلي هـول اللحظـات الأخـيرة والذكريـات الأليمـة.

جنازتـك الجديـدة وطـن نكفنـه مـن جديـد، ونقـبره خـارج قلوبنـا، في عالـم مـن الأتربـة والدمـار هـو الوطـن لا يسـتحق حـتى جنـازة جديـدة مثلـك.

يسـعدني أنـك وجـدت مكانًـا يأويـكِ، عنوانـك الأخـير، عـلى الأقـل لك عنـوان، أنـت الـتي ليـس لـك اسـم أو شـهادة ميـلاد يعرفـك الجميـع بشـهادة وفـاة ونظـرة مسـتحيلة.

في وطـن التنـاوب وزمـن المؤقـت والمؤجـل لا يسـلم حـتى المـوتى

من الترحال من قبر إلى قبر، إنه شيء يجعل الآخرة أيضًا مستهترة، فهل يجبر الملكان على إعادة طرح الأسئلة؟ لا، ذلك ليس زمن الأسئلة المؤجلة.

إذن، «تودا» افرحي بقبرك الصغير الجديد، في زمن لا يجد فيه المرء مكانًا يموت فيه، زمن المقابر الجماعية، الجثث المحروقة، والأجساد المحشوّة في الأكياس، وفي أحسن حال، إذا حدث ومت في مصحة راقية يسرقون بعض أعضائك مباشرة قبل موتك.

افرحي بقبرك الانفرادي.

ارتكبت صوابًا.

إنه زمن لا يحترم خصوصيات الموتى ولا يراعي الحشمة والوقار، يتابعهم حتى بعد دفنهم بالتنقيل والسفر.

حاصرني الوطن حتى زرت المقابر.

يا لعنف المساطر!

«تودا».. إلى اللقاء، ابقي على انتظار، سأعود إليك يومًا لأحمل لك أجمل الأخبار، سأقول لك مثلاً إن الوطن شفي من مرضه المزمن والتاريخي وعاد ليحضننا بقوة، إن حدث هذا فذاك، وإلا فسأعود حاملاً قصصًا قصيرة حزينة مليئة بالخراب، أسميها «نوستالجيا الدمار» أبثها حواراتنا أنا وأنت، وقد أجعلها قبرًا من المقابر أدفن فيه الأمل وأرحل.

أرحل إلى مكان بعيد جدًا، في زمان آخر، ولن تريني بعدها، إلا عندما يحضرونني مضطرًا، إلى جانبك لأجيب بدوري على الأسئلة غير المؤجلة.

-٣-

يجـب أن نخـدع القـدر باتخـاذ قـرارات مضـادة لمسـارات الحيـاة العاديـة، عندمـا تتخـلى عنـك امـرأة، افـرح مـن شـدة حزنـك لأنـك ستعيش تجربـة جديـدة لـن تتـاح لـك الفرصـة أبـدًا لتعيشـها لـو لـم تتخـل عنـك تلـك المـرأة.

افعـل الأشـياء الـتي لا تبـدو منطقيـة، تخـلَّ عـن مبادئـك واحـدًا بعـد الآخـر، سـتخسر كثـيرًا باحتفاظـك الغـبي بأشـياء محنطـة، متحجـرة، مـن قبيـل مبـدأ، خلـق، عـادة.. يـا لكرهـي للتحنيـط! لقـد خـدع الفراعنة أنفسـهم بتحنيـط المـوتى، لا لـشيء إلا ليجعلوهـم يعيشـون موتًـا عـلى صورتهـم في الحيـاة.

لذلك عدت إلى القرية.

عـدت لأرتـاح، لأفكـر، ماريـا الـتي أحببتهـا مـذ وعيـت الحـب، تتخـلى عـني في بـرود صقيعـي قاتـل، يجـب أن أنـسى وأن أحـترم قرارهـا، فلتعـش عـلى طريقتهـا الجديـدة ولتكـن لي حيـاة الذكريـات الجميلـة.

القريـة منعزلـة، كأنهـا خـارج الزمـان، لهـا إيقاعهـا الخـاص البطـيء حـدَّ الجمـود.

باقـترابي مـن مدخـل القريـة، تتهافـت الذكريـات إلى روحـي، نعـم، شيء متصـل بالـروح لا بالعقـل والقلـب، هـي الـروح تتشـمم وتتواصـل مـع المـاضي عـبر هـذه الأمكنـة الغابـرة، إنـه الحنـين، إحسـاس يتولـد صـورة بعـد صـورة، الأحـداث لـم تعـد ترتبـط بالزمـان، بـل بمورفولوجيا الأمكنـة، أحـن إلى المنـازل الطينيـة القديمـة المتراميـة الأطـراف، لا يحدهـا سـور أو جـدار، الحضائـر متصلـة بالمنـازل والمنـازل بالبيـادر، والبيـادر تعانـق الحقـول والجبـال، الآن بالضبـط يتولـد الحنـين، حـين أمـد نظـري، حـين أصطـدم بالمنـازل الجديـدة، علـب كبريـت متراميـة،

أمامي جمع من العجائز يعملون على استخراج زيت الأركان، يدقون ويعصرون ثماره، خارج البيوت الضيقة، إنهن يرفضن هذه الحياة، يتشبثن بعاداتهن القديمة مهما حصل.

أحن للشمع والرسائل، هذا الزمان ليس لنا، هذه الموسيقى تنتهي قبل أن أعتدل لأسمعها، هذه الأخبار تصنع الحدث ولا تنتظر حدوثه، كل شيء سريع، سريع حد البطء، حتى المشاعر تشتعل وتنطفئ في حينها، كل شيء أصبح قابلاً للقياس، الحب يقاس بالكيلولايك. الحنين مسحوق تصبين لدى الروائيين، الفوضى محط اندهاش، البحر ما عاد يمتص الانكسارات العاطفية والقمر لا يلهم الشعراء، والمرأة القضية أصبحت خميرة انتخابية، وأشياء أخرى تخلت عن موقعها الدلالي وسافرت إلى أضدادها، أحن إلى زمن اللا كهرباء واللا إنترنت، حيث كل شيء معد على نار هادئة.. أحن للشمع والريشة والدواة.

الحنين يدفع إلى التذكر وفي أحيان كثيرة إلى الاعتذار.

تلك الأشياء اللطيفة التي حاولت فعلها فانقلبت إلى مأساة.

الفراخ التي قتلتها في أعشاشها أثناء محاولتي إطعامها.

النباتات التي بالغت في سقيها حتى جرفها الماء وتكسرت سيقانها.

النملة الصغيرة التي ساعدتها على جر غصن أكبر منها فتركته وهربت.

ودودة الأرض التي أخرجناها من الطمي خوفًا عليها من الاختناق فعصرناها.

ولوحة المسيد التي بالغنا في تنظيفها فكسرها الفقيه على رؤوسنا.

وحتى حجر الصلصال الذي انفلت من يدي وأصاب عين الفقيه، وكان سبب فلقتي الأولى..

وسورة البينة وحزب عمَّ.

وجميع الفتيات اللواتي أحببتهن وتخليت عنهن من شدة ولهي

بهـن.

والكثير من الأشياء الأخرى.

الخواطر والقصائد التي كتبتها ورميتها أو أحرقتها.

أعتذر عن هذه الأشياء كلها.

دون أن أنـسى المشاكسـات الـتي كانـت ضحيتهـا معلمتنـا الـتي أحبتنـا وتبنـت قضيتنـا كمهجريـن، كأطفـال في حاجـة إلى الحنـان قبـل العلـم.

ذات نوسـتالجيا حـين كنـت بعمـر الفـرح، أجـري بـين أشـجار الزيتـون أقطـف نبتـة «طيرطـا» ذات الرائحـة الكريهـة وأمسـح بهـا وجـوه فتيـات الـدوار، ذلـك أني أعشـق مشاكسـتهن بـلا اسـتحياء. وكان خـالي وقتهـا يعطيهـن أهميـة أكـبر ويحدثهـن تحـت أشـجار النبـق المزيـف ويكـره أن أكـون سـخيفًا مـع تلـك المخلوقـات اللطيفـة.. لكـن مـن جهـتي أجـده يبالـغ في التصاقـه بهـن خصوصًـا في فـترة مـا قبـل غـروب الشـمس. حيـث تبـدو الوجـوه شـاحبة فـلا يمـيز المـار إلا ظـلال الأجسـاد. أنـا الآن معجـب بخـالي الـذي دوخ فتيـات القريـة. وأكـره نفسـي أن لطخـت وجوههـن بنبتـة كريهـة الرائحـة.

لا أدري مـتى أصبحـت سـجين ذكريـات إلى هـذا الحـد، أسـير وتسـير بمحـاذاتي أحـداث الأزمنـة الغابـرة، صـور ونسـخ محفـورة في الذاكـرة.

أحيانًـا نكابـر حـتى نسـقط تعـثرًا بالمجـازات. نسـافر سرًا إلى الحـدود الإقليميـة لبـلاد الحـزانى، نسـتشرف أحلامًـا هلاميـة ونرتـع في مرتفعـات تـدوخ مـن بؤسـها الطيـور. ثـم نعـود أدراجنـا حاملـين تجربـة وقطعـة مـن الوقـت الضائـع الـذي لا بـدل لـه، لأن لعبـة الحيـاة لا تؤمـن بالتعـادل ولا بالأشـواط الزائـدة. أحتـاج سـكونًا بقلـب هـادئ، سـكون عجـوز يداعـب مسـبحته في انتظـار صـلاة العشـاء، سـكون جـدة تفتـل حبيبـات السـميد فـوق السـطوح، أريـد أن أهـدأ وأصنـع مـن الوقـت أمنيـات أجمـل.

سجين يبحث عن التحرر لا الحرية.

obeikandl.com

-٤-

لست حزينًا على فراقها، بل حزين لأني لن أحب امرأة بقدر ما أحببتها، لكن من يدري؟ فقد يكون الحب أكبر مما نظن. رسائل مصنوعة من فتيت اللغة، ترتوي من هدوء القبور الرخامية لكبار الأغنياء، هل حقًا نحتاج تلكم المنمنمات اللفظية لنشيّد إمبراطورية النفاق والوداع، لتقول انتهى كل شيء تحدث ببساطة تراب المقابر الشعبية لفقراء الدرب المهجور التي لا تحتوي غير شاهد خشبي مهترئ. قولي وداعًا فقط.

- يا نفسي، هل ستشتاقين إليها يومًا؟

- طبعًا فأنا أرتاح لمجرد تذكرك إياها، تلك الطمأنينة التي تحيط بالكيان كله حين تستعيد حواراتكما وتعيد تذوقها، كان الحب يكبر ويتكون في تلك اللقاءات والمواعيد، إن الاستعداد للموعد تنسيق ألوان الثياب، وضع العطر مهما كان رخيصًا، الحيرة المزعجة بين إغلاق زر أو اثنين من القميص، هز الكتفين أمام المرآة لقياس مقدار الرجولة، نفخ القفص الصدري وحتى الخطوات التي تسير بك إلى لقياها تجعل الحب ينمو ليصير شجرة زيتون أو شجرة جوز كبيرة. ضلالها وارفة حتى في فصل الصيف القاحل.

- والآن حبنا شجرة صبار شائكة، لا يكترث لها أحد لأنها تقع في أقصى الحقول، لم يرغب أحد في ثمارها، إلى أن تعفنت، وسال العفن على الأشواك الحادة.

- يا لها من صورة مقرفة! لكنها الحقيقة، ثمار بمذاق العسل، بعيدة، مغبرة، منسية، يلهو الأطفال برميها بمقالعهم الخشبية.

- ربما أفكر الآن في العودة إليك يا نفسي الحبيبة، سأهتم بك.

- يا لرد فعلك الحلزوني! كلما أحسستَ بخطر تنكمش عليّ.

- إنها قصة خيانة.
- لا إنها رواية تخلٍّ.
- الرواية حنين.
- ستظل الذكريات تتملكك، متى تستطيع أن تعيش اللحظة الحاضرة؟

تحول كل حادث إلى ذكرى، ككل كتاب تقرأه، تضع عليه تعليقين أحدهما في الصفحة الأولى تبثه انتظاراتك، وآخر في الصفحة الأخيرة تشكر فيه الكاتب لأنه أجاب عن بعض أسئلتك، ثم تتركه داخل خزانتك.

- نعم هي كذلك الذكريات، مجموعة كتب مرتبة في رفوف ذاكرتنا، مكتبة كبيرة لموظفين أكفاء كلما وطأت قدمك مكانًا مررت منه أو شخص عرفته أو فكرة لامستها تجد أن كتابًا قد انفتح أمامك تقرأ منه ما يشبه اللحظة في زمن منسي، مع إحساس ثقيل بالفقدان وشيء من الضيق لعدم القدرة على إرجاع الزمان إلى الوراء. لا تستطيع أن تمسك بعقارب الساعة وتديرها عكسيًا، لذلك أحب الأمكنة فهي بين يديك دومًا، أما الزمان فقد قتلني، لا بد أن أقتله يومًا انتقامًا، لكنه منفلت دومًا من قبضتي، عقارب الساعة تظل تدور ولو انتهت البطاريات، هناك عدد لا متناهٍ من الساعات، سأقتل الزمن والتاريخ وسأحتفل بوجودي في مكان خارج الزمان.

- لا تخف «فقصص الحب الكبرى تنتهي بتقلصها إلى ذكريات هزيلة» كما قال ميلان كونديرا.

- لا أقلص الحب، فماريا ليست سوى موضوع لهذا الحب، فالحب تجربة فردية، سأحب حتمًا امرأة توجد قربي أو تقاطعت حياتي مع حياتها في منعطف من منعطفات الحياة، وقد تكون ماريا أو غيرها، لا أريد أن أتذكر، أريد أن أفهم، والسؤال المحير: لماذا ينتهي الحب فجأة؟ كأنه سال من ثقب كبير في عمق برميل

المشاعر، لماذا لم ينقص قطرة قطرة كأنه يتبخر؟ على الأقل كنا لنتلذذ ببقايا الندم على تسرعنا.

- الجواب سهل: لأن الزمن موجود.

- لذلك أحتفي بالمكان، فأن تكون في مدينة سريعة الوتيرة كطوكيو تخصب فيها الأبقار صناعيًا ثم تنتقل إلى قرية مغربية في الأطلس حيث ما زال الناس يحتفلون بميلاد عجل عملوا على تقريب أمه من ثور بعقد مبرم مع صاحب الثور بمنحه كيس شعير، وبعد انفضاح العلاقة الجنسية بين ذكر وأنثى، واحمرار وجوه الفتيات اللواتي التقين بالجدة تجر الثور وتقدم له بقرتها العروس، وصيحات الشباب تفريغًا لمكبوتاتهم من قوة مشهد التخصيب هذا. هروب المعلمة وهي تصرخ، معتقدة أن زلزالاً قد وقع، فركض الثور وراء عروسه في الحظيرة الملتصقة ببيتها سبّب لها الذعر، كل هذا يجعلك تدرك أن الزمان ينتهي بالانتقال من مكان إلى آخر. أما السفر فهو قاتل مأجور يمكن استغلاله لاغتيال الأيام، وأتذكر نص القراءة الذي بقي مقررًا إلى أن توارثته الأجيال في المغرب، كان عنوانه «أسبوع بلا جمعة» فسفر الكاتب ألغى يوم الجمعة من أسبوعه الشخصي. هكذا تموت الأيام.

- هذه ذكرى باهتة أيضًا يبدو أن موظفي مكتبتك مهرة.

- نعم إن عمال الذاكرة يعملون ضد الزمن.

- المكتبات والأرشيفات هي احتياطات المكان ضد غدر الزمان.

- نعم كما الرواية هي احتياط الإنسان ضد الحب والنسيان.

obeikandl.com

-٥-

عـدت إلى القريـة إذن لأخـوض تجربـة انعـزال أو عزلـة، غرفـتي كما هـي، أثاثها القديـم، صنـدوق خشـبي، مكتـب صغـير (المكتـب الوحيـد في القريـة) سـقف الغرفـة مغطى بالخشـب والقصـب والطـين وصبـغ بمـاء الجـير، أمـا الجـدران فقـد بنيـت بالحجـارة والأسـمنت ذلـك أنـه زمـن الـلا اكتمـال، غرفـتي كمجمتعـي دخلـت مرحلـة الانتقـال ولـم تخـرج منهـا بعـد، بعـض موادهـا تقليـدي وقديـم وبعضهـا الآخر حديـث. وكومـة كبـيرة مـن الجرائـد، مقـال قصصتـه وعلقتـه جانبًـا مـا زال عـلى الحائـط، بهتـت ألوانـه، ولكـن لأن ذلـك الصحفـي قـد قـضى أيامـا يجمـع المعلومـات ويتأكـد مـن صحتهـا، احتفظـت بمقالـه بـين أوراقي.

«المقال»

سد أولوز، من منشأة وطنية إلى قضية إنسانية:

جذورها في أولوز وأغصانها في دهاليز الإدارات والمحاكم.

منشـأة إسـتراتيجية، تدبـير الـثروة المائيـة، تهجـير السـكان، اسـتيلاء عـلى الأراضي، حقـوق الإنسـان، الفقـر والتفقـير، نضـال وقمـع ومحاكمـات، ثغـرات قانونيـة، معانـاة مسـتمرة.. كل هـذه العناويـن تهم قضيـة واحـدة هـي سـد أولـوز، وكل يسـتثمر العنـوان الـذي يناسـبه، أيـن الحقيقـة؟ بيـد السـكان وجمعيـات المجتمـع أم وزارة التجهـيز أو وزارة الداخليـة، أم المسـتثمرين الخـواص؟ كل مـا هنالـك أن سـكانًا هجـروا، منشـأة وطنيـة في إطـار سياسـة بنـاء السـدود، حدثـت الأخطـاء فكانـت الضحيـة هـي السـاكنة الـتي لـم تعـد تطالـب بمقاربـة حقوقيـة أو سياسـية في وطـن الشـح الحقـوقي، بقـدر مـا تطالـب بمقاربـة تنمويـة تخرجهـا مـن الفقـر والبطالـة والعزلـة والجـوع، فبنـاء السـد اعتـبره

السكان حرمانًا لهم من ثرواتهم المشروعة تاريخيًا، فهم أصحاب الأرض منذ قرون خلت خصوصًا أنهم متخوفون هذه الأيام من أن يحدث المكروه، وهو بناء الساقية التي ستنقل الماء إلى ضيعات سبت الكردان، لتقريب الصورة من الرأي العام، اتصلنا بجمعيات السكان المتضررين وبإدارة التجهيز وبعض متتبعي الملف، فأنجزنا التحقيق الآتي:

موقف السكان: في سنة 1987 كانت أول دراسة لمشروع سد أولوز حيث تم تصوير موقع السد وبدأ إحصاء الأراضي والأشجار والممتلكات قصد تحديد التعويضات المالية، ولسوء الحظ تعرضت المنطقة لفيضان وادي سوس في نفس السنة وأعادت وزارة التجهيز تصوير الموقع من جديد، واعتبرت المناطق التي اجتاحها الفيضان خارج الإحصاء ما دامت في حساب مجرى الوادي الرئيسي، رغم أنها مشجرة ومزروعة من طرف السكان.

إدارة التجهيز:

دراسة السد كانت قبل 1987 بعشرات السنوات، إلا أنه في هذه السنة تم تحيين الدراسة، أما الهدف من السد فهو تطعيم الفرشة المائية لسهل سوس والتحكم في مياه وادي سوس خدمة للصالح العام.

موقف السكان:

أثناء إعادة الإحصاء قصد التعويض استفاد بعض السكان (حسب أقوال أحد رؤساء الجمعيات المؤطرة لسكان المنطقة) باستعمال الخريطة الأولى أي لقبل 1987، والبعض الآخر تم تعويضه بالخريطة الحالية، أما التعويضات فكانت هزيلة جدًا قدرت بـ3,50 درهم للأرض المسقية و2,50 درهم للأراضي الحجرية، أما الأشجار المثمرة فتم تعويضها بـ350 درهمًا، لكن طريقة إحصاء الأشجار حسب نفس المصدر شابها التميز والمحسوبية والرشوة،

فالبعض تحسب له جذوع الشجرة مجتمعة شجرة واحدة والبعض الآخر تحسب له جذعًا جذعًا أي بتعويض مضاعف، هذا وقد تم تعويض البعض عن الأشجار المثمرة وغير المثمرة، وقد لاحظ سكان المنطقة أن بعض الأسماء الخيالية قد استفادت (صنعتها أيادٍ خفية) رغم أن لا علاقة لها بالمنطقة.

إدارة التجهيز:

وزارة التجهيز لا تحدد التعويضات، بل هناك لجنة مكونة من عدة جهات منها التجهيز والسلطة المحلية، ويتم التعويض عن أنواع الأراضي والأشجار المثمرة والمنازل بدليل وطني يحدد قيمة التعويضات عبر تراب المملكة، ولا دخل لذاتية أي إنسان، بل هناك لجنة موضوعية تقوم بالدراسة.

مواقف إنسانية:

عندما تم تهجير السكان إلى الدواوير الجديدة تم هدم المنازل دون إعطاء المهلة الكافية لبناء منازل أخرى أو حتى جمع مواد البناء والأخشاب القديمة لإعادة استعمالها، وجدوا تراب المنطقة التي رحلوا إليها لا يصلح للبناء التقليدي، الشيء الذي أجبر البعض على استعمال الخيام والبلاستيك في انتظار مساعدات العائلة والأقارب، ومنهم من فضل الهجرة دون عودة، خصوصًا أن قد طلب منهم الرحيل قبل الحصول على التعويضات وذلك سنة 1992. المنطقة الغابوية التي منحت لهم هي في ملك سكان آخرين يستغلونها في الفلاحة البورية، الشيء الذي خلق نزاعًا بين السكان المهجرين وأصحاب الأراضي الذين يطالبونهم أمام المحاكم بالإفراغ والجهات الرسمية لم تمنحهم لحد الآن أي وثيقة رسمية للاستقرار. هذه المنطقة محاطة بالمجال الغابوي، فلو حدث وهربت شاة أو وجدت الجدة والأم تجمع الحطب يتم تغريمها.

إدارة التجهيز:

مهما تم تعويض السكان فلن يرضوا بهذا التعويض، لأنك تقوم بحرمانهم من مكان كان فيه تاريخهم ومستقبلهم.

السؤال المطروح الآن، بأي إستراتيجية تعمل الدولة قصد تنمية المناطق التي توجد فيها مثل هذه الأخطاء والثغرات، متى ستخرج وزارة التجهيز من تقنوقراطيتها لتلامس الإنسان في جوهر وجوده وتاريخه وثقافته، بل وإنسانيته. إن السكان المهجرين والمنزوعي الملكية أحسوا بإهانة كبرى بسبب عدم تصحيح هذه الأخطاء رغم أنهم تأطروا بجمعيات وحدت كلمتها، اعترضت ونددت وتظاهرت في مسيرات ملونة، اعتصمت وأضربت وراسلت هيئات سياسية وحقوقية عديدة وديوان المظالم، وما زال نضالها مستمرًا من أجل الحياة الكريمة.

فلا أحد يذكر كون التعويضات هزيلة، فلنأخذ كمثال حي الأطر بأولوز، فقد تم تحديد تعويض الأرض بـ10 دراهم للمتر، وعند اعتراض السكان أمام المحاكم رفع محامي التجهيز مقالاً للمحكمة على مبلغ درهم واحد، فأصدرت المحكمة حكمها بالتعويض بـ8 دراهم، الشيء الذي اعتبره سكان حي الأطر تضليلاً للمحكمة، وفي نفس الموقع رفع أحد منزوعي الملكية في قضية خاصة اعتراضه فحكمت له المحكمة بـ25 درهمًا للمتر وهو رئيس جماعة أولوز، فكل ما في الأمر هو نباهة المحامي لا قيمة الأرض الحقيقية.

من السكان من غلبه كبرياؤه فرفض كل أنواع التعويضات خصوصًا بعد أن تأخرت، ومنهم من لم يستطع بسبب الفقر الوصول إلى الرباط لأن الإجراءات معقدة وتتطلب سفرًا متكررًا.

الحل هو العمل على تنمية المنطقة باستغلال ما تتوفر عليه من إمكانات طبيعية (فلاحية وغابوية)، وخلق فرص شغل بعد أن سدت في وجوههم الزراعة وتربية الماشية، ومساعدة الجمعيات

المحليـة عـلى تطويـر عملهـا ومداخيلهـا للقيـام بدورهـا الكبـير في الحفـاظ عـلى التـوازن الاجتماعـي والنفـسي للسـكان وتنميـة المنطقـة المتـضررة.

انتهى المقال

جريدة ملفات الوطنية

obeikandl.com

obeikandl.com

-٦-

أبحث عن شيء لا أرغب تمامًا في الحصول عليه.

تكفي ستة أيام، ففيها خلق الله الكون.

لكـن، هـذا الـشيء الـذي أبحـث عنـه لا بـد أن أسـميه كي أسـتطيع توجيـه بحـثي. المشـكلة أني لا أرغـب في ذلـك تمامًـا، لكـني سـأواصل البحـث، قـد أسـميه «ذاكـرة هاربـة»، يبـدو أن لـكل شيء ذاكـرة، القلـب لـه ذاكـرة، القلـم كذلـك، الأرقـام، الحـروف، الملابـس، الأماكـن، الشـوارع، المـدن، المـاء، الرمـل، الصـدف.. كل شيء، فهـل أبحـث عـن كل شيء، وفي كل شيء؟ مجنــون إذن!

الناس يقولون ذلك، دعهم فهم سيثرثرون على كل حال.

يمارسـون أدوارهـم دون أن يكونـوا هـم حقيقـة، سـيظلون كذلـك إلى آخـر حياتهـم يلعبـون شـبه حيـاة دون أن يتوحـدوا مـع جواهرهـم، ويرقـوا إلى مستوى الوعـي بذواتهـم، الأصدقـاء يقولـون ذلـك، دعهـم فهـم سيحسـدونك عـلى كل حـال.

لأنـك أصبحـت أفضـل منهـم أو عـلى الأقـل مثلهـم، لـن يتعاونـوا معـك إلا بقـدر خوفهـم مـن أن تتجاوزهـم، لـذا سـيصادقونك ليبقـوا إلى جانبـك ويعرفـوا أخبـارك، وقـد يصفقـون لـك أيضًـا، وفي دواخلهـم يحسـدونك، وقـد تنفلـت الأمـور في لحظـة مـا، حـين تمتـلئ قلوبهـم، دون شـعور أو وعـي سـيكرهونك علنًـا، سـتكون حربًـا مفتوحـة ضـدك، هـؤلاء هـم الأصدقـاء، لـن يغفـروا لـك أن تكـون أفضـل منهـم.

نعـم مجنـون. خـرج مـن عـام الجنـون في اليـوم السـابع فبـدأت الحكايـة مـن جديـد، بـدأت بالجلـوس في مقهـى قـرب القريـة فقـط ليتذكـر مـن جديـد، إنهـا روايـة التذكـر.

أجلـس في المقهـى لأول مـرة منـذ سـنوات، عـلى الطريـق الوطـني

المارة قرب القرية كراسي بيضاء (كانت بيضاء في الأصل) متناثرة هنا وهناك، النادل لن يسألك طلباتك حتى لو جلست ساعة تنتظره، الناس يتحركون على مهل، لا يستعجلون شيئًا، هناك وقت للقيام بكل شيء. فالزمن هو الوحيد المتوفر، جثة الزمن المتعفنة، لقد نجحوا في قتله، اغتالوه؟ لا لم يغتالوه فجأة، وضعوا له سمًا فمات تدريجيًا، لا يشوّش عليهم الانتظار ولا حرق المواعيد.

منذ الصباح الباكي وأنا أحاول حجب نور الشمس كي لا يوقظ هواجسي، فحين يبكي الصباح فلا فائدة من شروق الغيم. تراوغ لتبقى شامخًا كسنديانة لبنانية، ولكنه ظل مرتبكًا يداعب عيوني التي ارتدت حزنًا على غير مقاسها. قطة صاحب المطعم مغمضة العينين تتأمل دومًا مقولات نيتشه عن الأسرة والمرأة ولكنها لا تعتقدها. فالحب عندها تميمة ملائكية معلقة على جبين البحر يتزين بها كلما أحس باليتم القديم، ليجلب لنفسه حظًا أكبر في عشقه للقمر. القطة الفيلسوفة خمّنت قبلاً أن السنونو لن يعود هذا العام، فقد سحرته فتاة من إقليم الألزاس أحبت سحنته البنية فاحتفظت به كقناع احتفالي إفريقي. والمساء أيضًا كان باكيًا ينوح داخل المقهى، فقد رآه يدخل متخفيًا يلتقط ما تبقى على الطاولات من طعام وفتات وتفاحات مقضومة وكسرات خبز منسية عافتها القطة السمينة المنشغلة بأفكار نيتشه التي كتبها وهو يكوي ملابسه الداخلية. يلتقطها في عجل قبل أن ينظفها النادل الذي تغاضى عنه وتباطأ في حركاته حتى يشبع المتشرد من اللقط.

طلبت شايًا -لا يوجد بن أو حليب- وحلوى، أي حلوى؟ حلويات مادلين المصنعة في تارودانت، طالما كرهتها، لا يوجد غيرها الآن، مذاقها حلو جدًا، لذلك أكرهها.

إذا مر أحد زوار المقهى بقربك تشم فيه رائحة سجائر «كازا»

ورائحة العرق، أو في أحسن الحالات يتعطر أحدهم بـ Rêve d'Or ريف دور القوي الرائحة يحضر منه بعض المهاجرين لـترات كل صيف عندما يأتون لقضاء عطلة الصيف مع أسرهم. (أعني بالأسر الزوجة والأولاد، فالمهاجر يأتي في العطلة محاولاً جعل زوجته تحمل لتتلهى بحملها إلى أن يعود في العام المقبل، هذا إن لم ينُب عنه أحدهم خلال غيابه الطويل).

لا أستطيع فهم عقلية المهاجر، يتزوج ويترك زوجته في القرية ويرحل طول السنة إلى أوروبا، إنه تواطؤ سريّ داخل الزواج، يقتضي أن تكون المرأة مصنع أولاد فقط، يجدهم الحاج قربه حين يتقاعد من عمله بالمهجر. هل حقًا يعتقد أن زوجته ستبقى وفيّة له في الخريف والربيع والشتاء، وتنتظر قدومه في الصيف؟! إنه يفتتح الموسم فقط ويتركها تمارس في سرية نزواتها الشهوية مع مراهقي الدوار أو زوج الجارة، وفي أحسن الحالات مع المعلم القابع وحيدًا في سكنية المدرسة، يوفر لها الأكل والشرب وبعض البقرات الحلوب لتتسلى بها، كيلوجرامات كبيرة من البن والشاي والسكر، مصروف شهري معقول، ويرحل وهو يعلم تمامًا أنها تخونه، وهو في الجهة المقابلة وراء البحر يستمتع بشقراوات أوروبا، أو ربما يتزوج امرأة أخرى.

obeikandl.com

-٧-

قررت الامتناع عن التدخين فتذكرت أولى السجائر.

كنا ثلاثة شبان، محمد وسعيد وأنا. دعونا مراد لشرب سيجارته الأولى وقد كان أصغر سنًا منا، لم نكن مدخنين شرهين أو مدمنين، بل نحاول دائمًا أن نخوض التجارب، نكبر ونعبر بصراحة التجارب كما يقول محمد، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فأن تتحدث عن السجائر شيء وأن تدخن شيء آخر، واستمررنا في التدخين، أحيانًا نتشارك في سيجارة واحدة نحن الثلاثة وننتشي بها، فالأمر لا يتعلق بشرب السجائر بل بطقوس التدخين التي تستلزم أن نكون مخلصين أولاً بعضنا لبعض، فلا يفضح أحدنا الآخر، ولا يدخن أحدنا خفية عن الآخرين حين يكون موسرًا ولديه مال لشراء «ماركيز».

قبِل مراد دعوتنا، فأخذ نفسًا أولاً، أداره في فمه فقط وبخّه في وجوهنا، نفس آخر أخرجه -بتشجيع منا- من أنفه فكاد يختنق، وبعدها حاول أن يسقي رئته لأول مرة.

منذ ذلك الوقت وهو يلعننا كلما تذكر أننا سبب إقباله على رفيقة حياته الآنسة «سيجارة».

في أيام «الزلط» كانت الآنسة تحمل اسم مدينة كبيرة بيضاء مدخنة هي أيضًا «كازا»، وفي بداية حصولنا على المنح الدراسية كانت تغير لقبها إلى لقب رجل من مستوى وطبقة أرقى، «ماركيز»، «مارلبورو» أو حتى «كِنت» مستورد قليل النيكوتين، لكنه كان ألذ وله طعم خاص ورائحته لا تزعج البنات.

والحشيش.. ألا يستحق التجربة؟

كان سؤال محمد نقطة تحوّل فعلية.

كرهنا بعضنا فيما بعد وافترقنا لأسباب غامضة، كالدخان

الـذي جمعنـا تلاشـت علاقتنـا رغـم قوتهـا لكننـا لـن ننسى أن جاذبيـة السـجائر أغـرت الفتيـات بالوقـوع في غرامنـا، فقـد كـن مثلنـا يعتقـدن أن حمـل سـيجارة قـرب سـور الثانويـة وقـت الاسـتراحة، تحـدي يدعـو إلى الفخـر والاعـتزاز ولنقـل إعـلان عـن الانتمـاء إلى عالـم الكبـار والحرية والرجولـة. رائحـة السـجائر لهـا ذاكـرة خصوصًـا إذا امتزجـت برائحـة العطـر والشـوينقوم وحـتى أوراق النعنـاع الـتي نمضغهـا قبـل الدخـول إلى البيـت والـتي اعتقدنـا أنهـا تمحـو آثـار التدخـين.

(النـاس ينظـرون إليّ ويحدقـون في أنفـي الـذي يتحـرك يمنـة ويـسرة ليلتقـط إشـارات ذاكـرة الروائـح).

السـيجارة عشـيقتنا الـتي نكرههـا، سـادية أغرتنـا بحبهـا وبـدأت تعذبنـا بعـد أن أوثقـت عقالنـا.

الأصدقـاء، مـع مـرور الوقـت يفصلنـا عنهـم حائـط سـميك كأنـه الغربـة، لا نجـد المعـاول ولا الفـؤوس لهدمـه حـتى في مخـازن الذاكـرة القديمـة، اسـتحضار المـاضي لا يشـفع دومًـا، وعندمـا تنظـر إلى الصـور الـتي جمعتكـم مبتسـمين يتمـزق كيانـك، وتحـس بالحـزن العميـق (إننـا نبتسـم في جميـع الصـور، فأخـذ صـورة فوتوغرافيـة آنـذاك لهـو شيء يدعـو -في حـد ذاتـه- إلى الفـرح والضحـك).

في مراهقتنـا الأولى، كانـت شـفاهنا تنـادي بصـوت مُلـحّ، اعتقدنـا أنهـا ترغـب سـيجارة، فدخنّـا كأننـا نمـارس طقسًـا جنسـيًا، خفيـة عـن الآخريـن، غالبًـا مـا يكـون الأمـر ليـلاً، في زوايـا جانبيـة مـن الـدوار تلقـت «كازا» قبلاتنـا الأولى، فهـي حبنـا الأول الـذي لـم ننسَـه، رغـم تيقننـا أننـا عـلى خطـأ وأن الصـوت الملـح ينـادي شـيئًا آخـر مـن جنسـه، شـفاهًا أخـرى.

كان صديقًا من نوع خاص.

الأمـور الخطـيرة يتقبلهـا بـلا مبـالاة تقتلـني، الـلا مبـلاة كانـت سـلاحه الدفاعـي الأول ضـد الصدمـات، يخفـي بهـا مشـاعره الحقيقيـة

وضعفه، فهو لا يحب ردود الأفعال الأولية (الغبية واللا معقولة) آنذاك يسخر من كل شيء بداية، حتى المصائب الكبيرة. برودة دمه ودعوته الروتينية إلى مناقشة الأمور بموضوعية توترني.

مع مرور الوقت أقنعني دون مجهود بأن الموقف يجب أن نتخذه بعد تفكير طويل ومعالجة، وألا يبقى رد فعل باهت يتحول إلى تفاهة، تحول صاحبه إلى إنسان تافه أيضًا لا مواقف له.

تنتصب السيجارة بدءًا بين أيدينا نشعلها نارًا، ننفخ فيها، كلما نفخنا ازدادت اشتعالاً، نمصها، نشربها، نلعقها، إلى أن تحترق، تتلاشى، تتراخى، فنشعر بالراحة، نرميها في المنفضة وحتى عملية الرمي هذه فيها الكثير من الضغط والتدوير، وقطرات الماء على المنفضة الحرفية بشكلها الغائر المغري لدليل على هواجس وأحلام وحركات ومشاهد تتعلق بالوعي واللا وعي وتشكل أخيرًا طريقة في الوجود، بقوانين لا مشرع لها وقيم لا منتج لها، سوى الحنين والذاكرة.

السجائر كانت أول الممنوعات والأسقف التي كسرناها وطرنا بأجنحة التحدي مع الدخان الرمادي، لذلك كانت لها حكايا وحنين كأوجاع الحب الأولى، بخلاف الحشيش والخمر الذي كان مجرد شراب منعش، والنارجيلة التي كانت تمثيلاً وتقليدًا لرجال المسلسلات المصرية التي غزت القناة الوطنية آنذاك، حين اعتقدنا أن الأدب والمسرح والغناء والسينما لا يوجد إلا في القاهرة. أحببنا السيجارة الأولى الرخيصة، التي كان لها اسم مدينة عشنا فيها أعواما (الدار البيضاء) ولأن طعمها بدا مغربيًا أحببنا مذاقها كرضيع يتلذذ بحليب أمه، كنا (وطنيين) حتى في اختيار السرطان الأنسب. الموت الأنسب.

التقيت صديقي فيما بعد، كان حزينًا جدًا لدرجة لا يمكن أن أنام دون أن أكتب عنه قصة قصيرة، بلحية مبعثرة على وجهه

obeikandl.com

تصل عينيه، بأسنان خربة كأن حربًا وقعت في فمه، بعظام ناتئة حتى من بطنه، أنا الذي ابتعدت عنه لأنه غاب دون وداع أجده في أمسّ الحاجة إليّ، بل أكثر بكثير من حاجتي إليه.

حين تبلغ بك الحياة درجة من التشنج، عليك أن تمارس اليوجا الغبية وتتغابى ما أمكن كي لا تفهم كل ما يدور حولك.

obeikandl.com

-٨-

الموت هو ما يجعلنا قلقين، فلو كنا سرمديين ما أقلقنا وجودنا، ولكن الأكثر إرباكًا حين نسمع أننا أموات أصلاً، ونحن الآن في غفلة فقط، لحظة موت وسكر سنعود بعدها إلى الحياة الأبدية، هذا المعطى غير المبرر يزيد من قلقنا. يمكن أن نخوض في كل نقاش عدا موضوع الموت، لأنه كما قال دريدا «شيء لا يوصف أو لا يمكن وصفه» فهل نحن أحياء أم أموات؟

أطلق إمام المسجد في الدوار إشاعة مفادها أن الشياطين قد تلبستني وأن خلوتي ستة أيام ليست إيمانية بل شيطانية من قبيل «عباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان».

ليقل ما شاء، فربما هنا سيعزز مكانته ويجلب له شعيرًا أكثر، أما حالي فليست متناقضة تهتك بروحي، أحكام وملفوظات، أشياء وأزمنة، جمل، جمل طويلة جدًا لا رابط بين أسانيدها ومسانيدها، أو أنها كلمات، كلمة واحدة بالمفرد، نعم كلمة واحدة غامضة، مزعجة، مجهولة: الإنسان.

يا إمام، بي نازلة لم ترد في كتب الفقهاء ولا سير البلغاء، لا حد لها على أعتاب الفهارس، ولا مثل لها في الهوامش، أفتني في سبعة نوارس وموج ينساب عبر حروفي يحطمها فتيت لغة محكومة بالحياة حصرًا على أنقاض طليطلة وعلى قوافي طلليات امرئ القيس، موج يهرسني كبندقة وقعت بين فكي سنجاب متكبر يكسرها كي لا تنبت في عشه سلالة الوله، ويصورني كبوم محكوم بالحزن المؤبد أحكي للمارين قصتها هي وهو وهي وهو وهو وهو.. ساعة من كل دقيقة تمر، ولأن اليوم بضع وعشرون ألفًا من الساعات فأنا أحصي إرثًا

ثقيلاً من النكسات. فأفتني يا إمام في سقف يبوح بحبه للباحة وحائط يهوى الساحة وسطيحة تنوح من هول ما سيحدث. أفتني يا إمام، لا قياس ولا اجتهاد، كومة من الخراب وسؤال يضيق من فرط ما رأى، فأنا كلغتي مهووس بعلامات الترقيع المعلقة في الفراغ من شدة الفزع.

أفتني في سبع سنبلات زرق هجرهن الحَب والحُب، تركهن القمح وراح يلهو رفقة شقائق النعمان، ونخلات في زاكورة يرميننا بالفقر لا بالتمر، أفتني في تسع أرامل لفظهن الوطن تحت قنطرة وهن يودعن أزواجهن الشهداء دون مراسم دفن، أفتني في خمس نحلات يعفن حبوب اللقاح، بخلاً يخزنّ الغسل ويصنعن العفن، أفتني في غجرية تصوم الدهر وقروية ترقص في الحانات، أفتني أتوسل إليك أفتني في شهريار يحكي خوفًا من شهرزاد.

قال أحدهم "الحنين هو الاتصال بزمنين" ضيق أفق، انحسار. وجمود الحنين هو الاتصال بأزمنة عديدة متشابهة ومختلفة، حزينة على العموم.

قد أكون مخطئًا؛ ما أبحث عنه لا يوجد حولي، سواء انفتحت على العالم أو انعزلت في القرية، لا يتغير شيء سواء توقف الزمان أو سار إلى الأمام أو عاد إلى الوراء يظل ذلك الشيء غائبًا، ما أبحث عنه موجود في داخلي، سأكتشف بنفسي، إنه السر، إنها الروح، إنها الكلمة، إنه الوعد، شيء من هذا القبيل لا طبيعة له، سأغلق عيني وأنظر إلى هذا الظلام الدامس المحيط بي، ليس ظلامًا دامسًا، فبعض الاحمرار ينقش أمامي، إنه دم أجفاني، سأنتظر الليل وأنزل إلى الكهف في الوادي السحيق، هناك يمكن أن أفتح عيني إن شئت دون أن أرى شيئًا غير السواد، هناك أستطيع التفكير دون حواس، لن أكون ذلك الشيء المقيد بالجسد، لن أكون ذلك العصفور

المسجون في القفص، لن أكون تلك السمكة التي لا تغادر الماء، سأكون وفقط.

كائن شفاف، أدخن سيجارة فيختلط دخانها بي، أدخن نفسي فأختلط بدخان سجائري، أشعل سيجارة أخرى في الكهف المظلم، تكون السيجارة ولا أكون. أنقلب ذات اليسار، خدعة زمن، أنقلب ذات اليمين، بسكرة وطن، انتهت السيجارة من تدخيني وارتمت في هوة سحيقة ولم يعد لها أثر، اشتعلت وانطفأت، انفعلت وفعلت، حلت وارتحلت.. تركتني وحيدًا، شفافًا. أغلق عيني، أفتحهما، سيان، إنه الوجود بالقوة، أنا غير مرئي، ما دمت لا أرى نفسي، إني أعيش داخلي، أنظر إلى ذاتي بغير الأعين، أجرب حياة الكهف قبل أن أستيقظ وأحل ضيفًا على جسدي والمدينة.

obeikandl.com

obeikandl.com

المكان الأول من عام الجنون.

حدثني صمتي عني فقال إن هناك في جوفي سنديانة مثقلة بالمراثي، جذعها مرآة منسية في درج مخفي تحت طاولة متروكة في بيت مهجور ببادية خربة ببلاد خاوية على عمرانها، فارغة على امتلائها، فاحشة على استحيائها، سنديانة مهملة كسنبلة منخورة حملتها الريح إلى حقل القرع فظلت هناك حتى دقت طبول البوح، النهر يشعر بالظمأ والسماء تشتكي ظلم الغسق، والغروب يحسد بزوغ القمر، وأشياء أخرى تحدث داخلي. كهطول أسراب من الأمنيات من سماء المستحيل، فكيف بالحب لا يريح قلوب العاشقين؟ وكيف بالمنارة تضيع سفن المهاجرين؟ وكيف بالشعر يضيق برؤى المظلومين؟ وكيف بي أحدث صمتي وبي لهفة لأقتل صمتي وأمضي في خطى البؤساء الثرثارين؟ فقال صمتي: فلتقل قصيدًا أو لتصمت، وعَنَى بها أو لتمت. فقلت: لعل ما أكتبه صمت مغلف بالكلام، وهمٌ مطرّز باللذة أو لعله فرح مغدور بالآهات، هو حتمًا دم منسكب يبتغي قبره ليموت موتة المومياوات محنطًا بخليط من الأعشاب والملح والجرح والكسر المترف ورشة قديمة من الصداقة المدية وخميرة النسيان.

القضايا نفسها يناقشها ذهني، سددت الحفر التي أحدثتها الفئران في غرفتي، مستعملاً قطع الزجاج والجبس كي لا يستطيع أي جرذ حفرها من جديد لأنه من أعند الحيوانات، أقرب ما يكون إلى إنسان، تخلصت أيضًا من الجرائد القديمة وكومة الدفاتر التي نخرتها الحشرات.

obeikandl.com

الدفاتر القديمة.

لم أكن أبدًا أحرق دفاتري المدرسية، يحز في نفسي أن أفارقها وقد رافقتني طول السنة الدراسية، أكتب عليها صباح مساء، كأنها جزء مني، طرف من أطرافي، لذلك يصعب عليّ رميها في القمامة آخر السنة، اعترافًا مني بجميلها. لم أكن أدري أن علاقتي بجميع الأشياء من حولي ستكون كذلك، فأنا أرتبط وجدانيًا بجميع ملابسي؛ أحتفظ بها طويلاً، أقلامي الفارغة، الكتب التي أشتريها خصوصًا الروايات، أحملها معي إلى كل مكان، حتى ماكينات الحلاقة تبقى مكدسة إلى أن يعلوها الصدأ، علب الهدايا، البطاقات البريدية، أحتفظ بكل شيء، وأخاف أن أفقده فلا يعود بمقدوري التعرف على ذاتي، أبالغ في حفظ الأشياء التافهة -كما يراها الآخرون- إلى درجة الإزعاج، وأحيانًا أتمنى لو أتى عليها حريق مهول ليخلصني منها. بدل رؤيتها تعذبني دون أن أملك لنفسي حق وضعها رهن إشارة شاحنات القمامة، فأنا مغرم بالمجموعات ومتيم بحشد التذكارات والذكريات، أرتبها، أصنفها وأضعها في علب كرتونية أحشرها تحت سريري أو داخل دولاب ملابسي.

أردت عزلة أختلي فيها بنفسي فإذا بي أنعزل في مكان أغرقتني فيه يوميات الحياة التافهة، قضيت اليوم في إعداد المكان، رتبت أمور المأكل، الاستحمام والنوم. جئت لأستعد للموت فإذا بي أنخرط في الحياة العادية البسيطة، يبدو أن العزلة ليست كما تصورتها، فمن أهم شروطها أن يتوفر لديك كل شيء، ألا تحتاج إلى شيء يتعلق باليومي والروتيني؟ آنذاك يمكنك أن تنطلق في دنيا التأمل، أو أن تتوقف عن التأمل باستعمال اليوجا مثلاً. لا، ذهن نشيط كذهني، ينتقل من جملة إلى أخرى، ونفس مغمورة في الحماقات، أيستطيع الجسد أن يستمتع معهما بفضائل اليوجا؟ أكيد سيعتبرها حركات غبية.

كذلـك، قـررت أن اليوجـا حـركات فارغـة لا معـنى لهـا، لكـن، أليـس هـذا مـا أحتاجـه هـذه اللحظـات، أن أجـد الـلا معـنى وأتواصـل معـه وأعـترف لـه بالنـصر.

يجـب أن أهـدأ وأتـرك الأمـور تسـير عـلى حالهـا، سـأجيب عـلى طـرق البـاب، وأبتسـم في وجـه الجـيران، وشـباب القريـة، لاحظـت أنهـم يبـدون أصغـر سـنًا مـني، رغـم أننـا ولدنـا في نفـس العـام، إنهـم لا يهتمـون بـأي شـأن يُقـصِّر العمـر في حـين أني قـد أنفـق أيامًـا في تأمـل شيء، لوحـة مثـلاً، ويعتبرونهـا هـم لطخـات مـن الصباغـة ولا تأخـذ مـن وقتهـم إلا دقائـق أو ابتسـامة سـاخرة. إن جسـدًا كجسـدي محمـلاً بأشـكال متعـددة مـن الوجـود لا بـد أن يشـيخ قبـل الأوان، يسـتعجل الخـلاص، ينظـر بتأمـل واسـتغراب لـكل أمـر.

صنـدوق البـيرة الـذي أحضرتـه وعلـب السـجائر وكل الروايـات الـتي اخترتهـا بعنايـة لتعيـش معـي تجربـة العزلـة أصبحـت موضـع تسـاؤل، مـا فائدتهـا؟

"عالـم بـلا خرائـط" تبـدو متألقـة في لونهـا الأبيـض كعـروس، لكنهـا مهولـة ترمـي بـك عـلى بعـد قلـق، و"عابـر سريـر" الروايـة الحزينـة، الجثـث البـاردة وقصـص الحـب والمـوت تنتقـل بـك مـن المهـد إلى سريـر المـوت في المستشـفى، إن كنـت محظوظًـا فقـدرك أن تنتقـل مـن سريـر إلى آخـر عـلى التـوالي، بالتتابـع العـادي الطبيعـي، أمـا إن أخطـأت زمنـك فالأمكنـة سـتحتضنك بعشـوائية العبـث، ربمـا مـن بطـن الأم إلى المقـبرة مبـاشرة، قـد تمهلـك الحيـاة دقائـق كالصغـيرة "تـودا"، لتحملـك مـن المهـد إلى القـبر، وتكـون بذلـك قـد اختزلـت الوجـود وقفـزت عـلى الأسرّة، وكـسرت الـسرد -المهـد، سريـر الطفولـة، وسـائد المراهقـة، أسرة العاهـرات المزدحمـة، أرائـك العشـيقات، سريـر الزوجيـة، سريـر المـرض- وانتقلـت إلى سريـرك الأخـير سريـر الخلـود والحقيقـة.

"كوابيـس بـيروت" والمـرأة المحـاصرة، "الذئـب الأسـود" والرجـال المعسـكرون في الغابـة، "الغريـب" والرجـل الـتي يتـصرف بعفويـة فاتهمـوه بالقتـل، "أوراق" إدريـس الـذي فشـل في إقنـاع الآخريـن فأقنـع نفسـه بالعزلـة.

وكل الأبطـال الآخريـن والروايـات الأخـرى، هـؤلاء هـم أصدقـاء الآن، أعـرف أنهـم يراقبونـني مـن داخـل الأغلفـة والأوراق، وينتظـرون أن أصبـح بطـلاً لروايـة فشـل لأنضـم إليهـم، هـا أنـا ذا عـلى الطريـق إليكـم: أنـا الغريـب الـذي يحمـل أوراقـه مـن مـكان إلى آخـر بسـبب الكوابيـس المرعبـة لأتخلـص مـن عالـم مـليء بالذئـاب السـود، انتظـروني ريثمـا أكتـب نفسي لألحـق بكـم، فأنـا أحـب عالمكـم المـكان الوحيـد الـذي لا خريطـة لـه.

الباب يطرق.

- من؟

- محمد.

- أهلاً، ماذا تريد؟

- أحضرت لك البيض والحليب.

لا يمكـن أن أتوقـف عـن التحـاور والتواصـل مع النـاس، فقـد أمـوت جوعًا.

- تفضل.. أشكرك.

- هل تحتاج شيئًا آخر؟

أحتـاج أشـياء كثـيرة يـا ابـن العـم، لكـن لـن تجدهـا في السـوق أو في الحظـيرة، لا تسـألني فأنـا رجـل الهوامـش أقتـات مـن مخلفـات التاريـخ والأزمنـة الغابـرة، وبقايـا قصـص حـب قصـيرة مفتوحـة النهايـات عـلى جـراح مؤلمـة.

- لا، أشكرك، لقد أتعبتك، سامحني!

- أنت لم تتعبني والله العظيم، أنا في الخدمة، دائمًا.

قبـل أن يرحـل ابـن العـم، امتـد بـصره إلى أنحـاء الغرفـة، اسـتوقفه صنـدوق البـيرة، سـيكون حديـث القريـة لأسـابيع عديـدة، هـم لا يخجلـون مـن مناقشـة حيـوات الآخريـن، يحاكمونـك دون دفـاع، ويعدمونـك رميًـا باللسـان.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٠-

المكان الثاني من عام الجنون.

بـلا اسـتحياء تقبلـت غـزلي، قـرأت أشـعاري ودسـت بـلا نـدم عـلى قلـبي مـن أجـل رجـل آخـر غـيري.

جعلـت حـبي جـسرًا تعبريـن عليـه بأقـدام الغـدر والخيانـة، وترقصـين رقصـة الأفعـى الهواريـة عـلى حسـن نيـتي وسـذاجتي. آه! لـمَ أتذكـرك؟! يجـب أن أنسـاك.

وحـين يعلـن المـاء كـدره وتتفتـت اللحظـات وتمطـر السـماء رنينًـا مـن هيـام السـنين أعلـن أيضًـا انسـحابي منـك، انسـحابك مـني، ليـس كالخيـوط المـسرودة الـلا معقـودة، بـل كانبـلاج الـروح مـن الجسـد.. أعتقـد أني سـأمطر رحيـلاً مـن إرث الوجـع حبـل بـه غمـام معتـق داخـل براميـل نسـيها الوانـدال بعدمـا قـرروا أن الحـب مجـافٍ للفروسـية. منـافٍ للأخـلاق السـامة.

أكـره أن تكـوني في مخيلـتي، كيـف أتخلـص منـك؟ كيـف أتخلـص مـن هـذا الإدمـان؟

أعـرف كيـف أفعـل ذلـك، لفافـة أخـرى مـن الحشـيش وينتهـي كل شيء، تصبحـين بقـدر ذبابـة، وتصبـح الذبابـة أجمـل منـك، أحدثهـا وتحدثـني ترقـص أمامـي، عفـوًا تراقصـني فأنـا لسـت شرقيًـا. أقبلهـا حـتى كي.. أن.. إذن...

هـل أخطـأت في قـرار العزلـة هـذا؟ إنهـا اللعنـة، أوصـاني جـدي يومًـا بقولـه «النجـاة ليسـت في أن تـأوى إلى الجبـل بـل في أن تركب السـفينة». أنـا فعلـت العكـس، آويـت إلى الجبـل وتركـت السـفينة تبحـر، تركـت الحيـاة تمـضي بـكل مـا تحملـه مـن أزواج، حـزن وفـرح، راحـة وعـذاب، إخـلاص وخيانـة، حـرب وسـلم، خـير وشر.. هـذا مـا كانـت تحملـه

obeikandi.com

السفينة. لكن التاريخ لا يعيد نفسه دائمًا، انتظرت طويلاً كي أولد من جديد وأغيّر حياتي ونمط عيشي دون جدوى، كل يوم يشبه الآخر، لكنه لا يعود، يختلف عنه، في التاريخ نفق ما، هذا غير معقول. إنه ضعف في الزمن، يتقدم دائمًا إلى الأمام كثور إسباني جائع، هائج، (متى سيتخلى الإسبان عن عادتهم السيئة هذه؟!) لذلك آويت إلى الجبل وتراجع الطوفان.

تراجعت قوات العسكر، وتقدمت المسيرة الحمراء التي طالبت بالأرض والماء واللغة والهوية والكرامة.. تقدمت كثيرًا لكن جرعات زائدة من الخيانة والجبن أفشلت كل شيء، وبدأت المحاكمات وانتهينا في السجون.

الطوفان الآن في ذهني فقط، وهو أعتى من أي طوفان، يغرقني كل يوم مائة مرة، تسونامي أتى على خليج قارتي النفسية وأغرق كل السفن والبواخر والمراكب وجرف مقاهي شواطئ سكينتي، وسقاني عصير الخوف من الماضي والحاضر والآتي. أليس طوفانًا أن تواجه جيشًا من الذكريات، مدججًا لا بالأسلحة بل بالاحتمالات، أليس إعصارًا أن تواجه جيشًا من الجمل الطويلة والحزينة، تدعوك لكتابتها أو بمعنى آخر لتقتل نفسك من أجلها.

لا، لم أخطئ في قرار العزلة، لقد ابتعدت عن ماريا لكنها ما زالت تقرع باب ذاكرتي، إنها لا تضغط بحنان على زر الجرس الرنان الذي يهمس بصوت العصفور كأي أنثى من الماضي، أحببتها وتفارقتما بسبب ظروف معينة لم تكن في صالح حبكما، إنها تدق ناقوس الغدر والخيانة والجبن والضعف، لكني لست هنا بسببها فقط، بل من أجل أن أختلي بنفسي وأعيد ترتيب حياتي على نحو عقلاني، هذا ما خططت له في البدء، وما زلت مُصرًّا على خلوتي الجنونية هذه، أليس الجنون هو السبيل إلى الشفاء من عالم كله جنون، آمنت دومًا بأن المجانين عباقرة زمانهم اكتشفوا مباهج

obeikandi.com

التعامل مع عالم آخر من الأشباح والأطياف والأفكار بدل عالمهم المليء بالتفاهات والحماقات، وتخلصوا بسهولة من الضغط اللا معقول الذي واجههم، استرخصوا الوجود العادي وصنعوا لأنفسهم محمية جنون.

ابتعدت عن تارودانت، لكن سورها ما زال يضايقني، ويحاصرني كأني لست خارجه، إنه يمد أصابعه البنية نحو الأعلى كأنه يحاول تخليص نفسه من نفسه هو أيضًا.

ابتعدت عن الناس لكنهم ما زالوا يبحثون عن سبب انعزالي، اتركوني، أريد أن أموت جوعًا في هذه الغرفة، أريد أن تخرج الفئران والسحليات والعناكب والنمل والبراغيث لتقتات على جسدي، على الأقل سأكون مفيدًا هذه المرة.

أينما رحلت بجسدي ترافقني التعاسة، الحل إذن هو أن أرحل عن هذا الجسد، هل أعود لرواية «سجين الهوامش» أختار منها طريقة للابتعاد عن هذا السند المتعب، إنه محمل بالذكريات والقلق والشهوة والألم، وبعد هذا وذلك ينتظره موت محقق، ماذا أختار إذن كي أتخلص منه؟

أبحث عن «الحال» كما تصوره المتصوفة بعيدًا عن الزمان والمكان، أم أبحث عن «حفرة» كناوية وأنادي أسياد الإنس والجان، آشمهاروش، آشمهاروش، آسيدي بوالسبع، آسيدي بوالقنادل، آسيدي عثمان، آسيدي موسى الحمري، آسيدي عبد الله العروي، آللا كريستيفا، آمولاي رولان بارت، آسيدي جاك دريدا.. أهذي، صحيح أهذي، إنه مفعول «الشوكولا المبخر»! الآن فهمت روحانيات جدي التي كانت تبدو لي طقوسًا بدائية، سأفعل مثله تمامًا، أرحل كل سنة لأزور الأولياء السبعة، أبحث عن أحوال وجودية خارج التصنيف، أشرب مياهًا حارة، أمسك الجمر بيدي وأغرز السكاكين في بطني، وعندما أستيقظ أجد أني لم أمت ولم

أحترق، وأن نيتي صافية تجاه الأسياد والملوك.

فعلت ذلك يومًا في موسم عيساوة، أمضيت ثلاثة أيام أزيل أشواك الصبار وألعن مع كل شوكة همجية قومي، حين أحببت رقية ورفضت حبي، انتظرت رقصت وحضَّرت، فرغت في الموسم كل ألمي، أكلت ثمار الصبار بأشواكها، ارتميت فوق أشواك السدر، كنت مهتاجًا أنادي، لا بسم الأولياء بل بسم الحبيبة رقية التي كانت وسط الجمهور النسائي تبكي حالي، وتنتظر أن آكل أكثر حتى تتأكد من مقدار حبي، إنه الحب المستحيل بمعنى الكلمة، الذي يقايضك بجلدة جسمك وغشاء معدتك. لكن الحب لم يكن كافيًا لأرتقي سلم الأحوال، فلم أجرؤ على الاقتراب من الجمر أو شرب الماء الساخن الحار.

لكني تخلصت منها، في تلك الليلة اجتثت حبها من قلبي وكياني، وكلفني الأمر التهام الأشواك ونبات الصبار.

هل كان نقصًا في الشجاعة أني لم أقرب الجمر؟ هذا ما قاله جدي الذي خاب ظنه بحفيده الذي انتظر منه أن يرث جينات عيساوة فإذا به يأكل الصبار من أجل رقية، ولأنها لا تستحق أكثر من ذلك تراجع عن التوحد مع النار والماء.

«ورأيت في عينيك الماء والنار
لم تجرؤ على الاقتراب فتحترق
ولا على الابتعاد فتظمأ».
على حد قول الشاعر الأمازيغي.

obeikandl.com

المكان الثالث من عام الجنون.

فـوضى عارمـة مـن الألـوان والمسـاحيق والأصبـاغ، يغيـب فيهـا كل شيء وتحـضر الفـوضى لوحـة تشـكيلية تُقرئُنـا الغيـاب، كذلـك حيـاتي، تغيـب فيهـا أشـياء وتحـضر أشـياء (لا بـد أن يكتـب أحدنـا) تحـضر حفلات أحـواش، ليـس بالموسـيقى والحـركات، بـل بمـا تخلـق حولهـا مـن جمـال ومتعـة، حنـين إلى الطفولـة أم إلى البسـاطة؟ البيـت القديـم أبوابـه الثقيلـة، المسـامير الغليظـة الـتي تزينـه، إلحـاح ابنـة الخـال عـليّ لـلإسراع بإحضـار تالونـت قبـل أن يتحـرك موكـب الفتيـات الـلائي سـيرقصن، يداهـا مخضبتـان بالحنـاء، تمضـع قـشرة تمـرة الجـوز الـتي تـترك في فمهـا وعـلى شـفتيها ذلـك اللـون البرتقـالي المائـل إلى الحمـرة كلحظـة غـروب، وضعـت عـلى عينيهـا كحـلاً خفيفًـا، مـا دام الكحـل ممنوعًـا عـلى الفتيـات قبـل الـزواج، وتنورتهـا الطويلـة الفضفاضـة ورسـوم الطواويـس عليهـا، شربيلهـا الأحمـر المطـرز بأقـراص الموزونة، خفـة حركتهـا وصفـاء روحهـا، الجمـال المطلـق، يرتسـم في الذاكـرة كلوحـة تخاطـب الـروح لا الجسـد، فقـد كنـت صغـيرًا، بريئًـا لا أرى إلا الجمـال والخـير والحـب والسـعادة، وعندمـا أصبـح لجسـدي معـنى فقـدت هـذه الرؤيـة الـتي لا ألامسـها إلا وأنـا أسـتدعي أماكـن روحيـة كـ«أسـايس» و«دو تورتيـت» و«أسـاكا» و«أفنسـو» عـلى ورق أبيـض مـن أجـل روايـة المـاضي، مـا أثقـل الذاكـرة بالوجـع؟ الجمـال وجـع، الـوادي وجـع، الجبـال وجـع، البيـوت القديمـة وجـع.

قـال لي صديقـي يومًـا: بالنسـبة لي أقفلـت عـلى هـذه المسـائل في قلبي وتابعـت قـدري. أنـا لـم أسـتطع أن أجـد فعـلاً بمسـتوى «أقفلـت» فتابعتـني أقـداري، أجبرتـني عـلى حمـل القلـم، فقـد كان عـلى أحدنـا

أن يكتب، أن يكتب على الأقل قصصًا قصيرة جدًا، بعد أن غاب الجمال وحضر الدمار والألم في لوحة شكّلتها يد الوطن.

كان على أحدنا أن يكتب
كنت أنا قربانًا لهذا الإجبار
يا إله الماء والنار
الجمال إلى موت
الجمال إلى احتضار
يا إله البحر
ارحم الذاكرة بالنسيان
اقرئنا السلام.

وأنا ماذا أفعل بأجزائي؟ أين أخزن أثاثي القديم؟ تلك النكسة هناك وتلك المكنسة، تلك الخسارة المتوسطة وكؤوس الغدر المصفوفة قرب جارور الصداقة، والحب المعلق كالثريا لا ينزل أبدًا لينير جسدي، ألملم بعضي وأضعه في علبة رحيل وأحكم إغلاق الصناديق حتى لا تتحرك في الطريق، فقد تخرج ذكرى متعفنة وترقص رقصة الألم الحر وتوقظ كل مشاعر السخرية المرة التي زينت بيتي الداخلي ذات يوم، حين كنت أرتمي كجورب متسخ قرب سطول الحزن والفقر، وأختبئ في دولاب مظلم تعشش فيه كل الجنيات الشريرات، وحين أكمل جمع أثاثي أرحل دون أن أنظر إلى الوراء، فقط أرحل وحدي دون ذكرياتي لأني سأسير في الاتجاه المعاكس لانطلاق سيارة الماضي.

obeikandl.com

-١٢-

المكان الرابع من عام الجنون

المنطق والعاصفة

أن تشعر بأن الأشياء تتمزق داخلك، وأن الذكريات تتزاحم في قلبك، ولا تستطيع لمها، فهذا ما أسميه بالوحدة، إحساسك برغبة عميقة في الكتابة دون أن تعرف بالضبط ما الذي ستكتبه، ولا آفاق هذه الرغبة، تريد أن تكتب بكلمات عادية أشياء غير عادية، لكن هذا يجعلك غريبًا في مجتمع يهوى فعل الرغبات غير العادية، لا أحس بأني غريب فأنا منسجم مع عالمي، هناك أشخاص غرباء، يسمون أنفسهم أصدقاء، يحاولون فهمي وهذا يزعجني، لأنهم غريبو الأطوار، يقومون بأشياء تافهة، كأن يبتسموا في وجهي أو يبكوا إذا كانوا شديدي الحساسية، معتقدين أنهم سيسعدونني بحركاتهم، كل ما أريد هو أن يتركوني وعالمي.

لهذا رحلت إلى هذه القرية التي تبعد 196 كلم عن تارودانت، أردت أن أتخلص من الذكريات التي تقض مضجعي، أو ربما أردت أن أتذكر كل شيء كي أنتهي منه.

«التذكار شكل من أشكال اللقاء

النسيان شكل من أشكال الحرية».

هذا ما قاله صاحب «النبي» نعم، وقال أيضًا إن «بين الخيال والإنسان وإدراكه مسافة لا يجتازها سوى حنينه».

الحنين، الحنين، الحنين، إن ما يكوّن الإنسان هو حنينه، فإن كنت لا تحس بالحنين فأنت إنسان فارغ، قابل لأن يشحن كالبطارية ببطاقات فانية، أما الحنين فيجعلك كالشمس طاقة متجددة، أحب أن أكون شمسًا، لم أر الشمس منذ ثلاثة أيام،

ذلك أنها تجعل الأحاسيس يابسة، وأنا أردت أن يبقى كل شيء طريًا حتى أستطيع عجنه وصنعه ونحته كما أشتهي.

جاءت عجوز تدق باب بيتي، قالت إنها خالة أمي، متكئة على عكاز، لم يبق في فمها سوى ضرسين أو ثلاثة، جاءت هي أيضًا لتحكي، جاءت لتعاتبني على عدم زيارتي لها. في أول يوم لحضوري إلى القرية، تقول إن إرثي ما زال محفوظًا وعليّ الاهتمام به كما اهتم به أجدادي، الأشجار والبساتين وحصتي في ماء العين.

- أي إرث أيتها الجدة العزيزة؟

- أرضك وترابك، هل صدقت أن الماء قد غمرها؟ إنهم يكذبون، لا يوجد سد ولا هم يحزنون، لا تثق في أبناء العم هكذا هم الـ... يريدون الاستيلاء على كل شبر من الأرض، وكل قطرة من الماء، وكل حبة من ثمار الأركان.

- أنا لا أريد شيئًا، المهم أن يهتموا بالأرض.

- صحيح، ولكن يقال إن الجميع باع أرضه ورحل إلى المدينة.

لم أستطع سماع المزيد من كلام العجوز الخرفة، هي تحكي خارج زمانها، سايرتها في حديثها عن الأرض والماء ومكائد أبناء الأعمام، ورؤوس الماشية وحصص الماء، إلى أن أتت حفيدتها وأعادتها إلى البيت، حفيدة لا يتجاوز عمرها ثلاثة عشر سنة ولكن مثلي، تهذي باسم الحكايا القديمة، ألف عجوز تسكنني، وأنا أتذكر، أقراني تابعوا حياتهم العادية كأن شيئًا لم يحدث، في البداية نظمنا الاحتجاجات، انخرطنا في الأحزاب والجبهات للدفاع عن حقوقنا، مع مرور الوقت بدأت هذه التنظيمات تنهار وبدأ الاستسلام يتسلل إلى النفوس، وانتهى كل شيء وبدأنا نأكل أنفسنا، يتهم بعضنا بعضًا بالتواطؤ مع السلطة وجاءت الانتخابات وأفاضت الكأس. وكان لصوت الجهل وزن أثقل من صوت العلم، لا يمكن أن تنفلت من قبضة الوطن، إنه جبار عنيد.

obeikandi.com

إن الزمن كفيل بكل شيء، لذلك أكرهه. أصبح الشباب يلتقون في أماكن معينة في الدوار، يثرثرون قليلاً، يستعملون لغة الاحتجاج واليسار القديمة، رغم أن بعضهم انكمش وأطلق العنان للحيته، يفرغون ما في جعبتهم، والغريب أن ما في جعبتهم لا يبرح المكان، كأنهم يلفظون أشياء تثقل كواهلهم، يتخلصون منها في اجتماعات كهذه.

إنهم فاشلون، مجموعة من البشر كانوا يومًا ما مناضلين في صفوف يسارية، منهم من تكلّس وبقي وفيًا -رغم أن الأمر لا يتعلق بالوفاء- لطروحات قومية أكد التاريخ خواءها وبعضهم يغيّر قمصانه حسب مصلحته الخاصة وتقلبات السوق السياسية، ومنهم من واصل ما يسميه نضالاً في هيئات نقابية تطالب بخفض ثمن الزيت والخبز ومنهم.. ومنهم.

أصبحوا كالمستحثات، متحجرين على أفكار تجاوزها الدهر في أشكال خطابية بالية، أحيانًا تبدو كلمات كالحماس، الجماهير الشعبية، الفقراء، البروليتاريا، النضال.. كراكيز سيئة التصميم والخياطة، وحتى لو كان مصممها بارعًا فإنها تعرض في مسارح غير مناسبة كالمقاهي والحانات.

مضى ذلك العهد، حين كان إصدار بيان من صفحة واحدة يلهب حماس الناس ويحرك المسيرات والمظاهرات ويقض مضجع السلطة، الآن أصبحت الأصوات من داخل السلطة تطالب بإصلاح الأحزاب والنقابات علّنا نجد التوازن.

إنه وطن مشوّه الملامح، لا شيء فيه حقيقي، أناسه أنفسهم مزورون كاذبون.

obeikandl.com

-١٣-

المكان الخامس من عام الجنون

ليلة بيضاء منذورة للأحلام المزورة بعينين مفتوحتين على الأرق الداكن، الذي يرقد بجانب قطة القرية الحامل، وهي متعبة من البحث عن دفء تضع فيه صغارها، ونسمات صباح متأخر يجر وراءه عربة جارنا، الخضار الذي يُعِد صناديق التعب، وبومة تستعد للنوم مثلي مضادة لقوانين الفرح. طائرة تحلق بعيدًا يظهر منها مصباح أحمر يُنذِر بالبعد والحنين وأشياء أخرى تنفلت من الذاكرة وتحيا قرب حشرات الليل وهي تعود إلى غيرانها وأنا أحمل رموشي المرهقة وأنسحب إلى الشعر، أقرأ ما تبقى من عوالق نجيب سرور والريف المصري وأسلم على أول المستيقظين.

لا أحتاج أن أكون شيئًا آخر غير نفسي، هذا قرار اتخذته بأفكار عادية وليس باندفاعات آنية، لكن تنفيذه رابع المستحيلات، فيجب أن أكون متيقنًا من أن قلبي لن يخونني. وحدتي هي مسلك عزلة وفاعل هو أنا. لماذا أقول إنه رابع المستحيلات؟ إني أقضي على مخططي وأحكم عليه بالفشل، لذلك أصبح كابوسًا يطاردني كل ليلة ألا أحتاج قناعًا أخفي فيه وجهي، أو بمعنى أصح أختفي وراءه، لا، أريد أن يكون لي وجه واحد غير مصطنع أتعامل به حتى مع نفسي، سأكون قاسيًا ولن أسمح لأي شبه جملة أن تحطمني، ولا لأي جملة اعتراضية أن تعترض طريقي بدعوى التخصيص أو الشرح.

راقبتها جيدًا، كانت عصبية قليلاً، لم تتحمل هول ما ستفعله بقلبي، لم تصدق ما يحدث حولها، كانت تفكر بعقلانية وحزم وأيضًا بكل جرأة، لكني لاحظت بساطة تفكيرها، تنبأت بكل ما

ستقوله، ولم أكلف قلبي جهد الاحتفاظ بحق الرد، أو حتى تنظيفه مما علق به من أوحال، أجبتها بصدق، وهذا شيء آخر، اعتقدت أن الحب هو ذلك الطائر المغرد الذي يحلق فوق رؤوسنا ونحن نتبادل تلك النظرات المليئة بالحنان، وتلك القبلات المسروقة من بحر الأوجاع، في شاطئ تمراغت، تغازوت، أماديل.. في تلك اللحظات المفعمة بالأمل، لم أندم على حبي لها، فقد أحببتها لدرجة أصبح معها الحب طاقة تحيط بي، وربما هي كانت موضوعًا مفارقًا. لا علاقة لها بكل الانفعالات الدخيلة، وجملتها الاعتراضية التي حوّلت مجرى النهر هي: أنير طال فراقنا؟! جملة استفهامية وتعجبية، سؤال وجواب، إنهاء تحصيل حاصل، وربما كانت أمنية أو قرارًا استسلمت بعدها، قواي الإقناعية تراجعت، في اليوم الذي عرفت فيه معنى اللا جدوى من الكلام، لذلك لم أجادلها، ولم أناقش تسريحتها الجديدة، وماكياجها الحداثي.

تركتها تقول كل شيء بإشاراتها، المدة التي قضيناها معًا خلقت بيننا لغة مشتركة لا يفهمها غيرنا، وشفرات لا يحفظها غير قلبينا، لا نحتاج إلى كلام كثير لنقول انتهى كل شيء، يكفي أن يُدخل أحدنا كود النهاية، والبحث عن السبب من باب العبث، فالفراق سبب ونتيجة، مشكلة وحل، بل نقطة بداية ونهاية في نفس الوقت.

هناك أناس آخرون يحبونني ولا أكترث لهم، وهذا خطأ فادح، فقلبي يستطيع أن يعطي الكثير من الحب. بالانفتاح على الآخرين أستطيع أن أعيش محاطًا بالمشاعر الإيجابية والأحاسيس العادية النقية التي لا يمتلكها إلا الناس البسطاء، ذلك النوع من التواصل والارتياح الذي ينساب إلى دواخل المرء حين يتعامل مع الآخرين، أما الانغلاق على الذات والانكماش فهو من شيم الحلازين، قوقعة الحلزون لا تُظهر ما بداخلها إلا عندما تتكسر. فالحلزون هو ذلك الجار البخيل الذي لا يعرف أحد شكل منزله وليس لديه

غرفة ضيوف.

أليس جميلاً أن تقول لك امراة بكل أناقتها انتهى كل شيء وإن لها مخططات أخرى مختلفة عن مساراتك، وإنها اكتشفت بزيارة قصيرة إلى طنجة، أنها تعيش وهم الحب معك، والأمرّ من هذا أن يكون لها مشاريع مغايرة؟ ماذا تفعل في موقف كهذا؟ ألن تكون صرار أقبية تخالط حشرات مجاري المياه العادمة؟ ألن تكون جملة تستعصي على الإعراب؟ ألن تكون خنزيرًا نتنًا في حظيرة المستعمرين، وستكون أيضًا رجلاً خانته المواقف؟ هل تجرؤ على طرح سؤال لماذا؟ أكيد ستخونك الأسئلة أيضًا، فحين تتحالف ضدك المواقف والأسئلة تكون أبكم أصم غير قادر على الانفعال، تبقى جامدًا وتتقبل دون شعور بالغثيان قرار لجنة الحب ورسائل طنجة التي لم يأتِ بها حمام زاجل، بل جاءت على جسد امرأة. امرأة كالإدارة ترتدي الأزرق وتتأبط المشاريع في ملفات خضراء بمساكات رفيعة الذوق، هي التي تصمم كل شيء من الشعار إلى شكل الأقلام إلى نوع الأوراق، هي السكرتيرة الدقيقة العمل التي تهتم بكل تفاصيل العمل وبعض خصوصيات سيد العمل، هي إذن بنظارات سميكة تزيد جمالها جمال المرأة العملية التي تحس بمسؤولية كبيرة وتأنيب ضمير إن هي لم تستطع اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب ليرضى عنها المدير. هي إذن بحركات محسوبة على قدر تنورتها المستقيمة المخططة، وحذائها الأسود اللامع، كل مواعيدها مضبوطة، كل ملفاتها جاهزة، كل دراسات المشاريع مكتملة. هي المرأة التي تزيد فوق كل هذا الضبط والحضور ابتسامة رقيقة، تنهي بها ملحمة المرأة العملية.

ستة أيام في غرفة قديمة، ملأى بالذكريات الحزينة، دخلت أعناق المضاءة والمظلمة.

obeikandl.com

-١٤-

بعد أن كانت القرية مستلقية في حضن الجبل أصبحت مرمية بين جبلين في فج ضيق لا يسع أحزانها ولا أعراسها، انشغل الكل بالبناء وإعداد المساكن بالطوب والحجر وكل ما توفر من مواد محلية لا طاقة لهم بجلب الأسمنت والحديد، هكذا هي الأوطان تنهض من تحت الركام والتراب لتبني نفسها من جديد، هي كالجمرة لا تنطفئ تمامًا، بل تنتظر فرصة الاشتعال.

ابن العم يا ابن العم.. ماذا هناك؟

نفس السيارة السوداء الفخمة تأتي على الأقل مرتين كل أسبوع، لا يعيرها الناس اهتمامًا فقد ألفوا هذا النوع من السيارات مذ أصبحت القرية بؤرة حمراء أو بقعة سوداء في نظرهم، البعض يجري بحوثًا عن زيت الأركان والبعض الآخر يأتي ليأخذ شهادة نضاله المزورة وهو يلتقط صورًا مع بقايا الدمار ويجري أحاديث مع العجائز، صحيح أنهم يتأثرون بحكايات النسوة عن أعوام الترحيل لكن أحاسيسهم رخيصة محدودة باللحظة. وكل المناضلات ينسون بعد عودتهن لفيلاتهن الفارهة ما شاهدنه ذلك اليوم بل وقد يستعينون بطبيب نفسي أو مدرب يوجا ليبعدوا عنهم تلك الحكايا المؤلمة والمضجرة، وليهربوا من هول الصور التي تتفوه بها الكادحات من بنات الدور وكل عذاباتهن مع العمل داخل الضيعات المجاورة وهجرتهن إلى الدار البيضاء كخادمات في البيوت.

جاء ابن العم ليخبرني عن السيارة، سرحت بذهني قليلاً، هذا القليل بالنسبة لي قد يمتد ساعة زمن كالعادة، علاقتي به كانت لا تُناقش، هو ابن عمي، أخي وصديقي، وكل شيء في القرية مرتبط به؛ هو عيني على القرية بعد أن رحلت من أجل الدراسة. بقي هو

Obeikandi.com

مثالاً لذلك الرجل البدوي الذي درس إلى المتوسط واكتفى بذلك المستوى ولكن درجة وعيه بالواقع السياسي أكبر من مستوى دراسته، هو يقول إن ذلك بسبب معاشرته لي طوال مكوثي في القرية وأنا أقول إن أزمة السد الملعون جعلت الناس في احتكاك مباشر مع الوعي النضالي دون حاجة لمعلم.

هو ملجئي من غدر الأصدقاء داخل أو خارج القرية، فهو الشخص الذي يجري في دمه بعض من دمي ولم يكن يخطر بباله يومًا ما أن يغدر بي أو يطعنني سواء في القضايا الكبرى أو في شؤون بنات القرية وشبكة العلاقات التي كان يديرها باحترافية كبيرة، وكيف لا هو الشهم الذي يمتلك أخلاق أهل البادية وأخلاق المتعلمين في المدينة؟

يا ابن العم عادت السيارة من جديد وبها امرأة جميلة تصلح لـ...

أعرف لكن دعني فأنا أتذكر.

غدر الأصدقاء يجعلك تحس بألم في المعدة، يستمر الألم لأيام وينتهي تاركًا أثرًا لجرح عميق أثّر في المعدة والذاكرة، يذكرك بأن معارفك الجدد الذين يسعون ليكونوا أصدقاء طيبين أو تسعى أنت لتكون صديقًا مخلصًا لهم قد ينتهون أثرًا لجرح قديم، فلا تستعجل تصنيفهم في عمق قلبك، كلما كانوا في مكان أعمق كان الجرح أعمق وكان الأثر أبرز وكان الألم أشد.

ولكن غدر الحبيب يجعلك تعكف على شعر المتنبي خصوصًا مع شرح الواحدي، ليأخذك بعيدًا في دنيا اللغة والفلسفة.

هذا ما فعلته بالضبط، انكببت على شعر المتنبي.

وأتذكر..

حين كنت مراهقًا في الثانوية ارتبطت عندي كل فتاة بشاعر، سكينة بدرويش ونعيمة بنزار. فبعد كل أزمة قلبية أبحث عن قصائد أدفن

obeikandi.com

فيها حـزني وخيبـة أمـلي، وأحيانًـا أدفـن فيهـا الأنـثى ككل وأرحل.

وأتذكر..

حـب، تسـع برتقـالات وسـلة مهمـلات، وصبيـة يلعبـون «دينيفـري» وسـط الحومـة مقابـل الفـران تمامًـا، وفتيـات منفوشـات الشـعر يركضن في لعبـة «السـقيطات» ويلتقطـن سـدادات القنينـات الحمـراء. لم يكبرن في عيـني إلا بعـد أن دخـل الحلبـة شـباب الحومـات المجـاورة. أي معـنى للمعـنى صحبـة أجسـاد بـلا شـهوة. كـن أكـبر سـنًا وأكـثر جـرأة. وأنـا لا أدري حينهـا مـا حـدث ومـا لـم يحـدث، انتهـى الأمـر فقـط بـ: لا تخـبر أحـدًا وإلا...

وأتذكر..

أن كل بنـات الثانويـة كـن جميـلات تكفيهـن قصيـدة واحـدة مـن سـطرين لينظـرن في أمـرك، ولأنـه تـم اسـتنفاد أغلـب قصائـد نـزار قـررت الرجـوع إلى زمـن الفروسـية، الشـعر الجاهـلي والأمـوي مبتعـدًا عـن حسـية الشـعر الأندلسـي، أغـير مـن الـوزن والقافيـة حـتى يسـتقيم المعـنى معـاصرًا حديثًـا، وكـم أسـعد حـين أجـد اسـم نفـس الفتـاة في القصيـدة! فـلا أحتـاج أو أضطـر إلى الاعتـداء عـلى القريـض، فأقـول لهنـد يـا هنـد ولسـلمى يـا سـلمى.

وأتذكر..

أو لأتوقف عن التذكر.

obeikandi.com

obeikandl.com

-١٥-

السيارة السوداء نفسها تعود من جديد، تنزل منها امرأة، ترتدي بنطلونًا جينزًا أسود، جاكيتة سوداء مزخرفة بخرزات ملونة براقة، حين تسقط عليها أشعة الشمس تظهر لك المرأة نجمة من النجوم أو قطعة بلور ملون، حذاء أحمر يُذكّر بسندريلا الأحلام البنفسجية، امرأة خرجت للتو من حكايا ألف ليلة وليلة، ليست حكايا الرعب الأنثوي بل الأميري الحالم. تنزل بخفة من السيارة في حركة تذكر بنزول أنجلينا جولي عن الدرج في فيلم «مستر آند مسز سميث». في لقطة أبهرت هوليود وأربكت براد بيت الذي تزوجها بعد ذلك مباشرة ربما، هل هذا ممكن؟ يالتفاصيل النساء! حركة محسوبة المقاس، الابتسامة بين الإغراء والاحتفاء، أصابع اليد في وضعية مقصودة ترفعها إلى الأعلى كراقصة تايلاندية تجيد الدوران وفق زمن بطيء، كأنها ريشة يديرها الهواء تارة وتديره تارة أخرى.

يهرول الرجل السائق ليعين المرأة على النزول ممسكًا يدها، تلك الأصابع إذن كانت تناديني، تضع بسرعة النظارات الشمسية باليد اليسرى، نظارات عريضة من دولتشي تغطي معظم الوجه، إنها لا تغطيه بل تضع له إطارًا يجعل نظرك يركز على الفم والشعر المنسدل بدل العينين، وهي حيلة نسائية تلجأ إليها المرأة المتوسطة الجمال لتخفي عينيها وتجعل الناظر يسرح بين الشفتين بدل العينين.

إنها هي..

ماريا..

تحركت مياه السد استنكارًا غضبًا لا احتفاء، السد تحول بركانًا، اشتعل في ثانية، عيناي استحالتا قطعتا زجاج، في حلقي غصة لن

يذيبها ماء النار لو شربته، وسأشربه في لحظة كهذه، أحشائي المتوترة تغرغر في عنف، تحاول لفظ شيء ما، ربما هو آخر جذر للحب يُجتث من قلبي، أو هو آخر بيت شعر يُمحى من ذاكرتي، بل شجرة الحب كلها تنقلع والشعر كله يتفجر في محيط الظلمات، قواف وقُبَل مبعثرة ولكن متواترة كالمصائب. هل أصرخ؟ لا، لا تصرخ؛ هي لن تسمعك؛ هي بعيدة في الأعلى في قمة الجبل وأنت تحت في فج بين جبلين مع تلة من الأصدقاء قرب المسجد تتحادثون في أمر الماء الصالح للشرب. هي لن تسمعك؛ لسانك متصلب وحروفك ليست إنسانية، اللغة المعتادة هجرتك، اليوم لن تسحب عينيها بنظراتك ولن تستجلب سمعها بهمساتك، إنها تضع نظارات دولتشي وآذانها ورقية الصنع، لا تصرخ، الصراخ -يا ضبع- لن يفيدك، إن أهدابها لا ترف كما في السابق، انظر إليها إنها تحملق في الجبال حملقة دمية بلاستيكية صينية الصنع.

ذلك وأنه حين تصادفني صدمة كهربائية كهذة خصوصًا وهي تجلب معها ذكريات حقيقية أتجه بطلبي إلى الشعر؛ إنه الوحيد الذي يبدو أحنّ عليّ من السرد، فليعذرني قارئي الكريم على انقطاع السرد وليأخذ بعين الاعتبار قوة الصدمة الموازية لحركة عاطفية مرتبطة بالرواية والواقع الحقيقي.

وفي غياب الأصدقاء الذين سبق أن حكيت لكم غدرهم بي، ولانشغال ابن العم بأمور الرعي والماشية وحصص الماء.

وفي ازدحام الأصوات التي تنادي بقرب النهاية، أتوقف.

وأقول لكم الريشة انكسرت والدواة فرغت.

لن تصدقوني، إذن لنقل إن الملامس وذاكرة الحاسوب تعطلت.

أو لنقل مع شاعرنا المعاصر شهاب غانم:

«إنني أدنو من الخط الأخير

أنا في الصهوة مكتوف الذراعين.. وشهبائي تطير

وبوجهي تعصف الريح

وللريح صفير».

كنت أدري أن الشعر منطلقي وموصلي، كنت أدري أن فن التسوق من دكان الكلام الموزون واللا موزون هواية أحسنتها منذ الثانوية، فهو الذي ينتشلني بحنان من براثن القسوة والظلم، ولكن لم أكن أدري أن ماريا مهندسة الديكور قد تبيعني وتبيع قضيتي. ليس حبي الذي مات، فقد دفنته منذ زمن في مقبرة النسيان، ولكن اليوم جينات ومستقبلات الحب تسرطنت، فلا طبيب عشق يداويها ولا أشعة فوق جمالية الإنسان قد تحد تسرطنها، إنها تستمر في التكاثر، في النمو، ولا يحدّها لغو صديق ولا حكي جدة ولا ثقة ابن العم. سقطت أقنعة السرد وظهرت الحقيقة.

ماريا تكسرت فتيت زجاج تساقط كأوراق الخريف، كالكلمات المهجورة في القواميس.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٦-

أنا لك بالمرصاد، فوطني أغلى منك ألف مرة ومرتين، خذي حزنك وارحلي فأنا أدرى منك بنفسك ماريا، ومشروعك فاشل لا محالة إلا على جثتي.

هذا ما قلته في نفسي حينها وتصرفت بقوة أملاها منطق الدفاع عن قريتي. الدفاع. إن فكرة النضال توسع شراييني وتستحث قوى الحماس في جسدي، أحسّني كتلة من الصخر والحجر مستعدة للتدحرج، للفتك بقوى الذل والاستغلال، أحسّني شمسًا من القيم تعمي مدارات الظلام، من أين لي كل هذا النبل؟ أمن الظلم المقبل على القرية كغراب، أم من رائحة الجبال المحيطة بها؟ أملأ رئتي ببخور سري يقدّمه لي الجبل الأقرب إليّ الآن، هو تواطؤ مخفي واتفاق بيني وبينه. كما يشتم البعض رائحة البحر وطحالبه أشم أنا رائحة الجبال بنباتات الشيح التي تغلفه، أحبس في صدري كتلة هائلة من الهواء كاحتياط أعود إليه في غربتي وابتعادي، لكن الجبل دائمًا في قلبي. أحب طيور الحجل البنية، تشبه الدجاج في بنيتها وريشها، انتبهت أخيرًا إلى فصول الاختلاف بيننا، هي كانت تحب النوارس والبجع وأنا أحب الحجل والحمام والدوري الصغير.

كانت رحلة قنص الحجل من أمتع طقوس القرية. نخرج في جمع من الشبان بعد منتصف الليل حين تكون الحجلة نائمة محتضنة صغارها بحنان في عشها الأرضي، الجميع يحمل كشاف ضوء في يده، فالضوء يعميها ويمنعها من رؤية الأشياء ليلاً. كان القنص بعصيّ خشبية تضرب بها الحجلة عن قرب بعد تسليط الضوء عليها مباشرة بقوة وبخفة، يجب على القناص الاقتراب من العش في صمت جنائزي كي لا تحس به. يهوي عليها ضربًا بالعصا. مقتنعًا

أن عشـاء الغـد قـد ضمـن وأن الحجلـة مـن قبيلـة الدجـاج سـتطعم الأسرة الجائعـة.

مـن أمتـع طقـوس الشـباب، لكـن المهـووس بالأسـئلة مثـلي المحـروم مـن نعمـة التغـاضي عـن الأمـور، مـا كان ليسـتمتع في صمـت، كنـت أبحـث عـن صغـار الحجلـة، هـي تفرقهـم في آخـر لحظـة في حركة أسرع مـن الـبرق وتجعلهـم يختفـون عـن الأنظـار. كانـت تعـرف أن اجتماعهم في وقـت الحـرب مهلـك لهـم، كأنهـا تقـول لهـم ادخلـوا مـن أبـواب متفرقـة كي لا يقتلكـم بنـو البـشر الجائعـين، القنـص لـم يكـن ترفًـا، بـل كان ضرورة، الطبيعـة تفـرض نفسـها علينـا.

- لن تجدهم أبدًا. (قال ابن العم).

- لونهـم كلـون الـتراب وسـكونهم كسـكون المـوت، لـن يتحركـوا مـا دام الضجيـج حولهـم.

- عجيب أمر الحجلة، تدافع عن صغارها حتى آخر لحظة.

- إنها أم.

- أنير هل ننقطع عن قنص الحجل ربما هذا يؤلمك.

قالهـا السـعيد في لـؤم واضـح وأتبـع كلامـه بضحكـة مجلجلـة، لـم يضحـك غـيره لكنـه اسـتمر في كلامـه.

- أنـير لـم تصطـد أي طائـر اليـوم، ربمـا عصيـدة الـذرة غـذاء جيـد لرهافـة الحـس.

يوجــه كشــاف الضــوء نحــوي ليتأكــد مــن تعابــير وجهــي، ولكــني كنــت كالصنــم لا يُقــرأ شيء في ملامحــي، أضــع هــذا القنــاع حــين لا أحـب التعليـق عـلى سخرية أحدهـم وحـين أرفـض الدخـول في جـدال كلاميّ مـع الشـباب. توجيـه كشـاف ضـوء في وجـه أحدهـم في القريـة خصوصًـا إن كان ذلـك أمـام جمـع مـن النـاس، فتلـك وقاحـة غـير مقبولـة بـين الشـباب، خصوصًـا أنهـم يسـتغلون بقـع الظـلام لسـحب

نفحات الحشيش، وأغراض أخرى. ولذلك تجد أن الكبار -الآباء على الخصوص- تتقوى لديهم حاسة السمع، فهي التي تعينهم على تحديد مكان أبنائهم أثناء البحث عنهم ليلاً.

- أنير لن يكون قرويًا جلفًا مثلك يا السعيد، تنتظره المدارس الكبرى، سيكون من الحكمة أن تتدرب أنت على اقتناص الحجل، فربما لن تجد شيئًا تأكله ما لم تخرج ليلاً كقط البراري وكثعلب الجبال الهزيل.

رد عليه ابن العم الذي تحركت فيه دماء العائلة كالعادة ونصّب نفسه مدافعًا عني، كثيرًا ما يفعل ذلك، بل دائمًا. لذلك ربما كانت له تلك المكانة المتميزة في قلبي. تركتهما يتجادلان في عنف ويتضاحكان في سخرية، يقهقهان أحيانًا كأن مسرحية هزلية تعرض أمامهما في هذا الليل الحالك. من قال إننا لا نحتاج إلى نظام القبيلة؟ أليست هي التي تحتضن الفرد في حنان وتمنع عنه طغيان الآخر؟

جمعت حفنة صغيرة من الحصى والأعشاب اليابسة ونثرتها عليهما فازدادا ضحكًا، حتى أمسك السعيد بطنه الضامرة من شدة الضحك.

- هل قلت ثعلب الجبل الجائع؟

- الله يجازيك يا السعيد! وأنت قلت إني كلب الجيران الذي يخرج أحمر الشفاه من بين رجليه.

تعالى صوتهما في سكون الليل المطبق والقرية هناك قرب الجبل تنام في عمق، أتخيل كل منزل فيها كيف يعيش أهله، أين ينامون، ومتى سيستيقظون بالضبط.

- اقترب يا أنير وخذ لك نَفَسًا، لا تبالي بالحجلة التي ضاعت منا، غدًا نمسك بها، على الأقل عرفنا أين تضع أعشاشها.

- لا رغبة لي بالسجائر، بالصحة والراحة.
- لكنها ليست سجائر عادية إنها سجائر منتصف الليل.

بـدءا موجـة جديـدة مـن الضحـك والـصراخ انخرطـتُ فيهـا أنـا أيضًـا، كأنهـا عـدوى انتـشرت بيننـا. عـدوى الضحـك والثرثـرة والسـجائر، حـتى كاد النـوم يغلبنـا وسـط الغابـة. تناهـى إلى سـمعنا صـوت فقيـه القريـة يسـتعد لآذان الفجـر بقـراءة أدعيـة وأوراد في بـوق المسـجد، بعدهـا انقطـع صوتـه برهـة مـن الزمـن فانطلـق مـن جديـد بـأذان الصبـح بصـوت قـوي.

- الصلاة خير من النوم.

هكـذا تمـر ليـالي القنـص بـين نـوم ثقيـل وسـيجارة وإغفـاءة وثرثـرة وضحـك مـدوٍّ حـتى الفجـر، لا ينبهنـا إلا صـوت الفقيـه الـذي نتخيلـه غاضبًـا منـا، ينظـر إلينـا بنظرتـه الأسـدية، وإلا كيـف نفـسّر وصـول صوتـه إلينـا ونحـن في وسـط الغـاب بعيـدًا عـن الـدوار؟ ربمـا بسـبب ارتفـاع القريـة والمئذنـة ينتـشر الصـوت في الأرجـاء، ولكـن الأكيـد أن السـبب مخـزون العقـاب الـذي ارتبـط لدينـا بالفقيـه فأصبحنـا نسـمع صوتـه في حلنـا وترحالنـا، يقظتنـا ومنامنـا، كنـا نخـاف منـه ونحبـه في نفـس الوقـت، أنـا عـن نفـسي مـا زلـت أقبّـل يـده بحـب لا مجاملـة فيـه. هـو سـيد مهرجانـات حفـظ القـرآن وحفـلات العقيقـة والأعـراس، وحـتى الجنائـز والقبـور هـو سـيدها. يسـتغل كل لحظـة تجمُّـع للدعـوة إلى اللـه، خصوصًـا عنـد دفـن ميـت، تلـك كانـت لحظتـه الأبـرز، كأنـه يقـول أليـس هـذا مـا نبّهتكـم إليـه، يكـون حينهـا سـيد الموقـف وملـك الكلمـات الـتي تنبـع مـن صـدره لتدخـل صـدور الحاضريـن الخائفـين مـن حـضرة المـوت. تلـك كانـت حفلتـه وأوجّ انشراحـه، لا أدري لمـاذا يكـون الفقيـه قويًـا رفقـة المـوت!

يـا إمـام، بي نازلـة لـم تـرد في كتـب الفقهـاء ولا سـير البلغـاء، لا حـد لهـا عـلى أعتـاب الفهـارس، ولا مثـل لهـا في الهوامـش، أفتـني في

سبع نوارس وموج ينساب عبر حروفي يحطمها فتيت لغة محكومة بالحياة حصرًا على أنقاض طليطلة وعلى قوافي طلليات امرئ القيس، موج يهرسني كبندقة وقعت بين فكي سنجاب متكبر يكسرها كي لا تُنبت في عشه سلالة الوله، ويصورني كبوم محكوم بالحزن المؤبد أحكي للمارين قصتها، هي وهو، وهي وهو، وهو وهو.. ساعة من كل دقيقة تمر، ولأن اليوم بضع وعشرون ألفًا من الساعات فأنا أحصي إرثًا ثقيلاً من النكسات. فأفتني يا إمام في سقف يبوح بحبه للباحة وحائط يهوى الساحة وسطيحة تنوح من هول ما سيحدث. أفتني يا إمام، لا قياس ولا اجتهاد، كومة من الخراب وسؤال يضيق من فرط ما رأى، فأنا كلغتي مهووس بعلامات الترقيع المعلقة في الفراغ من شدة الفزع.

أفتني في سبع سنبلات زرق هجرهن الحُب والحَب، تركهن القمح وراح يلهو رفقة شقائق النعمان، ونخلات في زاكورة يرميننا بالفقر لا بالتمر، أفتني في تسع أرامل لفظهن الوطن تحت قنطرة وهن يودعن أزواجهن الشهداء دون مراسم دفن، أفتني في خمس نحلات يعفن حبوب اللقاح، بخلاً يخزنّ العسل ويصنعن العفن، أفتني في غجرية تصوم الدهر وقروية ترقص في الحانات، أفتني أتوسل إليك أفتني في شهريار يحكي خوفًا من شهرزاد.

obeikandl.com

obeikandl.com

-١٧-

كل هـذا التاريـخ يمـلأ شرايـيـني ويدفعـني للدفـاع حـتى المـوت عـن قريتنـا، هـذا التاريخ هـو مـا يمـلأ حناجرنـا بالشـعارات في المظاهـرات، ويمـلأ أخيلتنـا في المعتقـلات، ويقـوي عزيمتنـا أمـام المحققـين الذيـن يمتهنـون شراء الذمـم بعـد أن يفشـل مخطـط التعذيـب والجلـد.

أتجـه صـوب الجبـل، إذن أشـتم رائحتـه، ينظـر نحـوي ابـن العـم في خـوف وترقـب.

- أعـرف هـذه النظـرات، أنـت تسـتعد لحـرب، مـن تكـون تلـك المـرأة أنير ؟

أنـير أيهـا الجبـل، أنـير أيهـا البـاب الخشـبي الثقيـل ذا المسـامير الغليظـة، تنبـع منـك رائحـة العرعـار تلمـع في عينيـك أوراق أشـجار الجـوز ومياه العـين. تـبرق في عينيـك معـاني النضـال المقـدس وتحـترق في داخلـك جـوازات السـفر، أنـت تسـتعد لـكل وجهـة ومعـبر.

- أعـرف هـذه النظـرات ونحـن معـك. يكفـي أن تعـزف سـمفونيتك لتجـد جنـودك مصطفّـين أمامـك يـا جـنرال.

هـي ربمـا قضيـتي وحـدي يـا ابـن العـم، هنـا اختلـط الحـب بالـدم، هنـا مـدارات الـشرف والمـاء. هـل أعـزف سـمفونية سـاحة الوغـى أم ترانيـم العشـق الهـارب مـن وراء الجـدران.

قبل سطور اكتشفت ثورتي وزلزلة الصفحة المرافقة لها.

قبـل سـطور عرفـت أني رجـل القلـم الـذي تـراءى لجـدي رفقـة سـكرات المـوت.

هـا أنـا ذا إذن قلـبي للوطـن، قلـبي لـتراب الوطـن. حساسـية مفرطـة ضـد انحنـاء الكرامـة وركـوع العـزة.

مـا زلـت أحفـظ شـعر أيـوب مديـان عـن ظهـر قلـب، الشـاعر الـذي

obeikandi.com

كان يكتب كأنه ينحت، كان ينجح دومًا في التعبير عما أريده بجمل قوية كالأسمنت المسلح بالمجاز.

يقول:

والضوء يثقب ليل بلادي
بيننا محارٌ
وحيتان البحر الراقصة
على مسرح الأطلسي
تتشبث بعروق اليابسة
تتشبث بليل بلادي
أخضر..
كشجرات الأركان العابسة
بيننا صوت المدى
سحيقًا في هوائنا الملغوم
كالردى أو كنار الله الموقدة
أوقدوا لنا النجوم
أوقدوا لنا سراج بلادنا
أخضر أبديّ كالربيع
ولا توجعوا جسد الرضيع
لا ترموا النار في الهزيع
فإن الفجر بعيني
لا ولن ينام.
يا ابن الجسر المنيع
باسم السراب الممتد في حلمنا
أقول بيننا سراب الماضي الميت
ووجع القادم الباهت
كسحابة العدم

obeikandl.com

لا تمطر غير الألم
وبدمٍ فصيح اللون
ترتسم جدارية الكون ملحميةً
من زمن الإلياذة
تخلد بطولاتها الكاذبة
إلى زمن الياسمين
والجدة التي ندبت حظ
حفيدها من الرصاص.
فالبلاد بلادي
يا زمن القصاص.

ثورتي أيضًا ضدك أنت، ترى هل أحببتك حقًّا حينها؟ ويعود السؤال من جديد: هل كان حبًا ما حدث بيننا؟ أحببتك.. أكيد فعلت، ولكن لم يقف غروري الآن في وجه الاعتراف. هل أنا متشبت بالمقولة القديمة التي تعتبر الاعتراف بالحب تذللاً ومهانة؟ أليس التذلل للحبيبة قمة العطاء الذي بدونه لا حب يتذوق طعمه؟

كذاكرة رمل الشاطئ أختزن لحظات منك أثناء وصالك وألامسها حنينًا أثناء جزرك. ترمقينني بالصَدَفَة وأنا أقبل الصَدَف لأشم فيه عينيك. وأسمع منه حكايات حوريات البحر البرازيليات يرقصن السامبا على أعتاب انتظاري. وحكايات أخرى يرويها الغليون من فم سيد قبيلة من الهنود الحمر. يحدثهم عني. وأسمع أيضًا قارعي طبول الطايكو اليابانيين يقلدون دقات قلبي. وأنت تمدين رجليك فوق جراحاتي كفقيه قريتنا حين ينهي قراءة سورة الكهف ليلة الجمعة. لا هم لك سوى اللعب بقنافذ البحر الذين يرمونك بجمل غزل من لغة الجراد النزق. أحترق غيرة ولكني سأنتظر توقيت مدك لأبلل معتقداتي بجمالية العشق تحت سلطان لا

مبالاتـك.

كانـت لقيـاك مـن نـوع المـوج، تجعـل أضلعـي كصـدف الشـاطئ يتمايـل مـع مـدك وجـزرك، صـدف احتضـن لؤلـؤة مـن النـوع النـادر المسـتعصي عـلى الاحتضـان، خطـأ في النـشرة الجويـة، ونحـن عـلى جبـل الأطلـس غمامتـين مكهربتـين تبتعـد كل واحـدة عـن الأخـرى.

لأن اللـه فـرض التـداوي تناولـت مسـكن العشـق، عـلى شـكل حقنـة عـدم اكـتراث، تنغـرز في القلـب مبـاشرة مـع ضرورة الحجامـة لإزالـة الـدم الفاسـد في ثنايـا الذاكـرة.

أحتـاج أنـا ووطـني إلى عمليـة جراحيـة، المبضـع والمـشرط والملاقـط، نحتـاج عمليـة قلـب مفتـوح عـلى احتمـالات ثـورة وثـورة مضـادة وقمـع وقناصـة ومـوت ودم ونـار ودخـان ورمـاد.

عـلى بعـد أميـال مـن ثـورتي الصغـيرة، مغتبطـًا حـد الانتشـاء بثـورة أكـبر، أنظـر في أمـر ثـورة عـلى مسـميات الزهـور. وأفـرح أفـرح لشـعوب طيبـة انعتقـت مـن تاريـخ ليـس تاريخهـا ومـن جغرافيـا ربطـت شـطآنها بحـدود المزابـل وحاويـات القمامـة.

أسـياد يراهنـون عـلى شـعوب مـن قـش صنعوهـا بالخـوف والـدم. اشـتعلت النـيران وكان القـش الاحتمـال الأهـزل، وعنوان الضعـف الأبرز الـذي ينتـشر كالنـار في الهشـيم حارقـًا جزيئـات مـادة كانـت بالأمـس غـير قابلـة للاشـتعال، وهـا هـي اليـوم كجسـد محمـوم بالحـب تحـت كل شـعرة منـه ثـورة.

انتبـه.. فالإنسـان مـادة قابلـة للاشـتعال، يـترك بعيـدًا عـن متنـاول الفاسـدين.

منارة البحارة الضائعين:

المركب القديم يصارع البحر، تتقاذفه أمواج عاتية، تحن عليه المنارة وتضيء له الطريق، لا فائدة فالبحار ليس الرجل العجوز من رواية «همنغواي». تصرخ المنارة كما لم تفعل من قبل. كان نور عيونها كافيًا لإرشاد المراكب الضائعة، لكن هذا المركب البائس أثار غريزة الأم فيها فصرخت. انتبهت السفن المجاورة للمركب الصغير، اقتربت منه أكثر مما يلزم فأغرقته بالقذائف.

السور والمدينة:

قبّل السور المدينة وقال لها كلامًا غير محتشم (بلغة الأطفال)، لثم فاها عانقها عناقًا خفيفًا، احترامًا للقصبات المنيعة، مر طفل صغير بال عليهما، عجوز رفع جلبابه وأفرغ معيه الغليظ قربهما، انتفضت المدينة من بين يديه مستنكرة سكوته المخزي، قال لها كلامًا قاسيًا غير محتشم (بلغة الكبار)، نظرت إليه في بغض وتركته ورحلت إلى حضنه، فسموها الراحلة.

حديث سنبلة:

كلما رأته رفقتها يحتفل جرحها بعيد ميلاده، استباح مساحة كبيرة من حبها ومساحة أكبر من جسدها، دون أن تخبر أحدًا انكمشت على حزنها تداويه بالصمت، المرارة تعتصر جسدها النحيف. هي تدري أن الصمت في مجتمع جرائم الشرف هو الحل الوحيد بعد أن وقعت قطرات الدم في حقل السنابل، كان فلاحًا ابن قريتها، ذبلت حمرة شقائق النعمان وماتت.

بائع العمائم:

السوق مكانًا والضحى زمانًا اخترتهما لقصتي. التاجر المتجول

حـط رحالـه وعمائمـه في كومـة تغـري الزبائـن، عمائـم بيضـاء عـلى الخصـوص، يـصرخ عاليًـا: لـكل رجـل تقـيّ، لـكل طالـب علـم ورِع، لـكل فقيـه مسـجد، لـكل شـيخ وقـور عمامـة بيضـاء.. لـم يعـره أحـد اهتمامًـا؛ ربـط وسـطه بالعمامـة وبـدأ يرقـص عـلى إيقـاع الشـعبي السريـع، فالتـف حولـه النـاس يسـاومون ويشـترون.

جبل التحدي:

قـرر تحـدي الجبـل، سيتسـلقه إلى أعـلى قمـة، هـو لا يـدري أن فـوق كل قمـة قمـة، لـم يجهـز نفسـه للرحلـة الـتي لـن تسـتغرق إلا سـاعات حسـب تقديـره، انطلـق تتقطـع أنفاسـه، رآهـا في كل صخـرة مـن صخـور الجبـل تشـجعه، بـل وتناديـه هيـت لـك، وصـل القمـة الأولى، تعـب، جلـس يسـتريح، تذكـر المثـل الأمازيغـي أسـونفو دو وسـاون أورتيـكي، نظـر إلى السـهل فقـال أتحـداك أيهـا السـهل المنبسـط.

الكرسي الفارغ:

آن للبحـر أن يمسّـد ظهـرك في رفـق كمـا يفعـل بالشـواطئ، اغمزيـه، ناوليـه المرهـم الـواقي مـن الشـمس ناوليـه الشـمس ليسـمر بشرتـك، ناوليـه القبعـة ليغطـي شـعرك، ناوليـه الحـب كي يترجمـه إلى حـركات وسـكنات، ناوليـه الإخـلاص ليطعـم منـه الصخـور. سـاعة وأنـت تحلمـين بالعبـارات المناسـبة لـشرودك. ناوليـه الفوطـة ليمسـح خيانتـه لـك، كان كرسـيه فارغـات منـه.

شفرات حلاقة:

أوه يـا لطيـف! دم يسـيل عـلى الذاكـرة، يختلـط بصابـون الألـم ويرسـم لوحـة، مـا بـك؟ حـادث حلاقـة لا خسـائر غـير خـدش بخـدي الأيـسر. مـرآة غطاهـا بخـار المـاء، ذاك ليـس وجهـي، أشـباح كثـيرة وغريبـة. وضـع ياسـين شـفرة داخـل الـكأس البلاسـتيكي الـذي تتزاحـم

فيـه شـفرات أخـرى. المـاء يغسـل الـدم والمـرآة تحسـن الصمـت، وتبقـى شـفرات الحلاقـة.

كبة وكتاب فلسفة:

شجارهما ينتهـي دومًـا بتكسـير أواني المطبـخ، هـو: أنـتِ لسـت مـن أردت دومًـا، هـي: وأنـت لسـت مـن ابتغيتـه يومًـا. هـو: اغـربي عـن مجـالي. يـضرب الحائـط بقـوة. هـي: ابتعـد عـن أحلامـي. يأخـذ كتـاب نيتشـه ويـنزوي في مكتبتـه. ينسـج كلماتـه بعنـف القلـم. تأخـذ كبـة خيوطهـا البنفسـجية وتنكـب تـسرد سريـدة صغيرتهـا. كأنهـا تكتـب بلغـة الخيـوط الصوفيـة.

رحــلة صيد:

يـا جميلـة، يـا غـزال تحـدثي إلي، مـاذا فعلـت لك.عـرف رشـيد منزلهـا عـرف السـيكتور الـذي تتحـرك فيـه، يمكـن لـه الآن أن يصادفهـا في دروب المدينـة القديمـة مـتى أراد، بـل كل مسـاء حـين ينتهـي مـن العمـل في الكـراج. أحبـت إصراره، عشـقها، أخرجتـه مـن مراهقتـه كـبر حبهمـا تزوجـا. مـن أنـت صغـيري حمـزة بـن رشـيد الميكانيـك وفاطمـة الخياطـة.

وكل ذلـك والأنـين يتسـلل بصمـت الحيـة إلى الـكلام وحشرجـة الحـزن تقبـع خلـف بلعـوم النـدم. نمتطـي الأيـام كفرسـان ونـنزل عنهـا كعبيـد، تمتطينـا الأيـام كجيـاد وتركلنـا كبغـال مسـنة، لا تصلـح حـتى للعـبرة.

الوطـن تعـرّى مـن كلمـات العـزة المحتشـمة، تعـرى كأي عارضـة في ملهـى جنسـي، يرمـي ملابسـه الرخيصـة عـلى شـعب مـن الأحـرار، كانـوا يومًـا أحـرارًا، قطعـة قطعـة يقـدم نفسـه كأي عاهـرة بلاسـتيكية. قـرر

اليـوم عـلى غـير العـادة أن يهدينـا الشـهداء عـلى مائـدة الطعـام. الشـباب قربـان التاريـخ. ودمهـم شربـة مـاء دراكـولا في قلعتـه.

الحـب ينحـت نفسـه كـبرج عاجـي لا أسـتطيع دخولـه دون وسـاطة الـوزراء، والزمـن يسـير وكل شيء أصبـح ذكـرى. والحـب يلتحـف أغطيـة النسـيان والـلا توقـع، وكذلـك، هنـاك قلـبي المسـكين جريـح الثـورة والقلـم. قربـان القريـة والنـدم.

obeikandl.com

-١٩-

وأتذكر..

بملعقة صغيرة بحجم البنصر تناولني حلوى الكريم شانتيه، قطعة قطعة، تضعها في فمي بأناقة وصولاً إلى حبة الكرز الحمراء التي تذكرني بكل الأفلام الرومانسية المحاذية للجنس، ولكن احتجت أجمل من هذا، احتجت رؤية أصابعها الرقيقة وهي تناولني الملعقة الفضية، وتألق الخاتم الذهبي الملولب على إصبعها الوسطى، أشياء من عالم المعادن النفيسة واللمعان الأنيق، انتهت من الحلوى في صحني وأنا في غمرة ارتباكي بانتهاء وجبة الحب وسفر الأصابع الرقيقة كطيف أزرق من عالم أليس الفرنسية، وأنا أستفيق من نشوتي الهضمية أنظر في خجل إلى صحنها الذي لم تلمسه ملعقة.

وكانت دائمًا تطلب مني أن أقرأ لها قصيدة الشاعر أيوب مديان بصوت مرتفع، نعشقه ذلك الشاعر من مدينة تارودانت، يكتب لنا سيناريوهات عشقية من زمن السخاء العاطفي.

يقول:

ثمة مساءٌ لم تأفل شمسه بعد..

ورؤى لم تتحقق..

رموشٌ تنغلق على حبٍ..

والمكان في دائرة الوهم..

وبعض الوجع صار غزيرًا كالمطر..

وكل السحاب..

خيط دخان سيجارةٍ فرنسيةٍ..

ينساب في الأفق اللا منتهي..

مأخودون نحن بالغروب..
مهووسون بالسراب..
فستانٌ يجر أطرافه على الأرض
ويرخيها..
كما يرخي الكون ظلاله..
بُعَيد الوقت بقليلٍ..
أكون سيد قوانين الفيزياء..
منتصرًا على الذات والطبيعة معًا..
منتصرًا على الحب والخديعة..
ها أنا أشتاقك مرةً أخرى بعد زمنٍ..
ليت الذي كان ما كان..
أنا فارغٌ مني مليءٌ بك.
الليلة أحاصرك شبحًا من ظلٍ وهواءٍ..
أحتاجك كما يحتاج القلب وريده..
كما يحتاج الكون سماءه..
وكما تحتاج عيني البكاء الآن..
أحسك تخترقين أضلعي..
أحسني اخترق مساء عينيك العسليتين عند الغروب..
لا أريد أن أكون حلمًا مهجرًا إلى حدود شفتيك
لا أريد الموت قتيلاً..
بعيدًا عن عينيك.

أنقدتني هذه القصيدة من موقفي غير الجمالي وسحرت مساء اللهفة آنذاك. هناك قصائد كتبت لتسحر، لتقول كل شيء بدلاً عنك.

أنا القروي الجلف غليظ المشاعر البعيد كل البعد عن الإتكيت

obeikandl.com

الفرنسي بُعد السماء عن الأرض، نسيت إطعامها حلواها بالتناوب معي، بقيت ألتهم كأي قرد استوائي، وأسرح بذهني في جميع اتجاهات الأفلام الرومانسية وأغاني أزنافور، مثل هذه اللحظات هي التي تجعلك تحتقر أسلوب عيشك البدوي.

الساعة الهدية التي أحضرتها معي ساعدت على تخفيف حدة بداوتي، غريب! للنساء حسابات عاطفية تحول عن طريق المعادن مباشرة إلى مصارف القلب، لتغفر لك المرأة كل شيء بساعة مذهبة من توقيع أحدهم، هي لا تستطيع أن تتحكم في ميولها المادية، والرجل بتفكيره المصلحي يزكي توجهاتها الفلزية ليرتكب بارتياح خطاياه نحوها.

رجل بلحيته السوداء المعفي عنها ينظر إلينا في كُره وحقد أفهمهما جيدًا فقد جعلنا من مقهى في عمق المحفظة مرتعًا لحركات همجية في نظره، أعرف أنه على حق لكن أمراضي العاطفية تحول بيني وبين رؤيته الملائكية. عفوك عزيزي. احتراماتي لك. وأعود لحركاتي الهمجية في محاولة لإصلاح بدويتي الجلفة المتوحشة أمام امرأة تتقن فن الملاحظة الدقيقة.

ولمَ أتذكر كل تلك التفاصيل ولم تكن في نيتي آنذاك كتابة قصص حزينة؟!

obeikandi.com

-٢٠-

نوستالجي
نتشابه
أنت رقيقة
وأنا كذلك
نوستالجي
أفكر فيها
أناديها
في الليل
تعيش هناك
في بلاد البرد
حيث الريح دومًا
تأخدني وأنا أحلم
حيث تثلج نارًا
وتمطر زرقة
كانت جميلة
نوستالجي
نوستالجي
نتشابه
هو دجنبر بلدك
..
كان بودها أن تحرق حياتها
تحت ربيع حقيقي
كان عمرها عشرين

obeikandl.com

أخذت البحر
في اتجاه سماء
أكثر صفاء
وتركت الرمادي
نوستالجي.
خوليو إجليسياس
وأنا في حاجة إلى بعض الحب.
لا أنكر على ذاتي بعض الحب.
أنا المسخ من بني البشر أحتاج الحب.

يدميني لحن غريب من الجفاف العاطفي، يقلق استكانتي لسنوات من الجمود، أنتظر شيئًا يسمى شيئًا، أتعجب حقًا من جسدي الميت، من صوري على جدران الصمت، من احتضاني لوسادات البرود، أكل هذا السكون لأنسى ماريا؟ وهل نسيتها حقًا؟ هي وقفت بيني وبين الوطن في رعونة عسكرية، وأنا لا أحسن فن التصويب، أصوّب على العدو والخائن ومن جاورهما.

ولمَ الندم وعلاقتي شرعية حتمًا مع التاريخ وموقفي يشهد له الصديق وابن العم؟ والآن ماذا؟ جسد محمل بالخيبات وقلب مثقل بالانكسارات، وقرية مستكينة على سفح الجبل كحمامة على بيضتين. رتيبة هي الحياة بطيئة الحركة، وجسدي أيضًا مستكين كالقرية يراقب الأعراس والمآتم.

خرجت من الدوار أحمل أفكاري في قفة بالية.

obeikandi.com

-٢١-

«تمـان تـاركا» مـكان ظليـل تغطيـه شـجرة جـوز كبـيرة، تمـر وسـطه سـاقية مـاء أسـمنتية لا يتجـاوز عرضهـا أربعـين سـنتيمترًا، تنقـل المـاء للمدرجـات الزراعيـة، ماؤهـا بـارد حـتى في فصـل الصيـف، مـكان سـاحر يجـذب الـكل خصوصًـا شـباب القريـة الذيـن يراقبـون شـابات القريـة، اللـواتي يتمايلـن دلالاً كلمـا اقتربـن مـن السـاقية، هـذه كـبرت وهـذه مـا زالـت صغـيرة، بنـت دا عـلي عمّـر الحـب قلبهـا، بنـت دا صالـح أيضًـا صحيـح مـا زالـت في المسـتوى السـادس ولكنهـا سرعـان مـا تتفتـق أنوثتهـا ويتفجـر صدرهـا تلتـين.

- أنا من سيربيها على طريق الحب، قال أحدهم.

- لا أنـت سـتعدها فقـط لمـن يقطفهـا منـك، سـتتعلم عـلى يديـك كيـف تتجـاوب وتتحـاور مـع جمـل الغـزل، وتـتركك وتتجـه لغـيرك، هـذا مـا يحـدث دائمًـا، كلهـن هكـذا، بنـات القريـة.

- هـل رأيتـم أخـت صالحـة، هـي الأروع في بيـت دا جامـع، بـورك عملـك يـا رجـل، عشـت يـا دا جامـع لتلـد مزيـدًا مـن زهـرات الربيـع.

- ولكـن بناتـه لا يقدمـن سـوى الـكلام، لا تدعـك تلمسـها ولـو بيـدك اليـسرى.

- لقـد نسـيتم عائشـة بنـت دا الحسـين، وعيناهـا العسـليتين لا توجـد مثيلـة لهـا في القـرى المجـاورة، حبـة نـادرة.

- إنها أختي يا حمار الطاحونة.

- وهل أنت هنا؟

تنتهـي نقاشـات «تمـان تـاركا» دائمًـا بالشـجار، ليـس دائمًـا ولكـن هـي دائمًـا تنطلـق مـن الحـب وتعـود إليـه كأنهـا برلمـان العشـاق كل يـدلي برأيـه، وفيـه أيضًـا ترسـل الشـيفرات والرسـائل حـين يحتـد الـصراع حول

Obeikandi.com

إحداهـن. وكأن هـذا التجمـع الذكـوري الغامـض يتحكـم في كل علاقـات الغـرام في القريـة، فهنـاك مـن يعلـن مثـلاً أنـه سـيترك فلانـة، ليسـتعد مـن هـو مهـووس بهـا للتجربـة، فتجـد الفتـاة تنتقـل مـن يـد إلى يـد كدميـة بلاسـتيكية دون أن تـدري، لذلـك فتيـات القريـة سـاذجات، وذكورهـا يهندسـون بـذكاء كل حـركات العشـق في قريتهـم.

أحيانًـا حـين يرخـي الظـلام سـدوله ينتقـل التجمـع إلى وسـط القريـة تحـت سـور المسـجد، وعندمـا يغـادر شـيوخ القريـة يتسـلل الشـباب إلى بيـت النـار أو موقـد مـاء الوضـوء والغسـل، يخرجـون منـه بعـض الجمـرات الملتهبـة ليسـتدفئوا بهـا وليشـعلوا بهـا السـجائر والجوانـات. قدسـية قاعـة الصـلاة لا تصـل إلى غرفـة النـار. ذلـك طريـق مـضيء بنـور الطاعـة وهـذا ينتهـي إلى رمـاد.

-٢٢-

مـرت أيـام هادئـة، شـهور هادئـة، مـر موسـم الحصـاد بـكل تعبـه، بشمسـه الحارقـة، الصيـف بأعراسـه، بأحـواش بألـوان الفـرح والحنـاء، القريـة هادئـة لا يعكـر صفوهـا إلا تلـك المشـاحنات التقليديـة بـين وجـوه متعاديـة منـذ القـدم، قلوبهـا متباغضـة تكفـي أن تتسـلل عـنزة أحدهـم لحقـل الآخـر حـتى يهـدد بالمحاكـم، ويبيـع مـا تبقـى مـن ماشـيته ليدفـع أتعـاب المحامـي ورشـاوى القضـاة، انتصـارًا للبغـض والحقـد والحسـد، وكل هـذا يدخـل ضمـن الهـدوء الروتيـني أيضًـا.

حـضرت عـرس فتيـات كثـيرات، فائقـات الجمـال، خدمـت في عرسـهن في الاسـتقبال والطهـي والرقـص والنقـر عـلى الطبـل والـدف، «مـاذا تنتظـر أنـير؟»، «مـتى نرقـص في عرسـك ونفـرح بـك؟»، كان لتلـك التعليقـات صداهـا في جـوفي لـم أرغـب في سماعها ولكـن النـاس هنـا لا يسـتأذنوك في الحديـث عـن أمـورك الشـخصية، لا توجـد أمـور شـخصية في مجتمـع التشـارك، حيـث كل شيء مشـاع يـدلي فيـه العـام والخـاص، فلـو تجـاوزت سـن الـزواج بقليـل يبحثـون في صلاحيـة أعضائـك، كل شيء معـد سـلفًا مـن قبـل التقاليـد والتاريـخ، والعائلـة والجـد والجـدة وأنـت كفـرد تابـع يجـب أن تسـير في درب محـدد، وإلا أثـيرت حولـك أسـئلة لـن تعجبـك احتمـالات الإجابـة عنهـا، النـاس هنـا أفكارهـم عـلى ألسـنتهم وألسـنتهم خـارج أفواههـم. وتلـك التعليقـات والجمـل المحشـوة بالإشـارات تجعلـك بتكرارهـا وتواترهـا تستسـلم دون وعـي منـك وتسـير أنـت أيضًـا في ذلـك الـدرب القصـير مـن الـزواج والإنجـاب و... ولكـن أليـس هـذا هـو الـدرب اليسـير؟ الـكل تزوجـوا وأنجبـوا، شـباب جيـلي والجيـل المـوالي الذيـن لـم يعايشـوا التهجـير ولـم تتسـخ ذاكرتهـم بمشـاهد الدمـار، لهـم أولاد في الابتـدائي يحملـون محافظهـم

obeikandl.com

كل صباح في اتجاه المدرسة. تلك الحياة التي يجب أن تكون وألا يزعجها أحد، كل صباح يذهب الطفل للمدرسة، الأب للحقل والأم تعد طعام الغداء. أليس ذلك ما يجب أن يكون؟

أنا هو ذلك المسخ من الإنسان الذي تحدث عنه كافكا ذات يوم.

تتسع الهوة بيني وبين أفراد جيلي كأني لست منهم، خلعوا سراويل الجينز أو لبسوا فوقها فوقيات وجلابيب وانخرطوا في حياة القرية والأسرة والصغار والأشغال اليومية من سقي ورعي ورفش وحرث، يعملون حتى المساء في الضيعات المجاورة، ضيعات البرتقال المنتشرة على أراضي الجموع والسلالات، الضيعات التي التف أصحابها من ذوي النفوذ على القوانين ليسلبوها من أصحابها مقابل دراهم معدودات، الذين أعماهم الطمع يتنازلون عن أراضيهم معتقدين أن مال التنازل يدوم إلى الأبد، ولكن سرعان ما يكتشفون سخفهم ليجدوا أنفسهم عمالاً مياومين على أرض كانت يومًا ما أرضهم.. يعودون في المساء محملين بالتعب وبكيلوجرامات من البرتقال، لكنهم سعداء، وهذا لا يمكن نكرانه قانعون بما لديهم، حرارة احتضان أولادهم كل مساء وملاعبتهم إياهم تنسيهم قساوة الطقس وتعب النهار، تلك السعادة تلك السعادة.

وأنا هو ذلك المسخ من الإنسان الذي تحدث عنه كافكا ذات يوم.

لم أعد أعشق. تتفتح الزهور، يلتقطها من يرغب في الحياة، تمر كل فتاة بجانبي كأنها ابنة لي لم ألدها، قد تناديني إحداهن عمي، وأكره ذلك ولكني أبتسم في وجهها كعم حقيقي.

وذلك العشق الذي تنتفض له كل شعيرات الجسد لا يأتي ولا يظهر، وأبقى ذلك المسخ الذي يتسول السعادة على غرار سعادة الآخرين ولا تأتيه، أبدع كل يوم خلفية جديدة لوجهي، وأبتسم،

ألعـق برجـليّ كل نواحـي القريـة، دو تاركانـت، إكي واسـيف، دار الخـيز، أكـرض، الخمـس، إمـي نتمزكيـدا، وحـتى سـوق إيمـولاس، أصعـد الجبـال المجـاورة في الصبـح وقبيـل غـروب الشـمس وربمـا أصبحـت لي مشـاوير محـددة ومعروفـة لمـن يريـد محادثـتي، لـم أرد ذلـك لكـن التكـرار والعـادة سـيدا المواقـف في زمـن الروتـين القاتـل. هـل سـأتحول إلى شـيخ شـباب القريـة؟ حـتى أن نظريـاتي النضاليـة لـم تعـد تجـد آذانًـا صاغيـة وكل التجـاوزات المخزنيـة لا تحـرك الشـعور بالثـورة عـلى أي شيء. هـل كانـت ثـورتي ضـدك أنـت فقـط؟ وانتهـت بعدهـا الثورات. لـم يتسـاكن الظلـم مـع الحيـاة؟ أليسـت نفـس المفاهيـم ونفـس الكلمـات؟ هـل تزعزعـت القواميـس والمجلـدات الـتي تنظـر للعدالـة؟

خلـف الجبـال، أمـام الجبـال، أينمـا تـولي وجهـك تجـد جبـلاً. في قريـتي إمـا أنـك صاعـد وإمـا نـازل لا تجـد مسـاحات مسـتوية أبـدًا، تضاريـس تولّـد لـديّ إحساسًـا بالحركـة الدائمـة والجهـد المتواصـل، هــل أتخلـص مـن سروال الجيـنز الضيـق، وأرتـدي فوقيـة خفيفـة صيفًـا تمـرح فيهـا أعضـائي وتتهـوى شرايـيـني؟ كـم أحسـد الرجـال هنـا عـلى تخففهـم ممـا يثقـل الجسـد ويزيـده قهـرًا! لا سراويـل داخليـة لا جيـنزات لا أحزمـة، فقـط فوقيـات مخططـة، خصوصًـا في الصيـف الحــار. حــتى أن بعضهــم يعــوم في الــوادي دون ملابـس في عــودة صارخـة إلى الوحيـش والطبيعـة. يـبـترد مـا شـاء في مـاء النبـع بعيـدًا عـن القريـة رفقـة أصحابـه، كثـيرًا مـا يغطـي المـاء العكـر أعضاءهـم الحميميـة ولكنهـم لا يخجلـون، وإن سـمعوا خشخشـة أو رأوا طيـف أحدهـم يقـترب غطسـوا في المـاء حـتى أعناقهـم فـلا يظهـر منهـم غـير الـرأس ويبقـون عـلى حالهـم حـتى يمـر الموكـب، الـذي يكـون عـادة مـن شـلة أخـرى مـن دوار مجـاور يبحثـون عـن مـكان بـارد يسـتلقون فيـه، يلتحفـون جلودهـم، ويسـتمعون للموسـيقى مـن مسـجلات لا تفارقهـم. أرشـاش، عبـد الهـادي يكـوت، تسـلاتين أونـزار، أوطالـب..

وغيرهـم مـن الروايـس والرايسـات. قريـتي في الصيـف تلتحـف الأعـراس والفـرح. تحتفـل بالجسـد والصخـب والشـمس والنهـر.

obeikandl.com

-٢٣-

ابـن الجبـل أنـا، ليـس لي عمومـة مـع البحـر، أغـرق في زرقتـه فـلا أحيـا.

ابن الصخر أنا ليست لي مصاهرة مع النوارس.

ابن الماضي أنا لا أعيش الحاضر.

الصقر أنا لا أنتمي إلى سلالة الأرانب الخائفة.

والسـد الملعـون يقـف وجهًـا لوجـه ضـدي، كيـف أقـاوم حربًـا مـن الحجـر والمطـر؟

كيف أحارب عدوًا من الماء والندى؟

والحـب يقـف عـلى حافـة الذكـرى في أناقـة الغيـاب. يزغـرد قطـرًا مـن الصـدأ عـلى بـاب قلـبي الخشـبي المقفـل بإحـكام، أي نشـيد يـبرر اسـتلقاء الصمـت عـلى جثـة الثعالـب الماكـرة كالزمـن، مـضى ذلـك العهـد مـن سـطر الخديعـة المدفـون تحـت ركامهـا. هـي هـي هـي، لـن تأخـد عـرش التقبيـل مـن شـفتي وقـد يبسـت دهانـات البـوح عـلى لسـاني. رميـت الـنرد ومـا انتظـرت تقلبـه عـلى احتمـالات العـودة والرجـوع، رميـت ودلفـت إلى حـال سـبيلي أغـني أنشـودة الإصرار عـلى حبـك يـا وطـن العناكـب والجنـاذب والنسـور. يحـاول في غرابـة رجـي ورجـي وانعـاشي عـلى نعـشي. هـل بقـي شيء في جثـة عـلى نعـش الطفولـة ترتـد؟ مؤلـم جـدًا احتضـاري في حضـوري، قبّليـني برهـة الزمـان، المـسي جسـدي العـاري، مـن عـلى ظهـري باغتيـني، ارم ألـف قبلـة عـلى كتفـي وضميـني.

أرتـدي سروال العنكبـوت فتبقـى أرجـلي دون غطاء العنفوان، اسـتلقي عـلى فـرش مـن الريـح والسـهر، تلـك هـي خرافـاتي، تـوالي الخيبـات على ظهـري، الـذي لـم يعـرف غـير ضرب العسـكر مـن أبنـاء وطـني. قبليـني

obeikandi.com

على ظهري واغسلي خطايا الوطن من على جلدي العاري. آثار السوط على ضلوعي خريطة رسمها التحدي لكنز مجهول مدفون في الجبال.

من طبق الحنين

نأكل دمعًا من أتون العابرين.

ننتشي باعتراء القلق لتيجان الوقت في مخيالنا النديّ، غبش زجاج القاطنين في قرية من الطين والماء وشقائق النعمان والأمل والعويل يمنعنا من السفر، يمنعنا الرحيل. وتمنعنا وجوه الأمهات أقمار القلب الحزين. وتمنعنا المناديل التي ستتحمل جرح العين وانسكاب الأنين. جرح العين يبلل جسد الأم النحيل.

حتى أنه ما عاد في العين نبع أصيل. بعد كل المحن والصراخ لحظة التهجير.

أسيف هو الوادي وهو غير النهر في ذاكرتي، أسيف النهر مدرسي المصدر وأسيف عنوان كل قصص العشق المراهقة وعبث الأجساد تتلمس الشهوة.

أسيف هو الحضن، هو كل شجر التين المتدلي من حافة الطريق إلى الدوار، هو التوت البري الأحمر والأسود الذي نسميه عنب الذئب نقطفه ونسرع هروبًا من ذئب في مخيلتنا الجماعية. كيف والذئب لاحم لا يهمه أمر العنب ولا يهمه أمر التين؟!

تلك الخسائر الأدبية من وحي المدرسة.

ولعبة الغميضة التي ما عادت ببراءة الطفولة والتي أصبح الكبار يمقتونها ويراقبوننا عندما نمارسها.

نقتات على أوراق الخريف، نمضغها عشقًا لصوت الخشخشة، احتفالاً بالتذكر. نمتطي الذهول المسرج بالدهشة ونسير وفق الحنين.

أسيف هو الرجل القوي من أبناء العمومة يدافع عنا من ظلم

الأماكـن ووحشـة الأيـام الطويلـة مـن الصيـف الحـار، أسـيف عنـوان قصائدنـا العشـقية كلهـا، أسـيف فضـاء المـرح والفـرح أسـيف. تـنزل الفتيـات مـن بنـات القريـة ضحـى كل يـوم يحملـن المناجـل عـلى أكتافهـن يبحـثن عـن حشـائش ونباتـات لإطعـام البقـرات والأحصنـة خصوصًـا. الغنـاء لا يفـارق حناجرهـن أنـت لا تسـتطيع رؤيـة الفتـاة وإنمـا يمكنـك عـن بعـد سـماع صوتهـا ورؤيـة حـركات القصـب والشـجيرات قربهـا كلمـا تحركـت لتحصـد الحشـائش مـن حولهـا. التعب لا يهـم، الجـوع لا يهـم، الفقـر أيضًـا لا يهـم، هنـا في أسـيف الصـوت واللحـن يدفـع الغصـص المتحشرجـة في بلعـوم الجسـد، هنـا الرغبـة تتحـدث، هنـا الإنسـان في جوهـره في تواصلـه مـع الطبيعـة ومـع الآخـر الرجـل، الرجـل ليـس الغـني بمفهـوم المدينـة وليـس صاحـب الوظيفـة المسـتقرة والدخـل المتواتـر، الرجـل هنـا كل رجـل لـه كتفـين عريضتـين للعمـل بهمـا، لـه قلـب لـه حضـور لـه جسـد يعيـش داخلـه لا سـيارة ينحـشر فيهـا. هنـا يتجـلى معـنى الإختـلاف في نمـاذج التفكـير البشريـة، هنـا المـرأة المـرأة والرجـل الرجـل، مكتفيـان بالدلالـة الوجوديـة لـكل منهمـا؛ لا يحتاجـان مـوادًا تجميليـة لإضفـاء القبـول عليهمـا مـن قبيـل الأمـلاك والسـيارات والفيـلات والوظائـف. قطعـة أرض توارثهـا الأجـداد تكفـي للعيـش بعيـدًا عـن الاسـتهلاك المفـرط للمعـاني.

مـن قـال إن القرويـة ركـن مهجـور مـن أركان الصمـت فقـد كـذب، مـن قـال إن القرويـة رفيقـة الـدرب المحايـدة فقـد كـذب، مـن قـال إن القرويـة بـلا عمـق فقـد بالـغ في الكـذب، مـن قـال إن القرويـة عقلهـا في حضنهـا فقـد قـال بهتانًـا عظيمًـا عليـه إثمـه، إنهـا غـير ذلـك كلـه وأكـثر.

ذلـك أنـه لا يسـمع مـا كانـت تغزلـه حروفهـا، لا يسـمع مـا كانـت تـردده الطبيعـة مـن حولهـا، كل غريـب ممسـوخ المشـاعر، غـبي الأفـكار سـيقول عنهـا متوحشـة تبحـث بـين الحشـائش والصخـور تقطـع الـوادي طـولاً وعرضًـا دون عيـاء، وجيدهـا الرقيـق وقوامهـا الممشـوق ليـس إلا

نتيجـة جهدهـا ورياضتها اليوميـة وهـي لا تحـس بـه ولا بشـكله. كل رجـل لـم يـتربَّ عـلى احـترام الصخـر واحـترام التاريـخ واحـترام القـول والموسـيقى والألـوان والجمـال والإنسـان، كل جلـف مـن عبـدة القـوادة المدينيـة سـيقول إنهـا جسـد بـلا روح. وهـي غـير ذلـك حتمًـا، وردة بريـة مـن الزمـن الأول للحـب.

obeikandl.com

-٢٤-

أخرج حصيرًا من القصب إلى «دو تورتيت» وما «دو تورتيت» إلا روضة من رياض الجنة! فيها شجرة من كل نوع يمكن أن يزرع في المجال، شجرة جوز كبيرة هي أم الأشجار، شجرة خوخ، شجرة تفاح، شجرة لوز، شجرة مشمش، شجرة ليمون حامض، شجرة حناء، شجرة مسك الليل، وتتطفل على أغصان هذه التشكيلة من الشجر دالية عنب أسود تحرص على حجب ما بقي من أشعة الشمس، أحضر ابن العم صينية الشاي الكبيرة ذات الأرجل الطويلة التي تنغرس في تربة ما تحت الحصير، وصحن طيني بخليط معهود من ثمار الجوز واللوز والحمص والفول السوداني والكعك. قبل الشاي حديث مطوّل، أثناء شرب الشاي حديث آخر طويل وبعده حديث أطول، شاي العصر بنكهة النعناع والشيبة والسالمية التي يقطفها محمد من باقة مغروسة بجانبه، لكل عائلة هنا دو تورتيت الخاصة بها من أجل احتفال يومي بعد العصر يدوم إلى المغرب عادة وخصوصًا خارج فصول العمل الشاق كالحرث والسقي والحصاد والدرس، أربع عمليات تشكل هنا محور حياة الناس. يليها موسم من الأعراس. وما زال العرس بنكهته الاحتفالية في حين تحول إلى مأساة حقيقية في المدينة، يترك الأب مدانًا سنوات لمؤسسة بنكية تحلب رصيده من الأمل والمال.

هناك أحلام سعيدة لا تحب أن تستيقظ لتقطع سيلها، وهناك أحلام بغيضة تستيقظ لتنساها ولو أنها تتشبث بمخيلتك لدقائق بعد صحوك.

أحب أن أحلم وأنا مستيقظ لكسر طوق الأحلام وانفلاتها من قبضة الذاكرة.

بعـض الأحـلام كالمآثـر التاريخيـة تراهـا مـرة واحـدة وتكتفـي بذلـك، قليـلاً مـا نعـود لنفـس المتحـف مرتـين.

obeikandl.com

نوستالجي

نوستالجي

مستخدمو الأرشيف في جسدي

لا تحينوا الملفات كلها مرة واحدة، احترموا التأريخ المسجل خلف إبرة الألم، ولا تنفضوا الغبار عن الملفات هي كذلك أجمل بالغبار البني عليها، دعوها سيغسلها الدم الأحمر القاني، ذلك الغبار المسجى على الطاولة والمساكات والأضبار أفضل من الرماد وحبيبات السواد على المحرقة.

نوسالجي

نوستالجي

لا لا تلمسوا ذلك الملف، تلك الليلة، هي من نوع الليالي التي خزنتها للتحلية ولها عصير بمذاق الأفوكا وإيحاءاته الرجولية، كما على لائحة مقهى مجمع الأحباب، عصير من أجل صحتك رجولتك، والذي يمنع الزبائن من الإقبال على المقهى خوفًا من تلميحات الآخرين، غبي صاحب محل العصائر ذاك.

لا لا لا تلمسوا تلك الليلة، شعرت بالخجل حينها، كنت أنا وقطة خلف المسجد، لمست فروها الناعم، لمسته بضعف بداية وعندما لم تعترض ضغطت عليه بأصابعي.. حلوة المذاق.. كان يجب أن أفعل كل شيء بمنهجية محكمة وإلا سخر مني الواقفون خلف السور الآخر للمسجد من رفاقي الذين ينتظرون نتيجة لقائي بالقطة، لمسة في اللقاء الأول انتصار حقيقي يكفي لسد أفواههم سنتين، ولي حرية التجريب بعد ذلك، سألتها عن نسيج عذب من الحكايا سردتها في حفلة موسيقية، قلنا كل شيء وليس كل شيء بل

حددنـا موعـدًا آخـر وهـذا انتصـار ثـانٍ في حضارتنـا القرويـة، أن تحـدد موعـدًا آخـر يعـني أنـك ربحـت الرهـان وكفـى، سـتكون سـيد السـهرة اليـوم وسـيحتفل بـك الأشـقاء مـن كل الجـزر المجـاورة.

ولكنهـا نفـذت إلى العمـق تـردد فيـه سـمفونيتها تلـك الليلـة حـتى الفجـر مـن اليـوم المـوالي، قطـة نعـم ليـس لرشـاقتها ولا لقفزهـا عـلى نوتـات صعبـة المنـال، بـل لملمسـها الحنـون، شيء مـن زمـن الفـرو ونسـيج المراهقـة، وتلـك السـطور الـتي محاهـا النسـيان سـنملؤها بمـا كان مـن الممكـن أن يحـدث، فقـط لنزيـن ذاكـرة الخـراب بديكـورات الخلـق والابتـداع.

تقلبـت في فـراشي هاربًـا مـن صورتهـا مـن كلامهـا العـادي، وظلـت تسـكنني حـتى صبـاح اليـوم المـوالي. هـل كان كلامهـا اسـتثنائيًا؟ لا لـم يكـن كذلـك. هـل كان وحيًـا مـن رمـد الجـن؟ لا لـم يكـن كذلـك. كان عاديًـا وهـذا أهـم مـا في الحـب، أن يكـون عاديًـا لدرجـة تمنعـك مـن النـوم، وحـين تقـوم تقـوم معـافى سـليمًا كأن فـترة نقاهـة قلبـك انتهـت ولـم تنتكـس آلامـك.

موعدنـا هـذه المـرة لـم يكـن خلـف المسـجد، والمسـجد هنـا لا يحـضر إلا كمـكان يتوسـط القريـة ويلعـب دور مركـز الدائـرة. حـتى أفعالنـا المشـينة تتـبرك بأسـواره، كان جـزءًا منـا لـم يحتكـره أحـد بنظرياتـه، كنـا نختـبئ في مـكان يمـر منـه الجميـع، فخـير وسـيلة لتهـرب مـن النـاس هـي الحضـور العـادي بينهـم. موعدنـا كان عـلى صخـرة الحـب في أسـيف. كنـت أسـميها كذلـك لأنهـا مـكان للهـروب مـن أعـين المتلصصـين، وكانـت تتيـح فرصـة الاحتمـاء مـن المترصديـن لحكايـا الخجـل فرصـة القفـز بسرعـة خلـف حـزم القصـب والداليـة. لـم نقـل شـيئًا مهمًـا أيضًـا، غريـب أمـر الحـب في قريـتي، يمكنـك فقـط أن تقـف برهـة في مـكان مخصـوص لينسـجوا حولـك أروع قصـص الحـب وينشروهـا عـلى أوراق شـجرة التـين، هـي ترتجـف لا مـن اندفاعـي ولكـن

مـن خطـر المحاولـة المتكـرر مـن طـرفي لنيـل المزيـد مـن الأهـداف.

obeikandl.com

obeikandl.com

نوستالجي
نوستالجي

بـلى ذلـك الملـف ممكـن تصفحـه، وذلـك الخيـط الملفـوف حولـه أيضًـا يمكـن قطعـه بأحـد سـكين عنـد الحـداد؛ ليسـت بالمهمـة تلـك الأوراق فيـه، يمكنكـم العبـث بهـا أيضًـا لا تهمـني كل الإمضـاءات أسـفله.

آه كنـت مخطئًـا، لا لا لا حـذار، تـم الأمـر ولا مجـال للتراجـع، أي ملـف كريـه الرائحـة فتحتـم؟ ملـف اختمـار البـول عـلى غائـط مريـض الأمعـاء!

كان صباحًـا عاديًـا مـن أيـام التسـكع. كان عاديًـا لدرجـة الخـوف، لا تريحـني الصباحـات البنفسـجية ودم الثـوار مـا زال عـلى الطريـق إلى القريـة، وصراخ الجـدات مـا زال يـرنّ كـضرب المطـارق في أذني، جـاءت سـيارة الشرطـة وترجّـل منهـا رجـلان، لا ليسـا رجلـين، فقـط شـخصان ينفّـذان أوامـر صـدرت مـن مـكان مـا، أخـذوا سـيمو إلى المخفـر للتحقيـق في أحـداث الأمـس، وأي أمـس ذاك؟ أمـس المـوت والـذل وجـبن الأوطـان، أمـس الرذيلـة يرتكبهـا الوطـن في عهـر وسـفالة أمـس الطغيـان يشـد وثـاق الحرائـر ويمـارس الشـذوذ عليهـن.

أرسلهم دراكولا من قلعته، من بابها الأسود المقوس انطلقوا.

غريـب أن يكـون قربنـا عـلى بعـد كيلومـترات فقـط مركـز لتكويـن القـوات المسلحة كان سـهلاً جـدًا أن يخرجـوا لقمعنـا ومنـع تظاهرنـا، أغلبهـم مـن أبنـاء شـمال المغـرب، اسـتيقظوا للتـو مـن إبـر مورفـين تكويـن الجنـود المضاديـن للإنسـانية. إسـتراتيجية القمـع تقتـضي أن يـضرب أبنـاء الشـمال أبنـاء الجنـوب والعكـس بالعكـس. وضربونـا،

كسروا عظامنا ولم يكسرونا، أسالوا دمنا ولم يسيلوا كرامتنا، شتمونا ولم يفقدونا عزتنا.. دافعنا على الحق ودافعوا عن الشر. يكفينا فخرًا أننا من جهة النور وهم من جهة الظلام والخوف.

في زمن الشح الحقوقي نحن نطالب بالمساواة لا بين الرجل والمرأة بل بيننا وبين الحيوان.

أرسلهم الجنرال من قلعته، من بابها الأسود المقوّس انطلقوا، كالخفافيش في فيلم رعب خرجوا، يسبحون بالبهتان ويصلون على دراكولا القبيح.

لمَ كل هذا الخوف يا هؤلاء؟ لسنا سوى مد بشر شباب ونساء وعجائز وأطفال نريد حقنا في أرض أجدادنا نريد العيش بكرامة أغرقتها مياه سد ملعون. لا تخرجوا كل أسلحتكم لا يمكنها قتل الحق فينا، لم كل هذه الدبابات لقتل الذباب الصغير؟ أعرف السبب، كان صوتنا كصوت الذباب يزعج دراكولا في قلعته، يصله قويًا مهما سد أذنيه الكبيرتين، يسمع صراخنا وشعاراتنا صباحًا ونحيبنا ونشيجنا ليلاً حين نتعب من الصراخ، نعم كل صباح نوقظه على أصوات مزعجة كالذباب تطن في أذنيه، تلك لعنته الدائمة أن يسمعنا نصرخ في وجهه صباح مساء. لن نهدر الزمن في الصمت وسنظل نثرثر على جنبات قلعتك يا دراكولا البشع. حتى يتحول أنيننا إلى مطارق على رأسك ورماح في صدرك الخبيث، أصوات الحمام والحجل والدجاج والديكة تهوي على جمجمتك البشعة كزلازل تهز أركان وكرك الشيطاني، أما القلب فلا قلب لك، وتلك لعنتك الثانية أن لا قلب لك.

-٢٧-

نوستالجي

نوستالجي

افتح يا نوستالجي بوابة الذاكرة الخربة، فرق بين الدخان والأبخرة. شم رائحة الشياط على أحلامي المغشوشة، الموضوعة على طبق الكذب، ويا ويلك مني يا سمسم إمبراطورية العقارب! افتح درجك وخذ ملفًا آخر واقرأ منه سفر الطفولة والبيت البلاستيكي.

أشاهدني كومة جوع ممدد على الحصير البالي، لمَ أنا خائف؟ لم أنا حزين إلى هذا الحد والنهار طوله وعرضه لي للعب والركض والقفز والتمرغ في الأتربة والأوحال؟ البيت البلاستيكي يبرد شتاء ويزيد من حرارة الشمس صيفًا كالحمام البلدي الذي كانت تنشئه جدتي ليستحم فيه الجميع، تصنع هيكلاً من الأخشاب كأنها ستبني بيتًا، تغطيه بالبلاستيك وحمل الصوف، وتضع داخله الماء الساخن، فيكثر البخار داخله ويحلو الاستحمام. كان حمامًا اختياريًا من عبقرية الأجداد. ولكن حمامنا الجبري هذا عبقرية خاصة من وطن الاستبداد ضد المقهور بن المستضعف.

لا حديث إلا عن التعويضات ووزارة التجهيز، هل التعويضات هي الحل أكيد؟ ولم كل هذا اللغط حولها؟ والناس استكانوا للحياة الجديدة فلا تظاهر ولا احتجاج ولا شيء. ماذا حدث بعد ذلك أيتها الذاكرة الخربة؟ هل حلت التعويضات الهزيلة مشكلات الجوع والتشرد؟ ولم رفضها جدي آنذاك؟ وتلك الجمعيات الحقوقية التي تأخذ صورًا تذكارية لنضالها لمَ لم تعد؟ هل انتهت مهمتها بأخذ الصور والترويج لشعاراتها؟ رجال ونساء يدعون التضامن،

الرجال بكروشهم المنتفخة وأعناقهم السمينة لو ذبحنا واحدًا منهم لكفى سكان المخيم شهرين كاملين، أما النساء فوجوههن شاحبة من كثرة استعمال الأكسجين المشقر للبشرة، شفاههن منكمشة، ذلك أن أسود الشفاه لم يتحمل هول الطريق والسفر، كلاب كلهم كلاب أقول في نفسي وأعود لأتمدد على الحصير البالي.

الحصير البالي، الجبال الباردة والثلوج القاتلة الكاريانات والأحياء الهامشية هي معاهد تكوين المجاهدين في سبيل الحرية.

Obeikandl.com

-٢٨-

نوستالجي

نوستالجي

ضربني في حجري أسفل بطني، ألم يكن رجلاً مثلي يعلم ألم ضربة ما تحت البطن؟ انكمشت كدودة أرض على أرضي.. انهال عليّ ضربًا بالعصا يشق ظهري، ولكني ظللت منكمشًا على بطني وعظام ضلوعي تتكسر، الرجل منا يحاول حماية بيضتين ليوازن بهما عصب حياته، والعسكري يضربني، لا أحس به أرى فقط حذاءه الأسود، وأغيب في دنيا الألم، وكل أمواج البحر التي لم أرها لأني ابن الجبل تحملني إلى المحيط وتلطم خدي، وهو يضربني، على ظهري يريد مني فتح بطني وصدري ليتمكن من توجيه البرودكان لعضوي، فأنا الكائن الجنسي أحمي أكثر ما أحمي ثلاثة أشياء في جسدي، عداوته كانت واضحة مع رجولتي وأنا ابن الثامنة عشر من عمري ولن تنال مني، فأنا ابن الجبل وآبائي صخور الوادي، ولم أنحنِ، والدم يسيل من أنفي ويسيل الأنف من أنفي وأسناني تصطك وتقضم لساني وأنا وكل أجزائي تحت حذاء العسكري يرفسني رفسًا، أموت، صحيح أموت، وما أجمل موتي ودمي على أرضي، وأرضي بدمي ترتوي! وأنا وأرضي لسنا إلا واحد، تراب ودم أحمر قان، اقتلني دون أن تنظر في عيني، جبان أنت يا عسكري، لا تحاول، رأسي أصلب من الحديد، وينزف لا فكرًا ولكن دمًا عاديًا لا يجر وراءه أفكاري، لا يستطيع، اضربني يا حمار دراكولا، ولن أنحني، بدأت ارتخي، أرخي يدي الأولى التي كانت على رأسي، والثانية تنسحب دون إذني من بين رجلي، أصبحت كالشاة المذبوحة على جسر الغدر، لا، أنا الخروف الشامخ يرتوي بدمه، وأرتخي ويدي

تنفصل عني وهو يضربني ويضربني هو أو هم، فلا وقت ولا فرق بين ضربة وأخرى. ضربة على رأسي ثم أخرى داخل صدري، كأنه وضع رجله كلها داخل صدري وراح يعصر قلبي، انفجر البطين الأيمن ثم الأيسر، أضلعي ليست إلا قشًا، تبن يمضغه بغل جدي بين أسنانه الغليظة، جدي! أين أنت يا جدي؟ هنا لا، لن أنحني، أنا هنا هناك، أنا هناك، أعيش ولم أعد أنتمي فواصلوا ضربكم فأنا هناك ولا منتمٍ.

ألم يكتفِ بموتي؟ ينكل بجثتي! أعسكري ذاك أم وحش من زمن القتامة والظلام؟ من خريجي مدرسة دراكولا للقتلة المجانين، أكان يكرهني؟ أكان يعرفني؟

ضمادات على جسدي، كل شيء أبيض من زمن بريتون ومحمود درويش. وصديقي يقرأ قصيدة أمل دنقل لا تصالح على سرير يحمل عظامي الملفوفة في البياض. هل بقي شيء مني ليُجمع في أغطية المستشفى. ألم ألم ألم، حقنة مضادة للألم يا دكتور، ألم ألم ألم وحقنة أخرى عبر السيرو إلى يدي، أين يدي؟ يدي هنا يلامسها ابن عمي ويبكي، ودموعه تحرق خدي، يؤلمني ألمه لا ألمي، هو مجروح القلب وأنا مجروح الجلد والعضل والعظم، هو يتألم أكثر مني حتمًا، أريد أن أواسيه دون جدوى فأين جسدي؟ أنا كومة عظام في مشفى، ملفوف في البياض والسيرو بالسكر معلق فوقي يقطر داخلي قطرة قطرة ليعيد الحياة إلى جسدي، قطرة قطرة، عوض ضربة ضربة، عدد القطرات بعدد الضربات وأتذكر ذلك الجندي وأبكي ويقطر كل شيء في المشفى، صديقي يقطر دمعًا وأنا أقطر دمعًا والسيرو بالسكر يقطر دمعًا والممرضات والطبيب والممرات والسرير والشراشف والشيش والقطن ودواء البيتادين يدمع والكل يبكي، والجندي وحده يضرب بعنف، كيف لم يرق قلبه؟ فقد كنت أموت ومتّ فعلاً وما زال يضرب، ونثرية صديقي

الشاعر دم ودم دم، يهز أركان المشفى ويختلط بالبيتادين الأصفر. وألم وألم وألم، دكتور.. حقنة أخرى مضادة للألم، أرجوك، يطلبها محمد كأنه أحس بألمي. وقد أحس بألمي، لا، كفى حقن اليوم، لا يجوز كل دقيقة تأخذ حقنة، اصبر قليلاً، أنا صابر لكن صديقي يتألم، اقرأ «لا تصالح»، لا كفى، اقرأ نزار قباني، لا اقرأ درويش، أو عد بي إلى شاكر السياب، نعم شاكر السياب وقصائده لك الحمد لك الحمد لك الحمد.. استطال البلاء.. استبد الألم.. دعني أنام فمفعول الحقنة بدأ، وجدي أيضًا راح يغني قرب شجرة الخروب التي يحبها لا لأنه يجني من ورائها مالاً كثيرًا، بل لأنه زرعها في صغره وراقبها تنمو، ثوب أصفر برتقالي بحزام ملون قرب الخباز تضرب (لا تضربني أيها الكلب) العجين وترشه بالماء المالح، تغسل الحجيرات الصغيرة بالماء لتضع عليها أشهى خبز في القرية كلها، والشمس حارقة جدًا وما زلنا نلهو قرب المسجد، تخففنا من كل ملابسنا إلا ما يستر العورة وقررنا التبرد بالعوم في مياه العين، ومقاعد الدراسة، وهي تناديني باسمي شعرت بالغبطة، ابنة المدينة كانت تحديًا كبيرًا لي، متشرد الأوهام متسول الأحلام. تحرك السرير من مكانه ووخزني الأنبوب المعلق إلى يدي، استيقظت ألمًا، نظرت إليهم، إلى من؟ إلى الأشياء في غرفتي داخل المشفى، وقد عادوا لضربي من جديد داخل المشفى. وجدي يغني وهو يحمل العتلة ويفتح ممرًا جديدًا لماء السقي. يعجبني جريان الماء في تلك المصارف والمسالك، أتتبعه من إفري الى إكران ودو تورتيت أركض وراءه أسابقه ويسابقني. وتهشمت عظامي والأربطة تجمع ما تبقى مني، البرد قارس في المستشفى رغم كل الأغطية، زقاق الألم بارد ويجب أن نسير فيه بسرعة، ولكن الخدر يسيطر على أطرافي ولا أتحرك، وجروحي تلتهب وتحرقني، وما وراء حانوت البقال ولفافات الحشيش وهي تمر قربي.

obeikandl.com

-٢٩-

نوستالجي

نوستالجي

ارسـموا معـي اللوحـة، جبـال عاليـة، شـجرة أركان خـضراء تحمـل ثمارهـا الصفـراء، راع يحمـل عصـاه وكيسـه وكلـب متيقظ وآنسـة جميلة، الوقـت قبـل الغـروب، جلسـة وداع، هنـا داخـل هـذا المشـهد كانـت لي قبلـة.. هـذا أصـل رومانسـيتي، أن تكـون رومانسـيًا يعـني أن تكـون لـك أول قبلـة بـين أحضـان الطبيعـة. لا أن تشـتريها مـن مومـس أو أن تكـون ضحيـة مطلقـة أو عانـس. وعدتهـا أني سـأعود يومًـا، ووعدتـني أنهـا سـتنتظرني، لـم أكـن أعلـم أني لـن أعـود وأنهـا لـن تـراني ولـن تنتظـرني، لكـن بقيـت لأيـام أسـتحضر صورتهـا، بسـمتها، بسـاطتها في ثيابهـا البدويـة الملونـة، مـاذا تراهـا تفعـل الآن؟ أعـرف أنهـا تسـتيقظ في الصبـاح الباكـر تأخـذ جرتهـا وترافـق صديقاتهـا إلى العـين لإحضـار المـاء، أول مـا تفعلـه الفتيـات إحضـار المـاء لأنـه أصـل الحيـاة، قـرب النبـع المترقـرق كنـت أنتظرهـا قبـل إخـراج القطيـع إلى المرعـى. حركـة المـاء كحركـة حبنـا لا تتوقـف. بذلـك الدَفَـق الشـاعري نتبـادل تلـك الكلمـات الخجولـة ونفـترق.

والآن بعـد الظهـر، تجلـس إلى المنسـج، تكتـب لي رسـالة بخيـوط الصـوف. هـي تـدري أني سـأحضر يومًـا لأقـرأ جميـع زرابيهـا. وربمـا هـي قـرب الرحـى تديـر الزمـن بيديهـا وتتعجـل عـودتي وتغـني، يصلـني صوتهـا مـن الجبـال الـتي خلـف الجبـال الـتي خلـف الجبـال. لا يمكـن أن تعيـش في الجبـال دون أن ترقـص وتغـني.

obeikandl.com

obeikandl.com

نوستالجي

نوستالجي

ليس يسيرًا أن تتقاذفك الأسطوانات، وترتج على خريفك موسيقى البيادر والأحصنة الدوارة، ليس سهلاً أن تتناوب عليك رؤى وأحلام تحقق بعضها ولم يتحقق، إن باب النوستالجي المغلق بإحكام فقد مفتاحه السري، وأصبح مشاعًا للعوام، ولكن ألم أدّعي يومًا انتمائي للعوام ورفضي التبرجز في طبقة أعلى؟ ألست المنحاز إلى من هم تحت؟ ألست الحنين يعبر فوق رؤوس اليتامى والمساكين درءًا لخطر الشمس؟ ألست الأنين برلمان البكاء على الأمس؟

تتدلى أرجل الجدة الكسيحة من العربة، كتلة العظام تخترقها ومضة الثورة ونور النضال، تصفق وتصرخ كصبايا العشرين، إنها العجوز تتلوى شبابًا يا فتيات الخديعة، والعسكر هجموا وانقلبت العربة فجأة والعجوز ما زالت تردد شعارها المفضل: «الأرض لنا». الأرض لك يا جدة النضال، الأرض لك يا عمة الجهاد وطقم أسنانك سيف آخر ينغرز في حلق دراكولا، وشالك الطويل وحزامك المطرز ذلك علمنا ورايتنا، تلك ثورتي الصغيرة يا من فشلت ثوراتهم، الغبار كاد يخنقها وأرجل العسكر كادت تدوسها، رغبوا في ذلك حقًا ولكن نسوة القرية حملنها على ظهورهن، وأحفادها دافعوا عنها، رجالاً من الصخر، وهي تنشد.

كان سيضربها، فعلاً هو خريج مدرسة دراكولا المتعطش للدم. دم عجوز هرمة ليشربه على العشاء، ويضيف به النياشين على كتفه العريضة وصدره المريض، كان الكلب سيضربها، لم ينظر نحوها بحنان، البغض الشرز الحقد تطاير ورمى بشرره عليها،

ولـم تحفـل بـه وظلـت تـردد شـعارها الوحيـد الـذي تعلمتـه أتقنتـه بلغتهـم ليفهمـوه.

obeikandl.com

نوستالجي

نوستالجي

أغلق البوابة. ارحل.

قبل موعد الإغلاق تنبعث من رحم الذاكرة إضاءة باهتة كأنها تريد أن ترسل رسالة ما عبر الضوء، عامل النوستالجي لا يتسرع في الإغلاق، أمامنا الوقت الكافي للسهر على أفلاك البوح هذا اليوم، افتح نوستالجي ساعات إضافية بتعويض رمزي.

نوستالجي

نوستالجي

حوار واحتضار

رحيل وداع مرافئ، مطارات.

توخَّ الحذر؛ هناك صديق يتهاوى في دركات النسيان.

- أحبّ الحب، يا للسخرية!

- لديك الكثير مما تفعله بأيامك.

- لدينا أيام قليلة لنفعل ما نشاء.

- سبحان الله! كل واحد يرى ما لا يراه الآخر.

خصوصًا أنا وأنت.

- لا ليس بالضرورة أنت وأنا وأنت وآخرين.

- ولم قلت أنت وأنا في حين أنا قلت أنا وأنت.

- لأنني لست الذي اختلف معك. بل أنت اختلفت معي. في حين أنني متفق جدًا جدًا مع أناس آخرين اختلفت أنت معهم على نفس النقاط التي اختلفت معي فيها.

- أتمم، وأنا ألا أتفق مع أناس آخرين تختلف معهم أنت؟

obeikandl.com

- لا أعتقد هذا، خصوصًا أصدقاءنا المشتركين منذ شكيب ورائد إلى غاية حسن وعبد الكبير.

- لكن رائد أستاذي وليس صديقي إنه أكبر مني.

- صحيح أدهشني قولك هذا اليوم.

- لم؟

- ظننتُ أنكَ ربما تكون نسيتَ أنه أستاذك.. وأكبر منك.. وأقدم منك .

- وكيف أنسى؟ إن الذكرى تنفع المؤمنين وأنا مؤمن وهناك من يذكرني إذا نسيت.

- الحمد لله لكن حاول ألا تنسى كثيرًا فالرفاق يتساقطون تباعًا. وربما لا تجد ذات وقت من يذكرك.

- إن من يسقط لَورقة يابسة آن لها أن تسقط.

- صحيح ويبقى الجذع بعدها عاريًا، لا تنس أنها كانت غطاءه.

- إن من يتكل على ورقة يابسة غطاء حق له أن يبقى عاريًا.

- والعكس صحيح إن ورقة يابسة ظنت بأن جذعًا عاريًا بعدها سيحميها من السقوط لهي ورقة حق لها أن تسقط.

- عمومًا هي غبية.

- يمر الشتاء بكل قساوته على الاثنين، على الجذع كما على الورقات.

- لم تعرف أن من قطع عنها الماء والغداء جدع أناني.

- وللفصول أن تثبت أو تنفي غباء هذه من «ذكاء» ذاك.

- جذع أناني؟

- أناني؟

- ألم أقل لكَ إنك مدهش هذه الليلة؟

- ألم أغير صورتي لأدهش.

- بلى، حتى أنني فكرت لبرهة ربما تدهش نفسك ساعتها.

obeikandi.com

- لا ليس كذلك العجب سيئ والغرور رذيلة.

- نعم، كم تعلمتُ منكَ الكثير!

- وهناك الكثير لأتعلمه منك.

- لا أعتقد.

- أنا أعتقد، فقد سبق أن فعلت. ثق بنفسك.

- لأنـني واثـق بنفـسي قلـت إنـني لا أعتقـد، حـان الوقـت لنبـدل مواقعنـا، فتصبـح أنـتَ الأسـتاذ وأنـا التلميـذ بـكل انتبـاه.

- ومـتى كنـت أنـت الأسـتاذ؟ نحـن في ورشـة، لا في صـف تقليـدي عليـك بعلـوم التربيـة.

- أجـل، هـذا مـا قصدتـه، كنـا بورشـة ولـم أقـل كنـتُ أسـتاذًا، والآن آن الأوان لتصبـح أنـت الأسـتاذ وأنـا التلميـذ، لا بـد مـن الخـروج عـن تقليديـة الورشـات.

- تبديـل المواقـع يقتـضي وضعيـة قبليـة كنـت فيهـا أنـت الأسـتاذ وأنـا التلميـذ ليصبـح العكـس مـتى كان ذلـك مـع فخـري الكبـير بـأن يكـون لي أسـتاذ مثلـك.

- ليـس بالـضرورة. والفخـر والـشرف هـو لي ولمـن عرفـك واكتشـف مـا فيـك وقدرتـك عـلى أن تكـون أسـتاذًا متميـزًا.

- لا يهـم كثـيرًا مـا يحاجـج التلميـذ أسـتاذه، بـل ويتجـاوزه نظريًـا كمـا اليونانيـين القدامى.

- المهم.. وخر لنا فإنا لا نحسن الاختيار.

- أحسن الانتظار إذن.

- صح.

نوستالجي

نوستالجي

أغلق البوابة.

obeikandl.com

الفصل الثالث
سقوط الأقنعة

obeikandl.com

obeikandl.com

الحنين هو الاتصال بزمنين.

عبد الله العروي

«La pensée d’un homme est avant tout sa nostalgie».

Albert Camus

obeikandl.com

obeikandl.com

-١-

المدينـة احتضنتـني بفرحهـا المعهـود، سـورها الطيـني الـدافئ يمـد أصابعـه نحـوي، في كل قصـة حنـين أعـود إلى السـور الآجـوري الأحمـر. أسـتمد الهـدوء مـن تعاليـه التاريخـي وحكمتـه القديمـة. نسـيت ماريـا، أو لنقـل صنفتهـا مـع بـاقي الذكريـات. أكيـد وضعـت لهـا صندوقًـا بنفسـجيًا يليـق بهـا، لكنـه مغلـق بإحـكام. تسـتطيع هـي بفنهـا أن تجـد لـه مكانًـا، زاويـة، غرفـة تضعـه فيهـا. ولتحِطـه بباقـة ورد منوعـة.

وليكـن الـورد أصفـر الغيـاب، سـيد النسـيان، وليكـن فوقـه تـراب السـنين. صخـب المدينـة مـنزوع الشـهوة، شـجرة الكسـتناء المعمـرة ترقـع سريـدة باليـة مـن الصـوف، تـسرب صوفهـا خيطًـا خيطًـا عـبر مجـاري التاريـخ.

المدينـة ترتـدي دومًـا مقاسـات أكـبر مـن فهـم الإنسـان وتـترك لـه مجـال تطريـز حقيقـة تناسـب حاجتـه البيولوجيـة للسـلطة.

المدينـة سـمكة كبـيرة تلتهـم المـاء والأسـماك الصغـيرة الملونـة، لذلـك تجدهـا مبتهجـة بأضـواء متنوعـة، كلمـا قتلـت روحًـا بـدت أجمل.

المدينـة، الغربـة، الضيـاع وسـط الحشـود، التعـدد، الصمـت، هـذه الأشـياء هـي الـتي تجعلـك تكتـب. أمـا القريـة والطبيعـة والـوادي وموسـيقى حفيـف الأوراق وزقزقـة العصافـير فتجعلـك تنصـت فقـط وتكـون إنسـانًا فقـط دون عقـد كتابيـة.

أمـا أنـا الرجـل الجديـد المنطلـق نحـو الحيـاة، الممسـك بتلابيـب أيامـه يعتصرهـا اعتصـارًا ليخـرج منهـا فـرح السـاعة، فـرح اليـوم وفـرح الغـد المـشرق. بعـد انجحـاري المخـزي أمـود إلى الأمـام انزلاقـة عنقـود الأمـل، لا سـقوط ورقـة البـؤس في خريـف الاحتراقـات وصحـارى الذاكـرة. لـن أكـون أصفـر الحـزن تتقاذفـني ريـاح الحنـين، بـل سـأكون

نخلـة العشـق تتمايـل ألقًـا في ربيـع الانتصـارات وبسـاتين الحـب.

لـن أتعلـق إلى حبـال راشـية أكلهـا الـدود ونخرهـا النمـل، بل سأتسـلق بحبـال مجدولـة جبـال العـز الشـاهقة لأستنشـق هـواء الحـب النقـي، وأزفـر أحاسـيس الكبـت المتعفنـة.

لتتدحـرج أيـام الظـلام الكاسـدة عـلى سـفح الصـدق والنـور، لتبقـى الأفـكار السـوداء في جحـر القلـق ولتحضـن الأعشـاش الدافئة ابتسـامات الياسمين.

صـدر الأمومـة يحضـن رضيـع العشـق لينمـو ويكـبر كامـل الملامـح، ممتـلئ جيـوب الحنـان حـتى آخـر طيّـة، إن مـا كان جنينًـا تغـذى عـبر مشـيمة الحـب، يخدمـه الـدم المشـحون بالحـب في بطـن انتفـخ بالحـب لـن يولـد إلا ونفسـه تواّقـة إلى الحـب حـب الحيـاة والنـاس.

سـأكون صخـرة تتحـدى عمـر الـكلام لا طينـة يذوّبهـا مـاء الزمـن، شـتان بـين قعـر الـوادي وقمـة الجبـل.

مضت الليالي الرعناء وجاءت الصباحات.

مضت الخرافات الحمقاء وجاءت الإيضاحات.

نكست الأعلام السوداء ورفعت الرايات.

تدفقـت العيـون انبثقـت عـبر الصخـور والـركام ولـن تخمـد النـيران، لـن يغـيّر الوطـن إلا سـيل أو بـركان.

خريطتنـا الشـوهاء تـزداد تمزقًـا وتمزقًـا، آن لنـا أن نرسـم معالـم وطـن عـلى طريقـة النبـلاء والشرفـاء لا قطّـاع الطـرق وسراق الحريـة.

كان الجـو صحـوًا؛ الشـمس ليسـت حارقـة كعادتهـا في مدينـة قاريـة المنـاخ، مدينـة تسـتقبلني سـاحاتها ودروبهـا كلمـا ضاقـت بي حقـول القريـة وبيادرهـا.

Obeikandi.com

-٣-

نـوادي الإنترنـت في كل مـكان، سـاعة إلى حاسـوب لـن تغـير برنامجـي، بسرعـة إذن أفتـح الفيسـبوك، رسـائل كثـيرة تنتظـرني وقصيـدة. أنـا أكـره الشـعر الـذي يحايـث الثـورات، ليـس الوقـت للشـعر، الوقـت كل الوقـت للمقالـة السياسـية الـتي ترفـع الظلـم عـن الوطـن مقالـة توضـح وتقـترح، تقـول وتنتفـض.

أضغط خانة المحادثات الفورية.

زين من السودان

- كيف الحال؟
- السودان انشطرت نصفين والبشير لا يبشر بخير.
- هل من مصالحة في الأفق؟
- لا فقـط مسـاعدات إسرائيليـة للجنـوب وقرصنـة للسـفن. وكيـف الحـال في المغـرب؟
- ههههه نحن حالة استثناء.

وائل من فلسطين

- كيف الحال؟
- غزة بخير تسلم لي حبيبي.
- لكني سألتك عن فلسطين وليس غزة؟
- فلسطين انقسمت حزبين. هل تريد أخبار الضفة أم القطاع؟
- هل من مصالحة وطنية في الأفق؟
- نعم، سنحتفل بها بعد أيام. وكيف حال المغرب؟
- نحن حالة استثناء.

Obeikandl.com

أدهم من مصر

- مصر يا مهد الثورات.

- اللـه يكرمـك حبيـبي، تفـرق الشـباب عـادوا مـن ميـدان التحريـر لبنـاء الوطـن.

- مرحى للشعب المصري! ستحاصر إسرائيل إذن.

- لا، القيادة الجديدة حافظت على كل المعاهدات.

- لكـن إسرائيـل تتنكـر للاتفاقيـات بمجـرد تغيـير الرئيـس، بـل ونفـس الرئيـس يغـير خططـه بـين ليلـة ومنتصـف الليلـة.

- نحن الآن ننظف الوطن، نهتم بالجبهات الداخلية. وأنتم؟

- نحن حالة استثناء.

رباب من تونس

- كيف حال الخضراء؟

- أنا بخير وأنت.

- سألت عن تونس وليس عنك.

- التنمية أشق من الثورة.

- لكن النجاسة ابتعدت عن البلد وهذا جيد. ماذا عنكم؟

- نحن حالة استثناء عزيزتي.

عمار من اليمن

- ماذا يجري أخي عمار؟

- الرئيس يتظاهر ضد الشعب.

- واللـه لدينـا تلـة مـن الرؤسـاء تسـتحق الدراسـة مـا بـين سـيكوباتي ونشـال هـارب.

- نظم مظاهرة تسانده ولكنه سيرحل سيرحل سيرحل.

- آه لكن لم كل هذا العدد من القتلى؟

- لا يهم؛ إن من يموت شهيدًا لا يموت أبدًا. قال تعالى {ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون}.

- لا خوف على تلاميذ معاذ بن جبل.

- والمغرب كيف حاله؟

- هههه نحن حالة استثناء.

مها من الأردن

- كيف الحال؟

- يا هلا.

انقطع الاتصال.

عاد الاتصال من جديد.

آمنة من لبنان

- كيف حالك؟

- كالحمامة المذبوحة.

- لا، أجدك كالطاووس المتبختر.

- إذن انحني إجلالاً لاكتمال القمر.

- أنت القمر والشمس، أنا من ينحني إكرامًا لسيدة اللغة والأخلاق.

- هربت حروفي مني متعثرة تحاول جاهدة لحاقًا بخيول عباراتك ذات الترانيم الملائكية.

- بل الحروف تهرب نحوك من ملامس حاسوبي تحاول معانقة جملك النورانية.

- أشكر أناملك المراقصة للحروف لتخلق منها نجومًا زيّنت بها سمائي وأثريت بها ليلي.

- الليلة التي تعرفت فيها على آمنة لا تحتاج إلى نجوم؛ هي

obeikandi.com

مضيئـة بـك.

- أكاد أشع من فرط فرحي بصحبتك.

- البلـور يشـع مـن سـطوع خيـط نـور بسـيط ولـو كان خافتًـا مثـلي، الفـرح ينبـع مـن داخلـك أنـت الطيبـة تسـتحقين الفـرح الأكـبر في العالـم فـلا تكـوني حمامـة بعـد اليـوم.

- وماذا أكون إذن يا عطر الزهور؟

- كوني نورسًا يطير من الفرح والسرور.

- سأستمد نوري من ضيائك ومياهي من جداول أنهارك.

- أخجلـت تواضعـي؛ لسـت تلـك الشـمس ولسـت ذلـك النهـر مـن بنـات أفـكارك.

- أين الثرى من الثريا؟ لأنك الثريا طبعًا.

- أنا الثريا؟ أقبلها ولكن أنت القصر قطعًا.

- قصـدت بالثريـا ذاك النجـم في أعـالي السـماء، لا أحـب أن أشـبه شيئًا مـن صنـع البـشر لأنهـم يقيّـدوه، وأحـب أن أكـون حـرة كتغريـدة.

- نعـم، لوحـات الطبيعـة أغـنى مـن رسـوم البـشر ومـن تعـالى إلى التفكـر في الملكـوت هـو الحـر عينـه وقـد اسـتغنى عـن مزابـل الدنيـا، أعـني القصـور.

- في محرابـك لا يسـعني إلا أن أركـع معلنـة إيمـاني بـك، وتصبـح عـلى ألـف خـير.

- يا مريم أنّى لي هذا، بل قولي نم واحلم بأجمل أمر.

-٣-

حالة استثناء.. أقول ذلك حبًا لوطني، فلا يمكنني أن أشوّه صورة وطني، ولكن هذا الوطن تجرأ وشوّه صورتي. حبي له أكبر من حبه لي، تلك طبيعة الأوطان. وماريا أيضًا.

أقول حالة استثناء هروبًا، خجلاً من الجواب الذي هو أن الثورة بطيئة بطء السلحفاة العرجاء.

أليس في بلدي طغيان؟ أليس في بلدنا فساد وقهر وسراق وناهبون؟ لم لا نثور؟ لم لا نثور إذن؟ سنوات التدجين والإخضاع تفعل مفعولها اليوم. المسؤولون يحصدون ما زرعوا في قلوب الشعب من جهل وأميّة وخوف. مسيرات هنا وهناك ولكنها باردة وجافة.

أعتزّ بثورتنا الحمراء الصغيرة في القرية، نعم إنها وطننا الصغير المضطهد الذي قام بمسيرة حمراء دافع فيها عن شرفه. العساكر ضربوا الرجال والنساء، الأطفال والعجزة. تحطمت العظام، سالت الدماء علقت الصور بذهني وترفض أن تغادره. لم تتوقف الشعارات رغم العنف والترهيب، بل سارت المسيرة إلى نهايتها. وسط الجبال وسط الحر وسط الصخر سرنا في هستيريا جماعية، يزداد الغضب مع ازدياد القهر، والشمس الحارقة تساندنا تزداد اشتعالاً، والجبال تزداد شموخًا افتخارًا بنا كأن الجبل بذلك يقول: هؤلاء أبنائي هؤلاء رجالي هؤلاء أبناء الشعب الأحرار الذين سكنوا الجبال قرونًا. استمروا سيروا اقذفوا الغضب في وجه الطغيان، هذا عهدي بكم. إنكم أبنائي الأحرار.

وأتذكر..

وأتذكر..

صورة العجوز المُقعَدَة التي أصرت على حضور المسيرة حملها

أبناؤهـا في عربـة يـد صغـيرة. يتنـاوب أحفادهـا عـلى جرّهـا وحمايتهـا مـن الازدحـام، كانـت ترفـع رأسـها تـردد شـعارات لا تعلـم منهـا إلا أن بيتهـا هـدم وأن بقراتهـا الحلـوب ضاعـت وشـجيرات الأركان والزيتـون الـتي زرعتهـا وسـقتها بيديهـا اجتثـت مـن جذورهـا.

هـي لـم تقـرأ سـيرة الثـوار الصينيـين ولا خـبر تـشي جيفارا، لم تسـمع عـن الثـورة الفرنسـية ولا عـصر الأنـوار. قـد تكـون رأت عـلى التليفزيـون انتفاضـة أطفـال الحجـارة. لكـن في الأخـير هـي مجـرد عجـوز مسـنة أخـذت منهـا أرضهـا غصبًـا، تـشردت، جاعـت، رأت ضيـاع أحفادهـا، فقامـت تـصرخ. وهـذا هـو حطـب الثـورات الجـوع والقهـر والظلـم.

من قال إن الثورات تشتعل بقوة الشباب؟

إنهـا أيضًـا تشـتعل بضعـف المسـنين. إن الضعـف الإنسـاني يوقـظ البراكـين ويفجرهـا في وجـه الحـكام. إن الضعـف الإنسـاني يقلـب أنظمـة الحكـم ويزعـزع أركان الطغيـان. إن الضعـف الإنسـاني حطـب الثـورات.

المسـيرة الحمـراء كانـت رسـالة قويـة إلى الدولـة، الـتي عملـت كعادتهـا عـلى بـث جواسيسـها ومخبريهـا في كل مـكان، في القريـة، في القـرى المجـاورة، في السـوق الأسـبوعية، في المحطـات الطرقيـة، وحـتى عـلى الحافـلات والعربـات، ترصـد كل كبـيرة وصغـيرة، بـل كل صغـيرة وأصغـر منهـا. في المقاهـي عـلى الخصـوص ينتـشر أشـباه المواطنـين لينـشروا الإشـاعات بـين النـاس، وكانـت الإشـاعة الأشـد سـخرية هـي محاولـة ضرب قـوى اليسـار الراديكاليـة، فقـد عملـت الدولـة عـلى اسـتهدافهم بالديـن وقالـت إنهـم لا يصومـون رمضـان لا يصلـون ولا يعبـدون اللـه، فكيـف يمكنهـم مسـاعدة النـاس وتحقيـق العدالـة مـا دامـوا لا يعرفـون اللـه؟

الدولـة البوليسـية المريضـة بمـرض الاسـتخبار ترصـد الميزانيـات الضخمـة لرصـد حـركات المواطنـين وتقلبـات أمزجتهـم وحـتى أنـواع سراويلهـم الداخليـة، إنهـا ميزانيـة تكفـي لبنـاء القريـة ومـا حولهـا وبنـاء

المستشـفى والمدرسـة، ولكـن ليبقـى الشـعب جاهـلاً مريضًـا مهانًـا ترصـد الميزانيـات لتكثـير العيـون الراصـدة والبصاصـين الذيـن يكتبـون تقاريـر يوميـة.

يـا لظلـم الأمكنـة! المدرسـة القديمـة تقفـز قفـزًا إلى الذاكـرة حـين كنـا نغنـي «يـا وطـني الغـالي لـك إجـلالي أنـت في روحـي أنـت في دمـي». ذكريـات مرتبـة ترتيـب المنهـاج الـدراسي وترتيـب السـنوات الدراسـية. كنـا نركـض نلعـب نغـني يـا وطـني الغـالي.. بـين الحشـائش والزنابـق وشـقائق النعمـان عـلى الخصـوص لأنهـا تكـثر في فصـل الربيـع والياسـمين أيضًـا مـن الزهـور الـتي تزيـن فصـول الطفولـة مـن روايـة الحنـين.

أشرطـة أميمـة الخـضراء وظفائـر رقيـة المجدولـة وبذلـة سـمير البيضـاء ونشـيد المدينـة «يـا قـدس يـا مدينـة الصـلاة أصـلي».

أبـا هنـد دعنـا نخـبرك اليقـين، فالوطـن بـات يؤذينـا، وطـن الغربـاء والآخريـن

يطرق مسامير الوجع في قصائدنا حينًا

ويدق نواقيس الإهانة في نثرنا حينًا

وطن الغرباء والآخرين.

يكفـر بأناشـيدنا المدرسـية القديمـة ويأتينـا بسـمفونيات عسـكرية يلحـن بهـا كلمـات السـب والشـتم ويجعلنـا نغنيهـا، لا في سـاحة المدرسـة بـل في مخافـر الشرطـة ودهالـيز السـجون.

يا زجاج التاريخ وقافية الجغرافيا.

يا سطور كراساتنا ودفاترنا، يا كل بيت شعر من محفوظاتنا.

يا كل شرح جانبي وكل حاشية أليمة.

يـا كل قلـب خططنـاه بقلـم الرصـاص وثقبنـاه بسـهام كيوبيـد الشـهيرة.

يـا كل نجمـة خماسـية خـضراء رسـمتها أناملنـا الصغـيرة تتوسـط بسـاطًا أحمـر يتوسـط حديقـة مفروشـة بالزنابـق والسـنابل والياسـمين.

لقـد ثقبنـا جراحنـا ودماملنـا وبثورنـا لنسـقي الوطـن، الوطـن الـذي ظـل يـوزع مناشـير حزينـة في بركـة التاريـخ ليسكت الحناجـر، سـقيناك يـا وطـن، سـقيناك بالـدم والقلـم والأنامـل والصـدور، وانتظرنـاك انتظرنـاك عـذراء الظفائـر والجدائـل تمـشي في حبـور، فجئتنـا ضفدعـة مجهولـة الاسـم منهوكـة الجسـم تلعـن تشـتم تقتـل، غانيـة فـوق السـتين موطـوءة الفـم والقـدم يابسـة النهديـن. جئتنـا خريطـة انشـطرت نصفـين مغـرب لنـا ومغـرب لغيرنـا، بل مغـرب لغيرنـا ومغـرب لغيرنـا. أحمّلـك وزر الطفولـة والحـروف عـلى الألـواح والخربشـات عـلى المقاعـد الخشـبية، أحملـك وزر الدمـع المسـكوب عـلى مقابـر الخيانـة، أحملـك وزر القلـب المتيـم عشـقًا لـك ولكـن أنـت تـصر عـلى أن تكـون وطـن العناكـب والجنـادب والنسـور.

اكتـب يـا مـدوّن التقريـر إن الطفـل سـمير وأميمـة ورضى وكل شـباب العشريـن سـيغنون، لكـن ليـس في مدرسـتنا القديمـة، بـل في سـاحات التغيـير.

أتـت ريـح مكسـورة الخاطـر مـن كـوّة بالبـاب، بعـثرت حزنهـا الـدافئ عـلى سريـري، تقلبـت في حلمـي الأخـير المتعلـق بالثـورة والـذي كان أقـرب رؤاي إلى الكوابيـس، تقـول الريـح إنهـا مـرت بنخلـة عربيـة ومـا أسـقطت تمـرًا، ومـرت بحقـل مـصري ومـا تناولـت فـولاً، ومـرت بجـوز الأطلـس ومـا تسـوّكت، ومـرت بزيتونـة تونسـية ومـا عـصرت زيتونًـا، تخففـت الريـح مـن الـكلام، ونامـت.

-٤-

الذاكرة المتعبة..

نجمع شتات المواقف، وقصاصات الجرائد، رؤوس الأقلام وسجل الأفلام. لنقول كان هنا ورحل صوب المستقبل. غمرته مياه السد الملعون واختفى كما اختفت قريتنا، يرتفع الماء شيئًا فشيئًا، ليغيض الجبال.

الذاكرة المرتبكة..

تحفر القبور بحثًا عن ركام صدئ، لا لتعيد دفنه في قبر لائق، بل كي تنغّص عليك ليلتك، وتحركه من مكانه تحت التراب لتصنع منه صغير دراكولا ثانيًا، هذا مُحال، هي مرتبكة جدًا وترتكب أخطاء تقديرية في تواريخ الصداقة ومواعيد الرحيل وحتى مواقيت الدفن في مقبرة النسيان. كثيرًا ما أوصيتها بعدم تحيين المتروكات في سلة المرميات، ولكنها ببرامجها المعقدة تضبط كودات البرمجة الخاصة على ساعتها الداخلية المحسوبة خارج نطاق رغبتي، تلك اختصاصات خارجية ولا دخل لي بها.

فلتفعل الذاكرة ما تشاء.

شتان بين ضغيب الأرانب وضرضرة النمر، شتان بين حب وحب، ذات زمن كان الغرام يستلقي على جسدي، وكنا غير خاضعين للجاذبية، عصرًا نشرب قهوة القرنفل أو شاي عرق سوس استعدادًا لدهشة المساء، ومع بداية المساء نستكين إلى سطيحة أعلى البيت نراقب القمر، كانت تغرينا البطاقات البريدية ونشتري منها المزيد فرحًا بالورد والقلوب الحمراء الموزعة في تناسق كالعشق تتمدد، وتلك الكلمات من روايات الفرسان والأميرات تتوهج وسط كوكبة الخطوط الوردية. أحبك لا تنسي حبي، أنت حبيبتي، حبي الأول

Obeikandi.com

والأخير، لك قلبي، أنت أو لا أحد. ما أبهج زمن الحب! كأنه طفل صغير عليه أثر النعمة متورد الوجنتين لا يملك الناس إلا أن يعجبوا ببراءته الطفولية، ذات غرام كانت لمفردات الغياب زلزلة الساعة ونواقيس الخطر، وكانت لها دموع الحيرة وبكاء بحيرة العين الزرقاء، وكان لمرادفات الشوق سكاكين الأنين، أما اللقاء فكان عرس الزهر والياسمين.

واليوم..

تسير بمحاذاة السور العتيق لتارودانت ولا تدغدغك أي أتربة، تسبقك حمى جبن وتطوقك وتمنعك الحب، تقتل فيك نسيم الهذيان الجميل عن زمن الوردة الحمراء وكل معانيها المتوالدة.

كيف حالك؟ تطرح السؤال على نفسك.

أنا بخير. تجيب.

وتمضي في طريقك تتلمس أجوبة لأسئلتك الشفافة، تسكب ما تبقى من الحنين على الأرصفة، تارودانت عشيقتي، الذين اتخذوا لهم عشيقات في المدينة يغيروا بهن طعم القرية، يعرفون جيدًا دروب المدينة العتيقة ومكامن قتل الشهوات، زقاقات الخمور والحشيش وماء الحياة، والغابة المحيطة بها، ولكن أنا اتخذت المدينة كلها عشيقة لي، ولا طعم أغيّره سوى طعم التراب على حدسي ومنطقي، لا جسد أشتهيه سوى جسد السور ألامسه وأتحسسه إنصاتًا لي لا له.

أي الطرق أسلك الآن وقد تعقدت المسالك؟

فاجأني خريف من الصور التي لا تتردد في طرح سؤال بعد آخر، بل هو نفس السؤال، ماذا بعد؟ ماذا أعددت لفصل الرياح والأمطار؟ أي درب ستسلك؟ أي منعرج تطوي؟ بل أي شاي تشرب بعد كل الكؤوس؟ ماذا الآن أنير؟ قل تحدث! فكر، ماذا ستفعل الآن؟

ستركب قطارًا آخر من الذكريات يجر وراءه عربات الحنين.
ستغني تلك الأغنيات عن الماضي الحزين.
سترقص.

الآن استقر الزمن على الرتابة، مظاهرات هنا وهناك، انشقاقات في صفوف المحتجين، انسحاب بعض الأطراف عودتهم، لمَ تتصرف كأن الأمر لا يعنيك؟ أكنت تنتقم منهم، لأنهم لم يساندوا ثورتك الصغيرة في القرية؟ ألا تثير شعاراتهم أي حماسة فيك؟ أين حساسيتك المفرطة تجاه الظلم؟ أليسوا شعبًا من المقهورين؟ لم تعد الهتافات ضد الاستبداد تبعث فيك دفء النضال ورعشة المقاومة! أنت ميت لا محالة وسيدفنوك بعد الظهر، ليسقط الاستبداد يقولون أليس هذا مرادك منذ وعيت الظلم وتعلمت قسوة الأوطان؟

الناس في المقاهي ينظرون إلى جموع المحتجين، أي بلد هذا؟ لا يقوم فيه الرجل عن كرسيه في المقهى ليرى مصدر الضجيج والهتاف؟ لو كان شجارًا في زقاق بين سمينتين لهبّوا لفضّه، عجبًا لمن يحمل جريدة الصباح والمساء ويقبع في المقهى تمر قربه مظاهرة تطالب برفع الاستبداد ولا يقوم من محله ليستطلع. أتحمل له الجريد كل الأخبار لدرجة لا يتعب معها نفسه في القيام، أم أن مفعول الجريدة طوال سنوات يسري عليه يخدره كي لا ينهض، أم هو الخوف، أم هو التعالي؟ لا يمكن فهم شخص كهذا.

وأنت ألست منهم؟ لمَ تقف كالبغل تنظر في وجوههم وتتفرس صورهم؟ حتى الحنين لا يستيقظ في سريرك العفن. تقدمت بك السنون يا أنير.

ثلة من الشباب ورايات سوداء، والغضب، لا، بعضهم ليس غاضبًا، هم عاديون يرددون شعارات عادية ربما. ألهذا لم يثيروا شهية الاحتجاج عندك؟

تنخـرط فجـأة في كوكبـة المتظاهريـن ترفـع صوتـك كمـا لتجـرب أوتـارك ودرجـة امتـداد صوتـك، الكوكبـة مشـحونة بالغضـب مسـتعدة لتـدوس سـيارات الشرطـة الـتي تطوقهـا عـن قـرب وعـن بُعـد، خليـط مـن اليسـار الراديـكالي وجماعـة العـدل والإحسـان، وأنـت إلى أي جهـة تنتمـي، لا منتمـي، لا منتمـي أنتمـي إلى الشـعب المقهـور، لا، أنتمـي إلى نفـسي فقـط، الـكل هنـا مـن أجـل الحركـة فقـط مـع طمـس التوجـه الأيديولوجـي، ناقشـت الفكـرة مـع نفسـك، لـم تـرق لـك منهجيًـا وتنظيميًـا، لا يهـم، سـترحل بعـد قليـل، فأنـت كأرنـب سـباق سـتتعب وترحـل وتـترك المظاهـرة تسـير إلى نهايتهـا، الرايـات السـوداء، وعلـم فلسـطين وتونـس ومـصر وسـوريا، لـمَ تحـضر فلسـطين في كل نكبـة؟ هـل تحتفـل بعيـد ميلادهـا مـع كل ثـورة؟ جـرح مشـترك يضمـد بالأعـلام. تلمـح صديقًـا لـك في المدينـة، تقـترب منـه شـيئًا فشـيئًا، ولأنـه قـاص يحـترف الكلمـة، تطلـب إليـه أن يكتـب لـك قصـة قصـيرة عـن رجـل يقبـع في المقهـى ويسـخر مـن الثـوار ويقـول إن دوره أكـبر وأرقى مـن الصيـاح مـع جمهـور مـن الشـباب الملتحـي والتشـيجيفاري، يستسـلم صديقـك لفتنـة المشـهد ويعـدك بـأن يفعـل، فالصـورة مكثفـة مضحكـة هزليـة ودراميـة كمـا يحـب وكمـا كتـب دائمًـا وكمـا يحـب شـخصيات قصصـه، كائنـات ذهنيـة مـن نـوع صاحبنـا عـلى رصيـف المقهـى، يتنـاول قهوتـه بالحليـب ويمضـغ علكـة الفشـل لأنـه ليـس مـن جيـل التغيـير، مـات عـلى جريدتـه منـذ يـوم ولادتـه، حـتى عندمـا لـم يجـد عمـوده المفضـل، وأخـبروه أن صاحـب العمـود معتقـل، حريـة تعبـير تأسـف عـلى مسـاحة السـواد مـكان العمـود لا عـلى الصحفـي الجـريء.

-٥-

ومـع سـمري عـلى الفيسـبوك وصلتـني قصـة شـكيب أريـج كمـا توقعتهـا، سـاخرة في صميـم ملهـاة رجـل المقهـى، أحسسـت وأنـا أقرؤهـا أني سكبت بـولاً في قهوتـه الحليبيـة وأنها استحالت قهـوة ديدان الأرض، وأنـه يتناولهـا كضفـدع أخـضر في مستنقع، قرأتهـا بلهفة بشـوق لأنهـي سـطورها وكانـت كمـا أردتهـا، عابثـة حـد المجـون، رصاصـة مـن مسـدس الحـكي بكاتـم صـوت. عمـود الكهربـاء.

لو تحدث العمود..

لـو تحـدث العمـود القائـم في رأس الشـارع عنـد المقهـى الـذي يفتـح واجهتـين عـلى شـارعين لا تهـدأ حركتهمـا.

تعـالى العمـود واشرأب برأسـه فتـدلى منـه مصبـاح باهت الإضـاءة. كان العمـود يتـوق إلى الحديـث عـن بائـع الديتـاي عنـد قدمـه، عـن الباعـة المتجولـين وأصحـاب الكراريـس والفراشـة، عـن ماسـحي الأحذيـة، وعـن المتسـولين، وعـن المـارة، وعـن رواد المطاعـم والمقاهـي، أحـد هـؤلاء الـرواد يبعـد عنـه بخطـوات. كـم يشـبهه هـذا الرجـل! طويـل مثلـه. جامـد مثلـه. صامـت مثلـه. مثلـه مثلـه.

لـو تحـدث العمـود القائـم في رأس الشـارع عـن هـذا الرجـل، يـأتي كل صبـاح، يقـرأ الجريـدة، يـشرب قهـوة سـوداء، يدخـن بشراهـة، ينظـر بامتعـاض إلى النـاس ويمـط شـفتيه ضيقًـا ممـا يسـمعه، يتابـع حركـة الشـارع، السـيارات، الواجهـات، اللافتـات، المؤخـرات.

العمـود القائـم في رأس الشـارع يخـال هـذا الرجـل مثله، فهو يشـاطره نفـس الإحسـاس إذ يتـوق دائمًـا إلى القيـام بحركـة عكـس توقعاتـه، إنمـا لا يسـتطيع، يـود لـو يعصـف غاضبًـا في وجـه المعربديـن مـن السـكارى، في وجـه المتعجرفـين المعجبـين بأشـكالهم. يـود المسـكين

لـو يلاحـق الجميـلات التائهـات، السـاهرات، الباهـرات الحسـن، الضاربـات بالمؤخـرات ذات اليمـين وذات اليسـار. يـود لـو يلاحـق موكب العـرس ويرقـص فـوق السـيارة المبهرجـة وسـط دهشـة وفرحـة نسـاء ورجـال وأطفـال العائلـة الموقـرة. يـود لـو يلاحـق مظاهـرات الشـباب بالشـعارات السـاخنة لا بعينيـه المبحلقتـين. يـود لـو يسـير جنبًـا إلى جنـب مـع تلامـذة وطلبـة المعاهـد الدراسـية. لـو يتحـدث فقـط.

غمـس الرجـل سـيجارته في المنفضـة وتأمـل العمـود القابـع أمامـه أبـدًا. تسـاءل في قـرارة نفسـه عـن أوجـه الاختـلاف بينهمـا.

يقـف النهـار ومـا طـال، ويسـهر الليـالي بطولهـا وعرضهـا. يقتسـمان الفضـاء نفسـه والدخـان نفسـه. وكلاهمـا يكتفـي بـدور الشـاهد عـلى حيـاة الشـارع.. أكيـد أن العمـود تعاطـف مـع المشردين والمتسـولين لكنـه مثلـه لـم يحـرك سـاكنًا. كـم يشـاطره هـذا السـكون الرهيـب! وأكيـد أنـه مثلـه لعـن قطـاع الطريـق في وضـح النهـار وفي وحشـة الليـل. مثلـه آثـر الصمـت المـذل. تسـاءل الرجـل مـع نفسـه: مـاذا لـو تحـدث العمـود؟

كان السـؤال يزنـزن في رأسـه الأسـمنتية: مـاذا لـو تحـدث الرجـل؟ مثلـه قابـع أبـدًا هنـاك، تتبـدد أمامـه أدخنـة المطاعـم وأدخنـة السـيارات وأدخنـة السـجائر.. يـرى الجميـع مـن أعـلى عليـين. يمقـت تسـارعهم، تهافتهـم، تكالبهـم، لا يشـاركهم في شيء ممـا يفعلـون. محايـد حـد المـوت. لا فـرق عنـده بـين مـن تقيـأ عنـد حذائـه، ومـن مسـح مخاطـه أو دمعـه عنـد قدميـه.

أشـعل الرجـل سـيجارة جديـدة. تأمـل بعينـين فارغتـين متسـولاً مقطوعـة يـده اليمـنى، يسـتجدي براحـة يـده اليـسرى. أكل المتسـول أغنيـة الاسـتجداء. انـصرف. أشـار ماسـح الأحذيـة إلى اسـتعداده لتلميـع حـذاء الرجـل. أشـاح الرجـل بوجهـه.

اسـترق النظـر. اسـترق السـمع. هـؤلاء لا حديـث لهـم إلا عـن البورصة

obeikandi.com

والريـال.. كـم هـم مغفلـون! هـؤلاء أهـل اللـوح والطباشـير لا حديـث لهـم إلا عـن الإدارة والـوزارة.. كـم هـم مملـون! هـؤلاء أهـل الفكـر والسياسـة يخفـت حديثهـم ومـا يلبـث أن يعلـو.. كـم هـم مزعجـون!

طاولتـه كانـت تنعـم بهـدوء مشـوب بالريبـة، فلطالمـا نظـر إليـه البعـض عـلى أنـه مخـبر، ولطالمـا تنـدر بـه بعضهـم. أشـاح بوجهـه حـين احتكـم إليـه أحـد زبائـن الطاولـة المجـاورة:

- هل أنت مع الريال أم مع البورصة؟

لـم يكلـف نفسـه عنـاء الجـواب عـلى سـؤال أحدهـم حـين مـرت مسـيرة احتجاجيـة:

- أأنت معهم أم ضدهم؟

كل الذيـن يسـتفسرونه عـن حاجـة أو سـاعة أو مـكان لا يلقـون عنـده إلا جوابًـا واحـدًا:

- لا أعرف.

لا أحـد أكـثر معرفـة منـه. هـو يعـرف كيـف يمكـن أن تحـل مشـكلة البطالـة في رمشـة عـين وكيـف يمكـن أن يزدهـر التعليـم بـين عشـية وضحاهـا، وكيـف ينتظـم السـير بـدون قانـون سـير. صمتـه حكمـة وعـدم إدلائـه بدلـوه في هـذا العالـم الـذي تكاثـرت فيـه الـدلاء حيـاد إيجـابي، ثـم إنـه لا يسـتجدي الآخريـن مـن أجـل الأخـذ بمعونتـه، مـن يعـرف قيمتـه عليـه أن يأتيـه زحفًـا. يفضـل الانتظـار الأبـدي عـلى الانغمـاس في حمـأة طواحـين تطحـن نفسـها.

في ذلـك المسـاء رمشـت عـين مصبـاح العمـود عـلى غـير العـادة. نظـر الرجـل إلى أعـلى، ثـم عـاد إلى طأطـأة رأسـه.

لـم يسـمع همـس مـن هـم غـير بعيـد عنـه. كانـوا يراقبونـه طـوال الوقـت وقـد تأكـدوا تمامًـا أنـه لا يمكـن أن يكـون إلا مخـبرًا.

وغـير بعيـد منهـم كان آخـرون يخلعـون الشـك ويلبسـون اليقـين «هـذا الرجـل ليـس مخـبرًا مثلهـم».

تلعثـم ضـوء مصبـاح العمـود، تراقصـت حبـال الكهربـاء، ارتبـك الشـارع، مـال العمـود ببـطء مهيـب. كان الرجـل يرفـع رأسـه بهـدوء غـير عـابئ بالجلبـة حولـه. وفي اللحظـة الـتي حـدق في العمـود المتهـاوي، كان المشـهد يرتـج في جمجمتـه وينتهـي.

رأس العمـود متهـدم عـلى حافـة سـطح المقهـى. حطـام كـراسي. سـائل القهـوة السـوداء اختلـط بسـائل أحمـر بأعقـاب سـجائر.. العمـود يجثـم بركبتيـه عـلى وجـه الرجـل المهشـم.

لك صديقي القصة كما طلبتها.

توقيع شكيب أريج.

-٦-

شكرًا لك، ذلك مآله، تلك نهايته المحتومة، وذلك ما أردت له، تمر الجنازة ولا يقف، تمر المظاهرة ولا يلتفت، يمر موكب عروس ولا يبتسم، تقع حادثة سير مروعة ولا يكترث، كذلك ننتقم من عناصر في مجتمعنا بالكتابة، نتخلص منهم دون جرح، نضربهم بقلم الرصاص ولا رصاص، ندفنهم في القبور ولا قبور، نرتكب جريمتنا في صمت أروع من الصوت، نفرغ شحنتنا الكهربائية في عمود كهرباء. شكرًا لك شكيب لأنك بصقت عليه بفم قصة، وأسقطت عليه عمود الكهرباء فلم أعد أنتبه لوجوده بالمقهى، كأنك محوته بممحاة كبيرة عملاقة، فلم يعد يستفزني مروره بجانبي وبريهه الأسود ومعطفه الأخضر الزيتي، وجريدته التي فقدت معناها تحت إبطه ذي الرائحة الكريهة. شكرًا لأنك شاعر وقاص يفهمني، شكرًا لأنك قاتل مأجور لا يسيح دمًا ولا يرتكب جريمة.

سقط العمود؛ فلتسقط جميع الأعمدة ولتسقط جميع الأقنعة، لتظهر الحقيقة ليتعرى الوطن من ثياب الظلم البالية، وسراويل القهر، وليتخفف من أحزمة الخداع ولينظر إلى نفسه في مرآة كبيرة لعله يكتشف أن لا عورة له وأن بإمكانه -هو وحده- أن يمشي بين الناس معززًا مكرمًا، وأن عريه عظمة وشفافيته حكمة، سيكتشف -ولو متأخرًا- أن العري ليس فضيحة خصوصًا حين يتعرى من ملابس الحزن ويتجمل بالشمس والريح والسكينة.

تعرى يا وطن فلا عورة لك.

لا تكون لك أجهزة تناسلية إلا حين تقنع نفسك بأن جهازك العسكري يستطيع حل كل المشكلات العويصة، آنذاك تصبح لك مساحة عهر تتسلى بكشفها أمام الجميع، حينذاك سيستنكر

البعـض فعلتـك ولكـن الأغلبيـة ستسـتلطف عُريَـك الفاضـح؛ حـين يكـون الوطـن أنـثى ترمـي بالخطيئـة عـلى رصيـف التاريـخ المنزلـق، آنـذاك سـيتمتع الكثـير مـن تجـار الوطنيـة بالتفـاوض حـول ثمـن الليلـة وكماسـوترا القبـض والمسـاومة، آنـذاك سيفترشـها قطـاع طـرق حريـة ويفترعهـا شـواذ القانـون.

ألبـس ليـلي وأنـام عـلى سريـر الرغبـة، الرغبـة في التغيـير، أزيـح عـني حاسـوبي الـذي أضعـه عـلى صـدري لأنـام، ولكـن قبـل رفعـه تأتيـني رسـالة عـلى الفيـس مـن عبـد اللطيـف يقـول:

- تصبح على وطن حر.

قلت له مازحًا:

- تصبـح عـلى حـب، فالوطـن يحتـاج حبًـا أكـبر مـن ذي قبـل يـا صديقـي.

كثـيرون تؤرقهـم حـال الوطـن، كثـيرون يحبـون وطنهـم بصـدق. لا ينامـون إلا والوطـن عـلى أسرتهـم يداعبهـم ويداعبونـه، يقبلونـه قبلـة مـا قبـل النـوم ويغطونـه، بأدفـأ غطـاء. هـؤلاء يعرفـون أن الوطـن ليـس بذكـر ولا أنـثى، يعرفـون بـأن الوطـن جسـد دون عـورة، مـلاك مـن نـور ولا أحـد يسـتطيع إطفاؤه، ولـو اجتمعـوا.

كان العمـود ليسقط عـليّ لـولا بعـض جينـاتي الثوريـة مـن زمـن يوبـا ويوسـف بـن تاشـفين وماسينيسـا وعـلي الكومـي، وتكفارينـاس.

لـو استمرت الأعمـدة في السـقوط لفـرغ المقهـى مـن كل زواره، لخيـم المـوت عـلى المدينـة ولجـأ أنـاس مـن الكواكـب الأخـرى ليقطنـوا فيهـا وتلـك القلـة القليلـة مـن المعارضـين بجيناتهـم الرفضيـة سيحسـون باللا وجـود في مـكان عمرتـه كائنـات مـن كواكـب أخـرى ربمـا مـن نجـوم بعيـدة، ولكـن الأعمـدة فضلـت الصمـود خوفًـا مـن التغيـير وبقيـت كمـا هـي جذورهـا في التربـة ورأسـها في السـماء هـي لا تنظـر أبـدًا إلى مـا يقـع، بـل تغـض الطـرف عـن كل شيء.

سأنام، فصوتي بُحّ من الصراخ وترديد الشعارات المعارضة، كانت ضد كل شيء، الفساد، الدكتاتورية، الرشوة، المحسوبية والزبونية، حبالي الصوتية تمددت وعضلات وجهي متعبة، سأنام، سأنام نومًا طويلاً ثقيلاً، وقبل ذلك أمر على غرفة أمي، أطل من الباب طلة خفيفة للاطمئنان عليها، أغلق الباب بحذر مخافة إيقاظها بعد منتصف الليل.

أسمعها تنقلب إلى الجهة اليسرى، اليسرى نعمن هي تنام أولاً إلى الجهة اليمنى تردد أوردة وأدعية ما قبل النوم وهي متكئة على جنبها الأيمن، كأنها لم تنتبه لإطلالتي ولكني أعلم يقينًا أنها أحست بي، أنها انتظرتني، حين لا ينتظرك أحد في البيت فاعلم أنك عبثي، وحين تنتظرك أمك العجوز اعلم أنك ممتلئ حتى النخاع بعصير الحياة، فلتنتظريني أمي الطيبة، فقد انتهى زمن العبث.

سأنام، منذ مدة طويلة لم أشعر برغبة في النوم العميق، كأن المظاهرة ساعدتني على تفجير مركبات الأرق التي تعسكر في جوفي، بهدوء إذن أنسحب إلى غرفتي الرمادية حيث كل شيء رمادي كمنزل كوكاكولا، مشروب الصودا هذا لم يكن له لون أسود بقدر ماكان يمزج ألوانًا من الأحمر والبني والرمادي والجنسي والصيفي واللذيذ وكل ما تعالق به من ألوان الفرجة والفرح بحكم تاريخه الكبير في الإشهار الذي يرافق المغاربة كظلهم. مع كل مناسبة تخرج قنينة الكولا كعروس في حُلّة جديدة تتدلى لها ألسنة العطشى والجوعى للمتعة. وعدا الإشهار فهو مشروب كغيره سكريّ المذاق، ترافقه صور تلفزية من أحلام اليقظة والجوائز التافهة والكثيرة. ما كان يهمني فيها البيت الذي اتخذته لنفسها في الشرق، بيت كوكاكولا

وتصميمه العالي الذوق والرفيع المستوى، والذي أوحى لي بديكور غرفة النوم في بيتي المديني، الذي أقطنه أنا وأمي ولم تدخله أنثى غيرها سوى بعض الجارات بحكم التواصل الاجتماعي، حتى أن الطيبة لم تقبل بدخول خادمة للبيت واكتفت بمساعدة الجارات لها في القيام ببعض الشؤون الصغيرة، فهي دائمًا تقول لا عاشت امرأة تنتظر امرأة أخرى لتغسل ثيابها وتطبخ لها طعامها، وقد ضغطت عليها بشدة لقبول خادمة إفريقية من المهاجرات لكنها رفضت.

كان لي عدة منازل، فحياة الترحال والتهجير التي عشتها في صغري علمتني قانون الاحتياط، وكانت عقدتي مع المنازل أعقد من أن يحلها معالج تنموي، كنت أمر من المدينة وأشعر بحمى العقارات تسري في دمي.

لذلك كان لي أكثر من بيت وامرأة واحدة.

ولكني أبدو تائهًا بلا عنوان أسير إليه، أينما اتجهت أجد بابًا يفتح في وجهي، ولكن.. يبدو الأمر صعبًا بعض الشيء. تلك أبواب حديدية سهلة الفتح بأقفال مفاتيحها بين يدي، الأشق عليّ فتح باب لا أملك مفتاحه ولا أملك عنوانه أصلاً. باب المستقبل.

سأنام، أكتب على الفيس آخر تعليقاتي، وقبل أن أتممها يأتيني تعليق من زمن الصداقة البنفسجي، قائلاً:

«صديقي أحتاج إليك، فمتى سترفع وجهك عن كتبك لتتفقد من قررت أن تعدمهم دون محاكمة عادلة وتقبرهم في مقبرة النسيان قسرًا دون أن يحين أجلهم؟ أحتاج إليك صديقي قبل أن أصير مجرد ذكرى ويصير الرثاء مجرد هراء، أحتاج إليك دون أن أعلم السبب.. أحتاج إليك».

فيما قد تحتاج جسداً محملاً بأطنان الذكريات المعلقة إلى حبل الغسيل الرث، المتسلقة جدران القيم البالية كثوب قديم

من الصوف الذي نخرته المجهريات، فيما قد تحتاج رجلاً وضع نفسه رهن إشارة العقارات بعد أن تركته المرأة الوحيدة التي أحبها بسبب منع نفسه من البحث عنه خجلاً من ألا يفهم، فيما قد تحتاج رجلاً ظل يتساءل عن الحب ومعنى الحب إلى أن وجده وفقد معناه. فيما قد تحتاج رجلاً ليس له من الحياة وسورها غير قطعة من شِعر السيّاب.

أنت الذي غبت دون سابق إنذار دون وداع دون اعتذار، أنت الذي رحلت وتركت وراءك قصة من زمن الصداقة الجميل، وقطعة من السفرجل والرائب ومحلبة تيسافين، وكل تلك الأماكن من أولوز من تليوين، من حد إيمولاس من تمضغوست من هركيتة من تمالوكت، التي أكلت أقدامنا.. وتركت وراءك أوراقًا تتحرش بذاكرتي سميتها نوستالجيا الحب، فيها نون النسوة من بنات أحلامك وبنات أفكارك، وتركت دفاترك ومذكراتك، كانت حملاً ثقيلاً أضفته إلى القفة الصخرة التي ترزخ على صدري وتجثم على أنفاسي، لم حملتني وزر الفراق، لم حملتني وزر الأصنام المعبودة في ثنايا الظلام، لم حملتني ثقل النوايا وعمق الخفايا، ألتجعلني كاتبًا؟ ها أنا ذا أحرق مرسومك العشري، وأتلو من غير مستنداتك، ها أنا ذا سمسار عقارات كما لم تتوقع من قبل، ولي في كل بيت حائط وفي كل درب منزل، أردتني حقًا شاعرًا أردد تراتيل السياب حزنًا على كل لحظة غضب، أردتني قطًا يقفز في تدلل ليلتقط فتات الخبز، أنا نمر يصطاد بقوة عضلاته.

تفتت قطع الزجاج وتكسرت صورة الليل في ثنايا التاريخ المنسي.

كتبي ودفاتر شيكاتي، أقلامي الحبرية وحساباتي البنكية ورسومي العقارية.

وارتباط جاد بالمكان، الأرض الطيبة، وعبقريتها في الاحتفاظ بروائح الحدث، الحدث مهما كان هذا الحدث نقبض عليه حبلاً كان أو

obeikandl.com

جمـرًا أو ثلجًـا، نقبـض عليـه بالذاكـرة نخزنـه في أعمـاق الجسـد.
أحيانًا نحتاج الهذيان.

obeikandl.com

-٩-

سمسـار.. حرفـة لا تعلمـك أن تترصـد العـروض وتنتهـز الفـرص فقـط، بـل تعلمـك أيضًـا قـراءة النظـرات في عيـون البائـع والمشـتري، والاقتصـاد في تقديـم المعلومـات، فالعـصر عـصر المعلومـة، قـل لي كـم تعلـم أقـل لـك كـم ثروتـك، أحيانًـا كل معلومـة تسـاوي ثـروة مـن الدراهـم وهـذه المهنـة وإن كنـت تعلمتهـا تطفـلاً وفضـولاً فقـط، فقـد عصرنـت خدمـاتي وأقمـت مكتبًـا فاخـرًا، رغـم أن سـلوكي التجـاري بقـي تقليديًـا يعتمـد التنقيـب والعلاقـات العامـة والتشـارك والتراجـع والغـدر والإشـاعة وأشـياء أخـرى مـن قبيـل أسرار المهنـة.

فيـلا عـلى شـاطئ البحـر لا تغريـني، لأنهـا بيعـت مئـات المـرات عكـس دار مثـلاً في المدينـة القديمـة، الـتي قـد تـدر أمـوالاً طائلـة بإعـادة اسـتصلاحها وتغيـير ديكورهـا الداخـلي أو حـتى تحويلهـا إلى ريـاض سـياحي أو دار إقامـة وضيافـة.

كنـت مجـرد كاتـب بسـيط لـديّ منعـش عقـاري أكتـب في صمـت معاملاتـه وتعاقداتـه، بـدأت أفهـم شـيئًا فشـيئًا لغـة السـمسرة وإيتيكيـت النفـاق والخـداع القانـوني والبيـع والبيـع المضـاد، ومبـدأ اخـسر قليـلاً اليـوم لتربـح الضعـف غـدًا، ومبـدأ الفكـرة أهـم مـن رأس المـال، ومبـدأ العمـل عمـل والصداقـة صداقـة، ومبـدأ الكلمـة غـير الموثقـة كالهـواء.

كان الحـاج سـليمان يعلـم أني أتعلـم منـه، بـل وأني أسرق أسرار مهنتـه، وحـتى بعـض علاقاتـه، لكنـه لا يمنـع عـني ذلـك ولا يغضـب، كأنـه أحـس بأسـتاذيته لي وأحيانًـا أحـس مـن إشـاراته أن درسًـا مهمًـا عليّ الانتبـاه إليـه عـلى وشـك أن يقـدم، خصوصًـا حـين يحتـدم الـصراع حـول بقعـة أرضيـة جديـدة، أو في عـروض المؤسسـات العموميـة

Obeikandi.com

وإدارات الدولـة الـتي تعتـبر مـوردًا لا ينضـب للمنعشـين العقاريـين، ولكـن هـذه الأخـيرة تتطلـب أن يخلـط الإنسـان السياسـة بالعمـل الجمعـوي بالعقـارات.

فـلا فائـدة مـن الاسـتثمار في منطقـة لـن تقـوم الدولـة نفسـها بمدهـا بالمـاء والكهربـاء ومجـاري الـصرف الصحـي، وهنـا ضرورة الحصـول عـلى المعلومـة الصحيحـة في الوقـت المناسـب ولا مصـدر لهـذه المعلومـة غـير موظـف رخيـص مـن إدارة مـا.

الحـاج سـليمان بجلبابـه ولحيتـه يخـتزل كبريـات النظريـات في الاقتصـاد والتدبـير والأعمـال، بـل أربـع شركات تحـت طاقيـة واحـدة، هـو لـم يحتـج إلى كاتـب يديـر مواعيـده أو لقاءاتـه، فدماغـه عبـارة عـن مكتـب سـكرتارية أنيـق ومرتـب. عـلى خـلاف مكتبـه العقـاري الـذي كان أقـل مـن متواضـع، بكـراسٍ خشـبية وأريكتـين قديمتـين ضـاع لونهمـا تحـت الأوسـاخ المتلبـدة عليهمـا، كانـت حانوتـه، إذ لا يمكـن أن نسـمي المـكان مكتبًـا عـلى كل حـال، مقـرًا للكتابـة العموميـة، وهـي حرفتـه الأولى قبـل أن يبـني مجـده، وتحولـت شـيئًا فشـيئًا إلى مكتـب عقـارات بيـع – شراء - كـراء. لـم يطلـق الكتابـة العموميـة لأنهـا بدورهـا تشـكل ركنًـا مـن أركان السـمسرة ومصـدرًا مـن مصـادر المعلومـات، فكثـيرًا مـا تحولـت شـكايات حـول الإرث إلى فـرص ربـح كبـيرة تحـول معهـا الإرث إلى ملكـه الخـاص.

كان الحـاج سـليمان مسـتمتعًا بالحيـاة إلى أبعـد الحـدود، تـزوج أربـع نسـوة كلهـن عـلى شـاكلة واحـدة كأنهـن خرجـن مـن مصنـع واحـد أو أن هـذا المصنـع وقـع عقـدة مـع الحـاج لتخريـج دفعـة تحـت الطلـب، كان يشـترط في المـرأة -كمـا أخـبرني وكمـا لمحـت بـأم عيـني مـرة وأنـا في بيتـه- أن تكـون عـلى قـدر مـن السـمنة يفـوق مئـة كيلوجرام ومـا زاد فهـو خـير، العينـان يحبذهمـا زرقـاوان وإن اخضرتـا فـلا بـأس بذلـك، هـذان ركنـان أساسـيان في القبـول والطلـب، لا أذكـر أن لـه مغامـرات أخـرى

خارج الزواج، فهو على قدر كبير من الإيمان، لا تفوته صلاة في المسجد مع الجماعة، ويصوم كل يوم إثنين وخميس، يحفظ كل الأوراد اليومية من الأدعية والآيات القرآنية، يرفع يده بالدعاء عند كل صفقة أو عقد، أنظر إليه أحيانًا فأجده على قدر من الطمأنينة والسكينة التي يورثهما الاستقرار والثبات في اتخاذ القرارات، وربما هو وجهه المستدير وألوان ملابسه التي يغلب عليها الأبيض هما ما يزيداه وقارًا وهيبة بين الناس وفي نظري أيضًا، ولكنه يتحول إلى مقاول شرس لا يمكن التلاعب به خصوصًا عند اشتداد المعارك.

تلك حياة الحاج الذي كان يكره السفر، فجل حياته قضاها في تارودانت، له صديق مقرب وهو صائغ على قدر كبير من الغنى لكنه مختلف عنه تمامًا، له زوجة كمسمار الكباب تكره الذهب وهذا ما جره إليها، فقد تأكد أن مخزوناته من الذهب والفضة لن تكون السبب في تعلق المرأة به، يهتم كثيرًا بها وبطلباتها وأسفارها وعلاقاتها. الفرق بينه وبين الحاج سليمان أيضًا أنه كان على قدر من الثقافة يحمل بين يديه، بين الفينة والأخرى كتابًا باللغة االفرنسية بما أنه خريج مدارس النصارى على عهد الاستعمار فكانت تربيته على الكتاب والقراءة تفعل مفعولها فيه، تلصصت يومًا على عناوين كتبه التي يتأفف منها الحاج سليمان حسدًا ربما أو لا مبالاة فقط، فإذا بي أقرأ: نجمة، كاتب ياسين. جيرمنال إميل زولا.

استغربت علاقتهما بداية وكيف أمكن أن يجتمعا معًا، وجدت التفسير في كتب الفيزياء التي تقول إن السالب والموجب يجذبان بعضهما بعضًا، هما كذلك الحاج سليمان والسي منير الذهبي، يلتقيان على طاولة الضحك وتبادل النكات، الحاج سليمان يرى كل شيء بعين ضخمة كما يقول الذهبي، حتى المرأة يجب أن تكون أضخم لتسد عينه، أما الحاج سليمان فيقول عن الذهبي

إنه يقتصد حتى في وزن عظامه، وتنتهي غالبًا حواراتهما مع أذان العشاء، عندما يتجهان إلى المسجد حيث يعيد الحاج تجديد وضوئه بينما يدخل الذهبي المقصورة مباشرة فهو مقتصد أيضًا في ملء كيس بطنه.

للذهبي ولد واحد يدرس في فرنسا بجامعة السوربون، يدرس الأدب الفرنسي الحديث، ورث حب الفن والكتاب عن أمه التي لا تفارق الكتاب في حلها وترحالها، أما الحاج فله أبناء من كل امرأة أغلبهم في سن الباكالوريا والجامعة يستحيل أن يقبل منهم مغادرة الدراسة قبل الباكالوريا طمعًا منهم في العمل معه، بل يجبرهم على تكرار المستوى حتى يتجاوزوه بنجاح، بمجرد حصولهم على هذه الشهادة يمكنهم أن يفعلوا بحياتهم ما يشاؤون وله أن يموّل كل مشاريعهم، ولكنه يطلب منهم طلبًا واحدًا أن يعتمدوا على أنفسهم لبناء ثروتهم لا عليه، أما البنات فلهن حق الاختيار بين المكوث في البيت أو الزواج، ويستحيل في نظره أن تذهب الفتاة للدراسة بعيدًا عنه في مدينة أخرى، ولو كانت قريبة مثل مدينة أكادير الجامعية، فكل القصص عن بنات الجامعة الحقيقية منها والمزيفة، المرئية منها والمسموعة تجعله يتحجّر على موقفه رغم مراجعات صديقه الذهبي، والحقيقة أن له جواهر كالألماس ليحتفظ بهن في البيت، كلهن شقراوات، زرقاوات العيون، إذا حدث ومررن أمام المحل يتبعهن إلى أن يدخلن الرياض الذي يسكنه، لا يراقبهن ولكن يراقب الأعين التي تتربص بهن والأعناق التي تتطاول من الدكاكين المجاورة لاستراق النظر.

- اخجلوا لعنكم الله. لا تحسنون سوى التبصص على الناس، العمى، العمى لكم.

كذلك يصرخ في وجه من حدث ورآه يحملق فيهن.

Obeikandi.com

هناك رجال بحجم الجبال يجب أن تلتقي بهم ليغيروا حياتك رأسًا على عقب، من أمثال الحاج سليمان، عليك فقط أن تتصف بالنباهة وتبعد عن نفسك بلادة المقهورين وغباء الطبقة الوسطى، انطلق فهناك أكثر من باحة لتجري فيها.

كان الذهبي ينظر إليّ مرارًا وتكرارًا ويقول للحاج: من أين أحضرت هذا الصيني؟ إنه يعمل كالآلة. يظل منحنيًا لا يرفع بصره حتى ينهي كتابة العقود والالتزامات.

يرد الحاج مفتخرًا: سيماهم في عيونهم.

ينخرط الاثنان في جوهما المرح، لا يزعجني أبدًا حوارهما، بل كنت أحبه، وأترك شعري ينسدل على وجهي ليخفي ضحكاتي، فلم أكن أرفع بصري ولكني كنت أرفع سمعي وألتقط كل صغيرة وأصغر منها.

كان شيء في هيأتي يحبب الناس في، ربما قصري، شعري وربما عيوني الصغيرة السوداء، لم تكن الطفرة الجينية تهم شعري، فقد كان أفراد عائلتي كلهم بنفس المواصفات، إلا أن عينيّ كان فيهما سواد خاص ونهايات إلى الأعلى تجعل من ينظر إليّ يصنفني من ميكانيكيي شرق آسيا أو يعتقد أني من الصيادين الصينيين الذين يعملون على المصانع العائمة وينزلون بشواطئ المغرب، أما القِصَر فكل أبناء الجبال قصار القامة وحتى لو لم يكونوا كذلك تجد أن ركبهم قد طويت من كثرة المنحدرات والمرتفعات التي يمشون عليها.

وكأهل آسيا الشرقية، عملت على بناء جسدي، وكانت الأثقال التي أتدرب عليها قد بنت كتفي وصدري وجعلت رقبتي أكثر امتلاء

ورأسي مرفوعًا نحو الأمام فكل قصار القامة تجدهم يتطلعون إلى الأعلى، ما ورثته عن الجبل كان غزارة شعر لحيتي وصدري وأطرافي خلافًا للجنس الأملط من الآسيويين، كانت كاترين أشد المعجبات بشكلي، وكانت تقولها في جميع المناسبات، ولكن عفويتها في قولها تدل على أنها لم تكن مغرمة بي، كنت في نظرها لوحة جميلة لا غير، ولو كان لي إطار كما تقول ستعلقني في فندقها الصغير الذي تديره بنفسها داخل المدينة، وتدير أيضًا رياضًا ملحقًا به في ضاحية بعيدة قريبة من الوادي، كاترين الفرنسية تعرفت عليها في هذه الفترة بالضبط التي بدت فيها بتكوين مكتبي وعلاقاتي. هذه الفترة التي سكنت فيها منزلاً مشتركًا مع مهندس كمبيوتر مبتدئ ما زلت أحمل له الود في قلبي، ورافقتني في كل مراحلي كما رافقتها أيضًا وكانت صديقة من نوع خاص، حتى بعد أن نقلت عملها السياحي إلى أكادير احتفظت بمشروعها الأول، ليس وفاء للمدينة بل لأن من المحتمل أن ينتعش من جديد ولأنها تتخذه ملجأ لها حين تتعب وترغب في استراحة بعيدًا عن ضجيج المدن الكبيرة. فمع كاترين لا نتحدث عن الوفاء في مجال العمل ولا مشاعر في المال، هي إذن مربيتي التجارية، ومنها تعلمت بقية الدروس التي لم يحضرها الحاج.

وكان لها موقفها الخاص من ماريا، عملتا معًا على الفندق الصغير وعلى الرياض خصوصًا ولكنها تقول دائمًا إنني مجنون بحب غير مقنع، فما يجمعنا أقل بكثير مما يفرقنا، وكانت تتعجب من وفائي الشديد لكل شيء. فأنا أتعلق بالأوراق والأقلام التي أكتب بها، فكيف أنسى امرأة بحجم الحب نفسه. وكاترين تحلل الأمر على أن تعلقي بها هو من منطق تعلقي بكل الأشياء وخوفي من الفقدان. وأن ماريا ليست إلا موضوعًا من مواضيع تعلقي.

هذا تحليل خاطئ، فأنا أحببتها حقًا لذاتها ولأنها ماريا وفقط.

-١١-

عملـت بجـد، في منطقـة صغـيرة بحجـم سـهل سـوس، كانـت لي رحـلات مكوكيـة بـين التجـار وبـين الأراضي والـدور والعمـارات، كنـت أتنقـل بسـيارة تاكـسي وبعدهـا بسـيارة رباعيـة الدفـع مكيفـة، لـم أكـن أحـس بتلـك التغيـيرات البسـيطة في حيـاتي لأنهـا كانـت مرتبـة ترتيبًـا زمنيًـا لا يختـل، وكلمـا كـبرت أعمالـك تـزداد حاجتـك لوسـائل الراحـة والتسـلية. وتتسـع رهاناتـك وتصبـح شـيئًا فشـيئًا رجـل أعمـال، ولكـني أكـره هـذه التسـمية وأحـن دومًـا إلى نعـت سمسـار عقـارات، تلـك مهنـتي ومـادتي الأوليـة.

كل مـا سـتفعله بعـد ذلـك هـو الاحتفـاظ بأرقـام هواتـف تديرهـا عنـد كل عمليـة، يكفـي اتصـال أو اثنـان لتكـون قـد ربحـت نسـبة مهمـة. ويكفـي أحيانًـا أن تصـل هـذا بـذاك وتنسـحب بعمولـة تفـوق حجـم ميزانيـة مؤسسـة.

obeikandl.com

الفصل الرابع
شريان ريح شاردة

obeikandl.com

obeikandl.com

تعالي معي لنصنع الليلة ماضيًا مشتركًا
يقول المريض بالحنين
سآتي معك لنصنع غدًا مشتركًا
تقول المصابة بالحب
هي لا تحب الماضي وتريد نسيان الحرب
التي انتهت
وهو يخاف الغد لأن الحرب لم تنته
ولأنه يريد أن يكبر أكثر.

الشاعر محمود درويش

obeikandl.com

obeikandl.com

-١-

وأن تكـون في الأربعـين مـن عمـرك، أعـزب، بـأوراق كثـيرة تتحـرش بـك ولا وقـت لديـك للكتابـة عليهـا، تلـك مسـألة أخـرى، أن تنصّـب نفسـك مـؤرخ قريتـك، بـل مـؤرخ جراحاتـك ومنعرجـات فجائعـك، قلبـك الـذي يسـيل مـع كل ذكـرى بـدم الحنـين، لا يسـمح لـك دومًـا بـأن تكـون سمسـار عقـارات فحسـب، بـل يطالبـك في المقابـل بصفقـة حـزن غريبـة، ففـي الأعمـاق يسـكنك رجـل فاشـل، فاشـل في الحـب وفي الثـورة، في وطـن فاشـل، فاشـل في التغيـير وفي الثبـات، تحاربـك امـرأة انسـحبت دون مقدمـات مـن حياتـك لتـترك الجفـاف واليبـاس، وتلـك الكتلـة مـن نسـوة الدقائـق اللـواتي يفشـلن هـن أيضًـا في الإحاطـة بحزنـك، فينسـحبن مـن مجالـك العاطفـي غـير نادمـات عـلى مسـار رجـل أربعيـني محمـل بالهواجـس ومسـكون بامـرأة واحـدة حطمـت مشروعـه العاطفـي وتتحـرش بقريتـه المهجـرة لتلقـي فيهـا بمشـاريع زوجهـا الـثري.

تلـك المـرأة ماريـا، ليسـت ماريـا اليـوم بـل ماريـا الأمـس البعيـد، السوسـنة الـتي تطـير بـلا أجنحـة وتحـط في عـش العشـق.

ليسـت تلـك الـتي رفعـت التحـدي وباعـت مـا تبقـى مـن نظـرات الحنـان، ماريـا الأمـس البعيـد، الـذي يبـدو أبعـد مـن الحقيقـة، هـو أمـس الغمـوض والرحيـل.

الجرح جرحان، مدية وطن وغدر حب قديم.

ماريـا.. إن كنـت أنـت سـيدة الزوايـا الضيقـة فأنـا رجـل المسـافات الطويلـة.

ماريـا الشِـعر، ماريـا الوطـن، ماريـا الـكلام والهمـس، سـيجمد جسـدك بالكلوروفيـل، كأي ضفدعـة مختـبر، لأنـك أنـت مـن سـمحت

لنفسـك بـأن تكـوني شـيئًا مـن أكسسـوارات الرجـال، الرجـل يملـك السـلطة والمـال وبإمكانـه تحنيطـك داخـل المـنزل لتحـضري معـه حسـب الطلـب سـهرات رجـال المـال، ترتديـن فسـتانًا موقعًـا مـن غـيره وحـذاء بكعـب أقـصر كي لا تنفضح قامتـه القصيرة وأنـت قربـه. وستبتسـمين ببلاهـة كلمـا مـر بقربـك رجـل مهـم. ابتسـامتك سـتكون صفـراء مسـتطيلة. لـن يصدقهـا أحـد. وضحكاتـك المدويـة سـتخفت تدريجيًـا.

ماريا الوطن..

هـل اعتقـدت يومهـا أني سـأظل الكاتـب العمومـي، يمـلي عـليّ الحـاج سـليمان مـا أكتبـه وأني لـن أرقى إلى مسـتوى الصفحـات الأنيقـة مـن وحـي الشـعر؟ خـاب ظنـك، هـا أنـت امـرأة ديكـور كمـا لـم ترغـبي يومًـا، هـا أنـت معْلمـة وطنيـة يلتقطـون حولـك صـورًا تعيسـة، هـا أنـت قـد فقـدت اسـمك الـبرّاق وأصبحـت حـرم فـلان، جنبًـا إلى جنـب أنـت وهـاء الغيـاب.

أنـت كالوطـن، يضعـك التجـار والعسـكر في إطـار ذهـبي كواجهـة، كسـتار يغطـي جرائمهـم اليوميـة، عاريـة أنـت رغـم كل الأثـواب الـتي تشـترينها مـن المحـلات الراقيـة. مـن زارا عـلى الخصـوص، فأنـا مـا زلـت أتذكـر ذوقـك، دون أن تملـكي حـق نقـد ألـوان الموضـة. فهـي الموضـة وعليـك ارتـداء مـا عـلى الموضـة، مـن أجـل الواجهـات الزجاجيـة الباردة.

هـا أنت امـرأة بلاسـتيكية حزينـة، بالصباغـات الزيتية تزينك رتوشـات الآخريـن، امـرأة جميلـة مـن زمـن الصمـت والقصـور الباردة.

ومـع مـرور السـنوات، تتغـير الأوضـاع ولا أتغـير، مـا زال ذلـك المهجـر في داخـلي، يكـزني بالذكـرى مـرة بعـد أخـرى، ولكـني أحـس بأنـه بـدأ ينهـار ويتراجـع شـيئًا فشـيئًا، أمـام سـاكن جديـد أكـثر حزمًـا وأكـثر لا مبـالاة وأكـثر نسـيانًا، أن تعيـش وداخلـك أكـثر مـن شـخص يطالـب بحقـه في جسـد واحـد، كل واحـد يهـزم الآخـر في جولـة مـن

الجـولات والنتيجـة الحسـم لـم تقـرر الفائـز بعـد، إلا أن الملاحـظ تراجـع الطفـل المهجـر المسـلح بالمـاضي الدفـين أمـام المسـتثمر السمسـار المدجـج بالمسـتقبل.

obeikandl.com

obeikandl.com

-٢-

الصمت الثقيل يحيط بالمكان ولا يعكر صفوه إلا طقطقة المنبه الأثري القديم بعقاربه النحاسية الثقيلة، كل شيء ثقيل ولا يتحرك.

تمثال واحد تسكنه مجموعة من الأساطير القديمة، تنسج حوله الكثير من الحكايات بعضها صحيح وبعضها شهرياري ينبع من عظم الخوف ووطأة الموت. تمثال واحد تسكنه بعض الأشياء السرية اللا مرئية لا يرتعش لخبر ولا يهتز لإشاعة بل يظل محتفظًا بصمته الأنيق. ينتظر أن تنحني أمامه العيون المندهشة لصلابته وقوته.

أن تترك الماضي وتتنكر للطفولة أصبح شيئًا ضروريًا للاستمرار، ولكن ونحن نبتعد نشعر بالغربة كغربة المهاجر، تتباطأ خطانا وننظر كل حين إلى الوراء وقد نتعثر ونسقط على وجوهنا وندميها.

حين يتخصص جسدك في إنتاج الحيوانات المنوية والفشل، تصبح بلا ريب شركة تقاول في الاستثمارات الحزينة، تصدّر إلى الداخل موجات كهروعاطفية تطبطب على كتف الحزن المحلي وتنعشه ليستقر ويزداد.

وأنا أتحدث إلى نفسي أستعمل معجم المال وسجلات الأعمال، حقيقة مُرّة إذن أن الطفل المهجر غلبه النعاس ونام على حصير بارد داخل الكوخ البلاستيكي الذي يقطر سقفه القصبي، هذا الإنسان الجديد يتخفف شيئًا فشيئًا من الهم القديم، جلباب القضايا التي ولد بها بدءًا باسمه الممنوع في دفاتر الحالة المدنية كأنه ولد فقط ليقف على عتبات الدوائر الرسمية، مطالبًا بحق من حقوقه، بحقه في كل شيء لأنه حرم من كل شيء، من ترابه وجباله، من اسمه ولغته، وورث جرحًا في الهوية لا يلتئم وشرخًا تاريخيًا

لا يملؤه غير الهواء الفاسد، وحتى تلك القيلولة من زمن الحب المبعثر داخل البطينين غير المتواتر نبضهما، نبض مثلهما تمامًا يهتز بعنف أحيانًا وبلطف أحايين.

نخجل من تكرار التوبة ولا نخجل من العودة إلى الخطايا.

الهواجس التي تسكنك لا تجدها دائمًا في واقعك، بل تبقى حبيسة جمجمتك الصلبة، تدير محرك السياره الفارهة، تأخذ مرسيدس كلاسيكية من أجل لقاءات الفنادق الفخمة وتحتفظ بالكات كات للعمل بالجنوب والصحراء والجبال، وتستهزئ في داخلك بكل رجل أعمال يستعمل الكات كات لحضور الاجتماعات وتقول عنه إنه لم يستطع التخلص من الفلاح داخله.

فندق فخم، عشاء فخم، حضور متأنق حسب خطوط الموضة، وهناك من يبالغ ويرتدي سروالاً أحمر مع طقم كلاسيكي، هذا نوع رجال الأعمال على طريقة السيجار الكوبي، هؤلاء يروقونني كثيرًا؛ معاملاتهم سهلة وإقناعهم لا يتطلب وقتًا، هم مغامرون في المال كأنهم في لعبة حظ، يصحبون صديقاتهم إلى كل اللقاءات والحفلات ويستمتعون بكل لحظة غنى كأنهم سيفلسون غدًا، وهناك نوع آخر يأتي مدججًا بكاتبته الأربعينية بنظاراتها السوداء السميكة، ومحاسبه الآلي الذي لا يخطئ كأنه حاسوب إلكتروني، يوشوشون له بين الفينة والأخرى، يتحدثون في أذنه كأنهم يحذرونه من مغبة الاستسلام لشروط الطرف الثاني، هذا النوع المحتاط لا يغامر كثيرًا لأن ثروته بلغت حدًّا من التضخم لا يحتاج معه إلى مضاعفتها، ولكن الطمع يبقى قائمًا أبدًا ويجب استغلاله، والماركة المسجلة في السوق يجب أن تحافظ على مكانتها.

أخطبوط ضخم يسيطر على المكان، يسيطر على الأحاديث حتى الثنائية منها، الشركات الكبرى تبث رجالها بين كل طاولة وطاولة وتحت كل طاولة، رئيس الاتحاد الإقليمي للمقاولات يخطب في

الحشد المالي الكبير، لا يتحدث إلا عن الاقتصاد الاجتماعي ومسيرة نهضة الوطن، ويحذر من استيراد البضائع الصينية، يبدو أن الجميع يملك وطنًا لينهبه، ولكنه يبدو صادقًا تمامًا، ماذا لو كان صادقًا؟ ماذ لو اهتم حقًا للوطن؟ جلوسي إلى طاولة بعيدة عن المنصة منعني من التأمل في حركاته، والقاعدة تقول إن كل من يعتلي المنصة كاذب بالضرورة، وإلا كيف يمكنه أن يكون رئيسًا لكل هذه الأخطبوطات المالية التي تلتهم العقارات والخدمات والمصانع والضيعات وقطاعات التعليم والتكوين والتسيير؟ لا بد أنه يكذب. الاقتصاد بخير، السياحة بألف خير فقد استفادت من هروب السياح من البلدان التي تعرف قلاقل ما يسمى بالثورة.

هو لا يضغط على كلمة الثورة محاولاً تجنبها قدر الإمكان.

هو لا يضغط على الثورة يعرف أنها ثور هائج قد يقذفه خارج الملعب.

سأقترب من المنصة، هو يقترب من نهاية خطبته، لا يمكن أن أرحل عن الحفل دون عمل، يجب أن أحصل على بطاقة زيارة على الأقل، أو على رقم هاتف، وأنا أقترب تزداد التصفيقات عندما ختم بيانه التنكري، كان صغير السن لا يتجاوز الأربعين من عمره، لا أكبره إلا بسنوات قليلة، ولكن حجم أعماله يدل على أنها ولدت قبله في كنف والده وجده، ولكنه سمين يكاد عنقه ينفجر من الشحم المكدس حوله، أصبحت ترهلات عنقه تحيط بربطة العنق بدل أن تحيط هي به. منتفخ كديك رومي معجب ببيانه التنكري كأنه حقق انتصارًا في انتخابات المجد والفروسية. جمع أوراقه الصغيرة المكتوبة بخط غليظ كأنها كتبت ليقرأها أعور في بلاد العميان. وبعض فقراتها مُشكّل لتجنب تلك الملاحظات السخيفة التي قد تنبع من فم رجل أعمال كان يومًا ما بين المكتب والسبورة، والذي قد يسخر من ثقافة الرجل العربية وقد يشك

أيضًا أنه تابع دروسًا لمحو الأمية. لكل ذلك وأكثر كتب كل فقرات خطابه بخط كبير مضغوط وشكل الكلمات الصعبة والخجولة. لكن مثل هؤلاء يكفيهم أن يضيفوا تلك الحركات البهلوانية عند التأثر العميق، وأن يبكوا إن استدعى الأمر، ولكن رجلاً في موقف رئيس سادة الأعمال ومنسق التجار لا تليق به الدموع ولو تعلق الأمر بالوطن.

هو لا يضغط على كلمة الثورة، كل الجروح نيئة، حديثة، وأي ثقب مهما كان صغيرًا سيجعل الدم والقيح يسيل على منصته، وكما باب المؤتمر مفتوح على مصراعيه ستنفتح التأويلات والتفسيرات ولن يسدها سياسي مهما بلغت حنكته.

مثل هذا الرجل لا يهمني إخلاصه للوطن، فالمخلصون ماتوا، كل ما يهمني نقط ضعفه ونقط تلاقي اهتماماتي المالية بشركاته، رجل أربعيني بمركز رئيس الطهاة، يستطيع أن يشوي أي نعجة استثمارية ويدعو إليها من شاء من الحلفاء.

وتلك الكلمة التي يكره أن يضغط عليها هي في الحقيقة قنبلة قابلة للانفجار في أي لحظة، أنا أيضًا لا أحب أن أستعمل الكلمات الكبيرة التي تخرج عن سياقاتها التاريخية وتحول موقفًا احتفاليًا منعمًا بالمال والسهر ووجبة عشاء إلى حرب دلالية بين قصد وغير مقصود، تلك الإزاحات غير محبذة هنا، بل لا تليق بالمكان، ولنقل إنها ليست من الإتيكيت في شيء، فيمكنك أن تتصور معي فندقًا فخمًا حد الترف ومؤتمرًا متخمًا برجال الوطن المخلصين وأصحاب الرتب العالية والأوسمة والنياشين. وحفل عشاء فاخر ونساء بمقاسات محددة، وأزياء تعتمد الخطوط الراقية، الخطوط فقط، خطان رفيعان من على الكتفين وصدر شبه عارٍ وظهر عارٍ تمامًا، يسير بالنظر إلى مداخل الأنفاق المجهولة. وبعد أن تتصور ذلك هل يمكنك حقًا الحديث عن شيء يبدأ بالثاء المعجمة غير

obeikandl.com

الأصيلـة، مـن قبيـل ثـورة وثـور وثريـا وثائـرة وثائـر؟ أي قبـح ستسـببه بقامـوس غريـب عـن تقاليـد البـلاد وعـن نـوع خـاص جـدًا مـن العبـاد؟ الثـاء المعجمـة لا تـرق بنفسـها لا بـد لهـا مـن راء لتصبـح ثـروة.

obeikandl.com

obeikandl.com

-٣-

كـثر اللغـط ونهـض النـاس عـن موائدهـم المسـتديرة، واتجهـوا نحـو بوابـة الخـروج نحـو صالـة تقديـم العشـاء، وأنـا اتجهـت نحـو قـرار غـير يسـير، اتجهـت إلى مثـواي مـا قبـل الأخـير، وهـي كانـت هنـاك قريـه ترتـب أوراقـه المبعـثرة عـلى منصـة الإلقـاء.

ماريا.. جئت لآخد رقم هاتف فقط لا لآخذ درسًا في الفجيعة.

مرحبًا بك في عالم الارتباك.

مرحبًا بك في إعصار الذكريات.

- مرحبا سيدة عمراني، كيف حالك؟

- بخير أششش.. أشكرك.

لا تفتحـي فمـك هكـذا؛ لا يليـق بـك الذهـول، تليـق بـك الابتسـامة أكـثر، ترفقينهـا دائمًـا برمـي شـعرك نحـو الخلـف، شـعرك الـذي كان يختـزل كل قصـصي القصـيرة، تلـك الـتي كانـت تضحـكك أحيانًـا وتجعلـك منبهـرة بطريقـتي في تكثيـف المعـاني أحيانًـا أخـرى. أمـا زلـت تقرئـين القصـص القصـيرة جـدًا أم أن روايـات شركات زوجـك...؟ أمـا زلـت تهتمـين بالتفاصيـل الصغـيرة لديكـورات الزوايـا أم أن هندسـة الحسـابات حلـت محـل فنـك؟ ماريـا، لا تنذهـلي، لسـت ذلـك الشـخص التعيـس المريـض بالوهـم والتناقـض، أنـا أمامـك تاجـر سمسـار شريك في وجبـات الوطـن الدسـمة، أنـا مثلـك جئـت لآخـذ بطاقـة زيـارة.

- جئـت لآخـذ بطاقـة زيـارة أو حـتى موعـدًا إذا أمكـن، أريـد مقابلـة السـيد عمـراني مـن أجـل عـرض فكـرة عمـل.

_ أنـا لسـت سـكرتيرته، يمكنـك الاتصـال بمكتبـه الشـخصي، ألا يمكنـني سـماع العـرض؟ أنـا مسـتقلة بـشركاتي، يمكننـا العمـل معًـا.

- لا يمكنني تجاوز السيد لأعمل مع زوجه.

- أما زلت متشبثًا بضلالك القديم ؟

- لنقبل بذلك.

- يمكنـني توجيهـك إذن، فأنـا وعمـراني وجهـان لعملـة واحـدة، كنـت أمازحـك فقـط.

- مزاحك أصبح بالعملة الصعبة.

- ومزاجك ما زال يقايض بقضايا رثة.

- مـن أيـن لـك بـكل هـذا التمثيـل؟ حفلتـك التنكريـة مـا زالـت في بدايتهـا، احتفظـي بأقنعتـك؛ قـد تحتاجينهـا.

- لا تتعامل معي بالجمل الحارقة، فكلي مياه جوفية.

- الميـاه الجوفيـة تـروي الأشـجار والغابـات ولا تقتلعهـا لتعوضهـا بالأسـمنت المسـلح.

- لماذا أتيت ما دمت ممزقًا بين غابتك ومدينتك؟

- أراك بأظافر طويلة، ألا تزعجك حين تعملين على تحفك؟

- أنـت تكـرر نفسـك في جميـع الأمكنـة، أنـت كمـا أنـت لـم تتغـير لغتـك، تريـد كل شيء خطيًّـا كي لا يزعجـك، أنـت سـتبقى جامـع انفعـالات تدافـع بالمـاضي كلمـا حاصرتـك الأشـياء مـن حولـك.

- أرى أنـك مـا زلـت تجيديـن الاسـتعارات، بعـد كل هـذه السـنوات مـا زلـت تحكمـين علـيّ بالفشـل.

هـي لا تحكـم علـيّ بالفشـل، هـي تحكـم عـلى نفسـها بالنجـاح، لا بـد أنهـا تكفكـف الحـب بمنديـل ورقي، أيعقـل أن تكـون قـد أحبتـه حقًـا؟ ذلـك المخلـوق السـمين بعنقـه المكتـنزة ووجنتيـه المنتفختـين! ربمـا الغـيرة أخـذت مـني مأخـذًا، كيـف يمكـن ذلـك؟ لا أغـار منـه، فأنـا لا أحبهـا، مـا زالـت قويـة، رمتـني بأشـد الاسـتعارات وضوحًـا وقالـت إنهمـا وجهـان لعملـة واحـدة، أي وحـدة جمعتهمـا؟ أيمكـن أن تعيـش معـه تحـت سـقف واحـد وهـي لا تحبـه؟ كثـيرون يعيشـون تحت سـقف واحـد وأسرة متفرقـة. مـا كل هـذا الهجـوم ؟ هـل كانـت تخطـط لحـرب

obeikandl.com

بيـني وبينهـا؟ لا يمكـن، فهـي لا تـدري أني قـادم وحـتى لـو رأت لائحـة الحضـور فلـن تميـز اسـمي بـين كل هـؤلاء. يكفيهـا أن تتأكـد مـن حضـور الأشـخاص الأكـثر أهميـة، والبقيـة مجـرد أثـاث. ماريـا هـي العنكبـوت في كل علاقـة. ربمـا تنسـج روايـة محكمـة لتشـعرني بتفوقهـا، ولكنهـا كانـت غاضبـة لا يخفـى غضبهـا، نظاراتهـا ترقـص فـوق أنفهـا الصغـير، أظافرهـا المصبوغـة بلونـين مختلفـين أبيـض وأحمـر، أي عنايـة فائقـة هـذه في مسـاحة لا تتعـدى ظفـرًا رسـمت مشـهدًا طبيعيًـا بلونـين. لا بـد أنهـا اسـتهلكت وقتًـا للإعـداد لحفلـة كهـذه. في لجـة المـوج لا يسـع بحّـارًا مثـلي أهلكتـه الذكريـات إلا أن يسـأل ويقبـل بجميـع الأجوبـة.

- هل تحبينه؟

- ولـم لا أحبـه. إنـه رقيـق جـدًا ويعاملـني بلطـف زائـد. الحـب المطهـو عـلى نـار هادئـة ينضـج عـلى مهـل فيسـتوي كمـا نريـده.

- لـن يكـون الحـب غـير عاصفـة مداريـة محملـة بالعواطـف بـدل العواصـف تقتحـم الكيـان. تطغـى عـلى الاثنـين دون سـابق إنـذار، إلا إن كان لأحدهمـا يخـت مسـتورد يقـاوم مـوج البحـر.

- لا بـد أنـك منزعـج، عليـك ألا تفضـح نوايـاك، فأنـت سـيد اللغـة الملغومـة، كيـف تتخـلى عنـك قصصـك اليـوم؟ أنـت تـصر عـلى اقتحـام المتاريـس وفتـح الأبـواب المغلقـة، أنـت لا تملـك مفتـاح المدينـة.

- أنتِ مستغرقة في الثراء، لا وقت لديك لضبط التعاريف.

- وأنت مستغرق في الأحلام، وتتهم غيرك وأنت الفاعل.

obeikandl.com

-٤-

في أقل من خمس دقائق أنشأنا محكمة ابتدائية وأخرى للاستئناف والنقض، ولم يصدر حكم القاضي بعد، في قضايا البعد كما كتبت يومًا الكل خاسر، المحامي يراقص شاهد الإثبات، والكل محكوم حتى القاضي، محكوم باللا فهم المؤبد، أنا هاجمتها لا أخفي انفعالي، ما كان عليّ أن أقترب منها، أن أحاكمها، فلست أقل استغراقًا منها في الثراء، بل إني أسوأ منها بكل ما كنت أدّعيه من نبل ومثالية على الأقل هي كانت دومًا إلى جانب الواقع تستمد منه منطقها، ولم تكن تحلم مثلي ومثل جيل بكامله بثورة بائسة لم تتحقق ووطن أعرج يسير على رجل واحدة، هي باعت الوطن واشترت رجلاً ثريًا يسدد نفقاتها، ها أنا من جديد أدّعي الوطنية أكثر من غيري، ها أنا من جديد ألومها وأبرئ نفسي، أي نرجسية أكبر من هذه! كان عليّ فقط أن أنفض عن معدني لأجدني من نوع عمراني متخم بالمادة يتنفس الدرهم ويصطاد الغزلان.

- ولكنك أحببتني حقًا، لا يمكن أن يكون كل ذلك مسرحًا.

- أنت لا تريد أن تقول إنك أحببتني حقًا، غريب! كيف تبدأ دومًا بنفسك؟ إن ما حدث لا يفسر، أنا رحلت وأنت رحلت، ابتعدنا عن بعض، كان ذلك حلاً سهلاً.

- أنت رحلت، أنا لم أفعل.

- ولكنك لم تكترث لرحيلي، هل من امرأة تعود مجانًا؟

- أكان كافيًا أن أبحث عنك لتعودي إليّ. طنجة غيرتك، وعمراني فتح عينيك على عالم الثراء وهجرت البؤس بالمختصر من المسالك، كان لنا وطن نبنيه وحب نشيّده وكنتِ خائنة، لن أذكرك بالماضي فربما تكون له تلك الروائح النتنة التي قد تفسد سهرتك. وأنا لا

ألومك ولا أتهمك جئت فقط لأخذ بطاقة زيارة.

أيا امرأة تعجن القلق كل صباح. لا تبحثي في كثبان الرمل عن حبات الفراولة. فالصحراء لا تلد غير الشمس والحيرة وبعض لبن النوق التي تفتت عقالها من شدة الندم. لا تنسجي من خيوط العنكبوت رداءً كاذبًا كي لا يكون حبك أوهن منه. ابحثي في أدراج قلبك عن الحقيقة. وكوني على قدر كيانك تصنعين من الوجود كثيبًا من الأمل.

ربما أغلقت القوس الذي فتحته عن الحب، ومن رحل أولاً؟ حكايا المراهقات المتكررة، من يتحمل مسؤولية العبث في علاقة كانت تعني كل شيء.

- لا بد أنك سعيد بزوجتك.

- الأنثى الوحيدة التي أسعدتني هي أمي، أنا سعيد بأمي.

صمتت للحظة، كأن ما قلته جفف نبع مياهها الجوفية، ستعتقد حتمًا أني ما زلت وفيًا لحب قديم كل هذه السنوات، جميل جدًا أن تكتشف أني ما زلت متيمًا بها، أي أسطورة سيكون هذا الحب الطاعن في المرارة والانتظار، أي امرأة عظيمة في التاريخ السياسي للعشق ستكون ماريا، إن ظنت حقًا أنها المرأة الوحيدة لرجل ظل ينتظر عودتها المستحيلة. ما كان عليّ أن أحرق أوراقي، حضور امرأة أخرى كان كفيلاً بأن يشعل عود ثقاب آخر، ينضاف إلى ترسانتي الدفاعية، أي منطق لمحكمة قلبية هذا؟! وهل أحتاج كل النار لأطفئ النار، وكل الماء لأغرق الماء؟!

- لكل رجل أنثى تسعده، ولا دستور يمنع أن تكون أمه.

- الحاجة يامنة تسعد الكل؛ هي صاحبة القلب الكبير.

- جميل أن تتذكري اسمها.

- لست بالحجر الذي تعتقده، ذاكرتي إنما تنتقي ولا تحطم.

- أو تنتقي لتحطم.

obeikandl.com

سيصعب حتمًا الاستمرار في لعبة الحب القديم مع امرأة ما تزال تحتفظ بمخزون من الجمل السرية، وتعود لمسارات دلالية غير متوقعة، فما أن تحسسك بالفوز حتى تطعنك من جديد وبمفردة بسيطة، أن لا تكون حجرًا يعني أنها لم تنس الماضي وأنها تحن إليه، ولكنها أردفتها بحصة انتقاء تستثنيني حتمًا منها ككل نبات ضار. ولكن يجب أن أنتزع استسلامًا من هذه المرأة السياسية التي تقدم بلاغاتها على حذر. أيمكن حقًّا في لقاء واحد أن تنزع جملة حنينًا منها إليّ؟ عليك فقط أن تحذر من الاحتباس العاطفي، فدرجة حرارة الكلام وتلوث الجمل بدخان الماضي ومرضك المزمن بالحنين قد يقلب اللعبة ضدك ويجعلك تعترف بدل سحب اعتراف، وقد يجعلك تستسلم للشكوى. إياك أن تطلب توضيحات أكثر فقد يعني ذلك أنك تتوسل.

كظل أناني يحاول جمع ظله ليعزله عن كتلة من الأحداث ترمي بأنفاسها على سطور من التاريخ الجوراسي كما لتجعل الحب يتحجر متخذًا شكل نظرته إليها، كانت تجمع ما تبقى في سلة حزينة مكدسة بالأنين. تغطيها تارة بمنديلها الأبيض المطرز بخيوط حرير صنعتها دودة قز قلقة، تعلم علم اليقين أن مناديل مبللة بدمع العاشقين ستدفن فيها ذات يوم، وتارة أخرى تقطف أضمومة من الزهر حيث الياسمين يرفض الاستلقاء غرورًا من كثرة رسائل السمان إليه. تسير إلى حيث تقبع ذكرى مسنة مضت عليها سبعة آلاف من السنين تنبش في الأهرامات عن عشيق كليوباترا وتقول إن الهيروغليفية لم تقرأ بعد وأنهم أخطؤوا في تأويل حضور الشمس. وأن رمل سيناء ودلتا النيل كانا شاهدين على حب لم تصرح به كتب التاريخ.. وأن كل الآثار ورسوم الطيور والتراتيل ليست إلا قبلة عابرة تركت أثرها على جسد أخطأ موعده مع الحب بسبب الخوف من المستحيل.

أي منا..

- ستسعد حتمًا بزيارتك لها. فهي وحيدة إلا من جاراتها ونساء القرية.

- ذلك شرف كبير لي، سأستشير زوجي.

- لم لا تصحبينه معك؟ الأمر لا يحتاج استشارة، لن ننشئ شركة جديدة. سنزور الجدة فقط.

تسجيل نقطة جديدة تشتت معجم المال الذي اتسخت به لهجتها كان موفقًا، فأن تستشير زوجها إشارة كافية لنوع العلاقة بينهما، وأن تركز على كلمة زوج دون ذكر اسمه الشخصي سيربط علاقة ورقية بينهما في ذهني، أظن أن الجولة لصالحي. كيف لا تكون كذلك فقد أحسنت فن الانتظار؟

- ولكن يجب أن تقرأ لنا قصصك القصيرة جدًا.

- ولكني لم أعد أكتب كثيرًا، الكتابة لا تكون إلا عن الحب والوطن وأنا فقدتهما معًا.

- كنت تقول دومًا إن الحرمان مدعاة للكتابة وليس الشبع.

- سأقرأ لكما إذن قصص الفقدان، عليك فقط أن تستمعي جيدًا. وأن تتحملي جملي الجديدة فهي كالتهم تلتصق بمستمعها، لم تعد قصصي قوارير عطر فواحة بالاستعارات بل أصبحت زرابي لغوية مزركشة بالفداحة والخسارات.

- ألهذا الحد أسلوبك غاضب؟ لا بد أنك تغتصب الأوراق بدل الكتابة عليها.

- أنا لا أرتكب الفواحش الورقية، قد يكون أسلوبي من نوع الطلقات الرصاصية.

- أما زلت تكتب لقارئ واحد فقط؟

- أكيد، ولكن هذا القارئ ليس أنت.

- إذن هي كاترين.

- لا ليست كاترين.

ليسـت كاتريـن، كاتريـن وجودهـا مهـم في حيـاتي، ولكنـه وجـود محايـد تمامًـا، كشـخصيتها، تجلـس دومًـا لكـرسي هـزاز صنعـه حـداد في تارودانـت وتقـرأ، تقـرأ وتسـتمع لحديـث الآخريـن في نفـس الوقـت، وحـين ترغـب في إلقـاء ملاحظـة ترفـع نظارتهـا وتقـول كلمـة أو كلمتـين فقـط، تغـير فقـط دون ضجيـج. تقـول كاتريـن، لقـد تغـيرت ربمـا، ولكـن كاتريـن رحلـت إلى باريـس مـن جديـد، مـن هنـاك تسـير منشـأتها السـياحية، وترسـل أفواجًـا مـن الزبائـن إلى هنـا، مـا الـذي ذكّرهـا بكاتريـن؟ ربمـا تعبـت مـن الوعـي ودخلـت سـمفونيات الـلا وعـي، ربمـا حضـوري أربـك احتياطاتهـا اللغويـة وتركهـا عـلى شـفى حنـين. وأنـا لا أفهـم نفـسي ولا لعبـتي الجديـدة، لمـاذا أحـاول إربـاكهـا أصـلاً وأنـا متأكـد مـن عـدم رغبـتي فيهـا؟ أنتقـم في سريـة إذن انتقامًـا حلـوًا غريبًـا وأنـا أتفـرج عـلى لغتهـا المتزوجـة بمنجـد عقـاري بليـغ.

عيناهـا تنكـر عينـيّ، ولسـانها مبعـثر كلسـاني، فلـم أكـن أفصـح منهـا، وكنـت أقـول عكـس مـا أرغـب بـه، أحدثهـا كأني أكتـب، وفكـري قـدّ مـن رعشـة، وتحديـاتي بلغـت حـد السـخافة وكلي احتبـاس عاطفـي، منـذ عـشر سـنوات لـم أقـترب منهـا إلى هـذا الحـد.

للجسـد كـودات تعمـل بالأشـعة تحـت الصوتيـة، هامسـة، كصفـير ورقـة خريفيـة تلعـب دور بلبـل صامـت.

للجسـد اسـتقلال سري موقّـع مـن ذكريـات اسـتعمارية حطـت بشـطآنه يومًـا.

للجسد حضور.

وللحضور سلطة.

وللسلطة قرار.

والقرار أني هنا لأخذ بطاقة تواصل لا غير.

obeikandl.com

-٥-

عـودة إلى القهـر، إلى القـبر، مـا عـاد في القلـب شريـان ريـح شـارد، القلـب مهنـدس بإحـكام وكل مسـلك فيـه يـؤدي إلى منطقـة أمـان عاطفـي، مـا عـادت في القلـب دهاليـز الانتظـار ولا محطـات الإخفـاق، القلـب سريـة عسـكرية منضبطـة للعقـل.

رؤيـا، نظـر، فتيـت لغـة، مـا عـاد في القلـب فخـار قابـل للانكسـار، هزَمنـا المؤقـت والمؤجـل، تركنـا عند حافـة التكـرار، ورد وبـرد وتويجات ذهبـت مـع الريـح، والفصـل ليـس فصـل خريـف، هـو فصـل انغمـار في انغمـار، موسـيقى بحـيرة الوجـع، تراقصـك أنـثى معمـدة بالـسراب والقلـق، دروب مـن العلامـات توصـل للفـراغ، حـركات راعشـة تحايـث الصقيـع وتـبرد بالاقـتراب، خنفسـاء فرعونيـة مسـحورة ترتـدي قفطـان الوجـود وترقـص، ترقـص عـلى أنغـام عـود مـدوزن عـلى إيقـاع الصمـت، عـود لا أوتـار لـه غـير قليـل مـن الذكريـات وخيـط حنـين رث، يسـبح المطـر عـلى الرصيـف ونرقـص سـيلان مـن الدمـع، نرقـص لنحيـا، ربـق الحركـة لا ربـق السـفر، نمـشي طربًـا مـن شـدة الاحـتراق، نوتـات هاربـة مـن جمـل مزقـت شرايـين الهـدوء، نرقـص نرقـص، نمـشي نسـقط، تذرونـا الريـاح تسـير بنـا كتـبن منـسي في البيـدر.

سـأخون قريـتي بحبـك، سـأخون جـدي و«تـودا» وقبريهمـا في سـفح الجبـل، سـأخون وطـني ومسـيرة الـدم الحمـراء قـرب السـد، سـأخون رفـاق السـجن والعنـف.

لن أخون.

- جبينـك يـشي بـك دومًـا، سرحـت كمـا لـم ترغـب، يحـدث مـا لا تريـد. قالـت ورحلـت.

- سـأنتظرك، أرجـو أن تبلغـي السـيد عمـراوي دعـوتي، أرغـب حقًـا في

التعـرف عليـه.

obeikandl.com

-٦-

وأنـا بـين النـاس أعيـش حيـاتي عاديـة كأي رجـل أعمـال، ولكـني أرسـل ذاكـرتي كـروح متجولـة لتعيـش بـين خـراب المـاضي السـقيم، تجـول بـين أراضي قريتنـا القديمـة، وتحـط عـلى سـور المقـبرة تسـلم عـلى «تـودا» وتترحـم عـلى جـدي، تذهـب إلى المدرسـة الـتي بنتهـا الدولـة بسرعـة لترقـع بهـا فضيحـة التهجـير، فضيحـة تناقلتهـا وسـائل الإعـلام الغربيـة في فرنسـا وألمانيـا، وتعرضـت للتعتيـم الممنهـج مـن طـرف الإعـلام المغـربي، روحـي تقبـل نسـوة القريـة اللـواتي شـاركن في المسـيرة الحمـراء اللينينيـة التأطـير، وتقبـل كل جـروح وكسـور الرجـال والأطفـال الذيـن كـبروا بسرعـة، فزمـن التهجـير ليـس هـو الزمـن العـادي الطبيعـي، إنـه زمـن يجعلـك تكـبر بوتـيرة الحـزن المضاعـف وفقـدان الوطـن، زمـن يكـبر بالأسـئلة المسـتقاة مـن رحـم الانتمـاء.

آه مـن الجـراح! مـا زالـت جمجمـتي شـاهدة عـلى مـا حـدث، ألـم بسـيط فـوق أذني اليـسرى، وانتفـاخ تحـت فروة الرأس بسـبب الـبرودكان اللعـين للعسـكري المخـدر بالأوامـر.

سـتزورني سـيدة عمـراوي رفقـة زوجهـا، وسـأحس بمـا يليـق بحضـور زوج وعقـد مقـدس، رغـم الألـم المكـدس داخـلي، لـن أخـون رجـلاً مثـلي مهمـا كان ثقـل مخـزوني العاطفـي والجسـدي مـع زوجتـه، وإلا كنـت حيوانـًا، تلـك مبـادئي، لا أعشـق أبـدًا ملكيـات الغـير.

obeikandi.com

obeikandl.com

-٧-

أعدت أمي، سيدة غصن الزيتون، وهو الاسم الذي سجلت به إقامتي بنواحي تارودانت، أستقبل فيها شخصيات من عالم المال وبعض الأصدقاء، فيلا صغيرة داخل شبه ضيعة، تحيطها نباتات من مختلف بقاع العالم، خصوصًا تلك الأنواع من غابة الأمازون، بأوراق غليظة، وبستان يضم تشكيلة من أشجار الفواكه، برتقال، تين، مانجا، تفاح، موز، كيوي.

تتوسط البستان بحيرة مصطنعة، تركت الحشائش والأعشاب تنمو حولها، سطحها مغطى بأوراق رطبة، خماسية الأصابع، تبدو كأنها نمت بشكل طبيعي لكن الحقيقة أنها جلبت من الأمازون أيضًا لتؤثث الحديقة، البستاني المهندس ترك قرب كل نبتة وشجرة ورقة تعريفية، تضم الاسم العلمي للنبتة، ومصدرها وشروط نموها، إنه عالم أخضر لا أنتبه له في غمرة انشغالي، إنه هنا ليساعد على تمرير الصفقات وتلطيف الجو المالي الصرف.

أمي الحاجة تهتم بكل التفاصيل رفقة العامل البستاني، رغم أنها لم تعد تملك يد الفلاحة الخشنة، إلا أنها تعرف كيف تسيّر كل ما يتعلق بالفِلاحة، وكانت أكثر ما تهتم به شجرة أركان ARGANIER نمت بشكل مثير، خضراء تظلل منطقة كبيرة من الحديقة، تحتها طاولة حديدية بكراسٍ حديدية لثمانية أشخاص، نستعملها عادة لتقديم العشاء في الليالي الصيفية.

رغم اتساع الإقامة، أو ربما بسبب اتساع الإقامة لا ترتاح فيها الحاجة كثيرًا، هي تحب شقتنا الصغيرة في أكادير حيث تهتم بكل تفاصيلها حتى ما يتعلق بالطبخ، يثيرها البحر لأنه غريب عن ثقافتها، تحبه وتخافه، إلا أنها تفضله على الجبل، لأن ذاكرتها

كذاكرتي مثقلة بمشاهد دمار لصيقة بالجبل، الحاجة سليلة الوجع، تداوي وجعي بلمستها الحنون، خصوصًا حين أكون متوترًا حد فقدان الشهية، فأحيانًا تترسب فوق معدتي ألوان من تعازي الحنين.

تقول أمي إن الحجر الصلب الذي يتكون في فم المعدة جرّاء تراكم الأحزان لا يذوب ولا ينصهر. هل أصبحنا من حزب الصخور؟ تضع يدها على النار ثم على الزيت ثم على النار وتمسد معدتي بحنان لتذيب الحجر. وبين هذا وهذا تتمتم سورة الإخلاص والفاتحة.متعة صوتها ويديها الدافئتين تصهر الجبال المترسبة في معدتي وشراييني، أمي تتقن العزف على الجسد، تشايكوفسكي تعلم منها كيف يزين النوتات في قصائده ودرويش العربي أيضًا استفاد من خبرتها في صنع خبز الشعير الأسود.. ولكن هي لا تفرق بين السلاسل الرسوبية التي قد يذيبها محلول الحنان والسلاسل البركانية الحية الطرية التي ما زالت اللافا تنسكب عبر الجروح المفتوحة دومًا في وجه الذكرى.

جاءت ماريا رفقة سمير عمراني، رجل سمين بشوش، أسنان متراصة وعاجية تجعل ابتسامته متناسقة، وجهه أحمر، لكن عيناه صغيرتان جدًا، وتنغلقان حين يبتسم، كثير الضحك، لا يحمل أي هم، رغم أنه يعرفني جيدًا ويعرف أني السبب في هدم مشروع حياته، تلك القرية السياحية التي كان ينوي تشييدها بشراكة مع الألمان على أنقاض قريتنا ليستفيد من منظر السد الملعون، ومنظر الجبال المكسوة بالأركان والبلوط، كان مشروع سياحة جبلية رصد له كل طاقته.

وأنا رصدت له آنذاك كل طاقتي، سلسلة من المظاهرات، سلسلة من الاعتصامات الليلية، تلتها هجومات على آليات ووسائل الحفر والبناء، تراجعت على أثرها رغبة الألمان في استكمال المشروع

لظروف أمنية، ونقل المشروع بعدها لمنطقة تازمورت رغم أنها خالية من العنصر الطبيعي، إلا أن الرهان كان على حجم الملاهي ونوعية الخدمات الفندقية وصالات القمار والسهرات.

أن تكون سمسارًا معناه أن تعرف كل شبر في منطقتك، أن يكون لك مرصد إداري في كل مصلحة وهذا لا يمنع أن تدفع ثمن كل معلومة، هناك دومًا موظف مستعد لبيع نفسه، عليك فقط تحديد السعر المناسب.

دخلت ماريا أولاً بفستان حريري سماوي اللون.

أزرق غرفة الضيوف بقريتي يتنفس الذكرى، لم ارتديت أزرق الحنين؟

ربما كان اختياراً عشوائيًا، لكني أضع دومًا احتمال حدوث علامة.

ماريا لم تفقد شيئًا من رشاقتها، بعد ذلك خرج من السيارة طفل صغير كأنه ملاك، يمشي في خجل، تمسكه خادمة من يده، طفل مكتنز يشبه عمراوي تمامًا، قدمته لي ماريا على أنه ابنها ياسين.

ياسين هو الاسم الأحب إلى قلبي، وددت دوما أن يكون لي ولد باسم ياسين، هل هذه علامة؟ هل أستمر في تجاهل رصاصاتها وأتغابى؟ آعتبرها رصدة مطر ستتبعها غزارة من الدلالات؟ أم أفرح فقط فرحًا طفوليًا لأنها اختارت لابنها الاسم المفضل عندي، إنها تُمروح على جمر قلبي ليشتعل بالحنين، اكتوى قلبي من الحنين، أريد سلامًا سيدتي الأنيقة، أريد سلامًا سيدتي.

- مرحبًا بكم سيد عمراوي، حضرتك سيدتي، والأمير ياسين، برعم اللقاء.

- نشكرك سيد أنير، لطف منك دعوتنا إلى مدينتك التاريخية.

حين رأى الحاجة ضحك ضحكة جنونية وذهب يحضنها كأنها أمه، كأنه يعرفها، رافقها مباشرة إلى البهو الرئيسي كأنه سيد الدار،

واستمرا في حديث ثنائي بعيد عنا، لا نسمع منهم غير ضحكات تتعالى بين الفينة والأخرى، الحاجة انطلقت أساريرها، كأنها تحادث إحدى صديقاتها.

obeikandl.com

-٨-

- كيف حالك أنير؟

- بخير، بألف خير، وأنت؟

- أيضًا.

- آسفة أن حولت عشاء عملك إلى زيارة عائلية، عمراوي لا يخلط الصداقة بالعمل، إنه منهجي جدًا.

- الأمر واضح وأنا سعيد بذلك، يبدو أنه منسجم مع الحاجة.

- إنه ينسجم مع الطيبين بسرعة، إنه طيب المعشر.

- جميل جدًا أن يكون للمرء قلب أبيض، يكتشف بسرعة قلوبًا بيضاء أخرى.

- أخبرني عن أمورك، كيف تسير؟

- تسير بخير، البارحة أزعجني ألم برأسي لم أعتد عليه.

- هل هو نفس الجرح؟

- نعم نفس المكان، به انتفاخ كأن شيئًا صلبًا تحت فروة رأسي فوق الأذن.

- عليك بزيارة الطبيب، الجرح عمره أزيد من عشرين سنة، قد يكون مجرد تكدس شحمي يزعجك كل مرة، لكن الأفضل أن تستشير طبيبًا.

- سأفعل أعدك، فالألم يزداد.

لم أنتبه لوجود الحاجة بجانبنا وهي قلقة، ففترة صمت بينها وبين عمراوي سنحت لها بسماع شيء عن زيارة طبيب، ولكن ماريا، قالت لها بسرعة بديهة إن الأمر يتعلق برغبتها في إنجاب طفل آخر تأخر حضوره، أشعرتها بالخجل فرحلت وهي تضحك ملء جوفها وتداعب سبحتها، وتعدل خمارها، وتعود إلى رفقة عمراوي، كأنها

obeikandi.com

تحدث أعز صديقاتها.

توجه ياسين إلى التلفاز وربطها بألعابه الإلكترونية وبدأ يلعب في انعزال تام عن العالم الخارجي، أما ماريا فقد اقترحت أن نجلس قرب المسبح، لذلك قمت بإضاءة منطقة المسبح وشغلت نافورة صغيرة بجانبه، وجلسنا نحتسي كلامًا عاديًا بداية، إلى أن طرحت عليها سؤالاً فاجأها قليلاً.

- إذن تزوجتِ رجلاً يحبك.

- لا أحب الحديث عن زوجي عادة، ولكني مرتاحة جدًا معه، قد أكون نوع النساء اللواتي يفضلن الزواج برجل يحبهم ولا يحبونه، بدل المخاطرة مع حبيب لا يبادلهم نفس الهيام، ولكني مع الشطر الأول وأتحفظ على الشطر الثاني. أخبرني، كيف بنيت ثروتك؟

- الثروة تحتاج المغامرة والذكاء كما تعلمين، أنا استثمرت في ما هو مضمون، أنا في الأصل سمسار عقارات اشتغلت بطريقتين، تقليدية وعصرية، تعلمت مبادئ الحرفة مع الحاج سليمان الذي سمح لي في ظرف وجيز بأن أستعمل بعض علاقاته وأدخل الميدان، لكن ضربة الحظ كانت مع كاترين، نستصلح الرياض القديمة ونعيد تجهيزها وبيعها، المنازل القديمة أيضًا، حين نُفرغ ما تحتوي عليه من أتربة وحجارة نحصل على مساحات شاسعة وفي وسط المدينة، وفرص أخرى كثيرة كهذه، حين يكون لديك الوقت الكافي تفعل كل شيء. ولأن البيض لا يوضع في سلة واحدة فقد استثمرت في مجالات بعيدة عن العقار، الفلاحة والماشية والزيوت وغيرها.

- كيف حالك مع الكتابة؟

- الكتابة جانبي الخفي، طقس غريب أمارسه أحيانًا، أحتاج أن أكتب كي لا أفقد ذاتي، كي أرتبط بنفسي وبتاريخي، الكتابة هي حقيقتي، أما المال فمجرد وجود اجتماعي ضروري للعيش، لتبقى

علـى قيـد الحيـاة، ولكـن لتحيـا حقيقـة يجـب أن تكتـب، أن تخلـد ذاتك ولـو في قصـص قصـيرة جـدًا بحجـم الكـف، أنـت مثـلاً ألا تسـتيقظين ليـلاً لتلعـبي بحاسـوبك وتؤثـثي الفراغـات بديكوراتـك وهندسـتك؟ لـكل شـخص مسـارب سريـة يوحـد فيهـا نفسـه مـع نفسـه، خصوصًـا إن كان فنانًـا، الفـن تعويـض عـن كل شيء كمـا تعلمـين.

- لا يعوض الحب.

- بل يعوض الحب.

obeikandl.com

obeikandl.com

-٩-

سواء عوّضه أو لم يعوضه، فالحب قد ضاع، ضاع بين الشك واليقين، هل حدث فعلاً أم لم يحدث؟ هل ولد ولادة عادية أم قيصرية؟ بدأت ماريا تميل شيئًا فشيئًا عن مواضيع المال والأعمال، وتنحو بعينيها نحو الذكريات، ماريا تغيرت، كل شيء داخلي يتنكر لها، هل سبب ذلك أنها زوجة رجل آخر أم أنه الحب كمصباح الكيروسين ينطفئ بشح الطاقة العاطفية. ماريا ترتب حياتها كما ترتب الفضاء الداخلي للبيوت، عملها وهوايتها سمحا لها بأن تؤسس للترتيب داخلها، ولكنها تبدو لي الآن منطقة صحراوية جرداء لا أثاث فيها ولا إضاءة، تجلس قربي كأي فتاة أخرى لا تثير شعرًا ولا ترغب في سماع الشعر، ربما نسيت معنى الشعر ربما نسيت شعراء المدينة الصغيرة تارودانت التي كنا نقضي فيها سهرات رفقتهم، أيوب مديان، فاطمة الزهراء الرياض، الحسن الحسيني، حكم حمدان.

أشعر بالألم في أذني يزداد شيئًا فشيئًا.

- أنير اقرأ لنا بعض القصص لو سمحت.

- لكنها لم تعد تلك القصص المريحة التي تصنعها اللغة، لقد أصبحت تتشظى داخلها اللغة كأنها حطب نسمع له طرطقة الاحتراق، وكلما مروَحنا عليه يزداد اشتعالاً، يزداد لهيبًا، وهي في نفس الوقت مائية الطبع، كسيل يسيل عبر المزارب في فصل المطر، أحس أحيانًا وأنا أكتب أني أسيل كدموع اليتيم داخل نصوصي.

- قصصك الأولى رغم بساطتها كانت قلقة.

- ولكني مؤخرًا تجاوزت مرحلة القلق واستسلمت لنصوص هادئة،

obeikandl.com

تعـبر ولا تتفجـر، وحدهـا لغتهـا تحـترق كأنهـا عـلى جمـر الكانـون، رغم أني أكتبهـا بهـدوء تـام.

- لقـد تجاوزنـا مرحلـة القلـق ونحـن الآن عـلى أعتـاب النهايـات ربمـا، سـنمارس الآن دالـة رتيبـة واضحـة المسـار، لقـد كبرنـا ربمـا. كبرنـا بمـا فيـه الكفايـة.

obeikandl.com

انتظري، سأشغل هاتفي وأقرأ لك.

سأحكي على لسان الريح، سأعلن عن مفقودات تائهة، مفتاح مدينة الشعراء وإزار أبيض مطرز بالتاريخ يلف خاصرة الجغرافيا. وأميرة تمردت على القبيلة. تاج ملك كان عرشه على القهر، صندوق قيم ورموز، قلم حر ودولاب أحلام، وأشياء صغيرة أخرى من نوع الالتفاتات الجميلة وحركات دفع الخصلات الذهبية إلى الوراء، تحريك الساعة في المعصم وتعديل حقيبة اليد. اسمعا قصصي القصيرة.

القصة الأولى

أميرة حزينة حد الرقص. كتبت شعرًا حجازيًا بالغ الترف يحتفي بقافية منسية من زمن الكبرياء، قصيد يتوجع، حروف مد طويلة كالأنين. كان حديثنا ثوريًا ببلاغة صديقين تعمقا في مشاركة كل شيء حتى أحلام فناجين القهوة الصباحية بلون الشوكولا. الحكي فعل جمالي والاستماع جمال حقيقي مؤلم. أي هشيم لأي نار، كان متخصصًا في إخماد نيران الآخرين ولكنه أمّيّ في شم احتراقهما داخل قصة حب تقليدية حد العنونة برهينة المسافات والوثائق، كان عليها فقط أن تقرأ المطلع لأحترق بنار روي أبدي مشتعل بالغاز العاطفي. تحكي كأنها تبكي، ولأنها كانت عربية تأبى الخنوع استحلفتني أن أصمت أبد الدهر.. فصمت وكانت لي الاستعارات ميدانًا منفلتًا من النذر.. أخيتي أنت.

Obeikandl.com

القصة الثانية

من هوسها بجمع الأشياء القديمة رتبت مجموعة من الخسارات، وكانت تحفة التحاقها بقلبه أجمل هزائمها. باب من معجم هندي سقطت منه التعاريف لأن غاندي يرفض أن تقاتل حتى في سبيل حبها. اكتفت بالارتواء بحليب أزرق من ثدي آخر أنثى أسطورة حكت عنها عجائز كمبوديا، اكتفت بالنظر والانتظار وكانت تصلي من أجل التفاتة معجمية تسمح للاهتمام بالاهتمام بها. حتى أنها همت بالرحيل حين فجأة جاءها سطر ينط من فرط هيامه بهيامها. فكتبت أنها ستبني زربية حمراء تبثها مسافات من غابات آسيا وتعلمها بنات جنسها يقرأنها كلما رغبن بالبوح أمام منسج أو مغزل صوف بدل احتضان سكين الرفض.. منذ ذلك الوقت والبنات يغنين تراتيل الاحتفاء بالهجر بخيوط من ظهر الخروف بعد كل ظهيرة، يلامسن صدر الشجر ويبنين عشًا من ورق الصفصاف وأعواد السرو وقش الحناء. يغزلن وينتظرن، يغزلن ويتهن في أصداء الحنين، يجتمعن ليغزلن من الوقت وقتًا آخر، يجتمعن لينتظرن ويصنعن من الانتظار رؤى تتصدع لها الزرابي كلما جلس عليها دون أن ينتبه لحروف تتألم تحته.

القصة الثالثة

ضمّت صدرها إليها وراحت تحتفل وحدها بجراح فاخرة، خلف نافذة قدّت من خشب شجرة كان أكثر أعشاشها لأرامل الغربان المهاجرة، أنينها المتبرج قد من عمر، يتفرج الصمت على كيانها المتدفق على مهل كماء يندلق من آنية فخار نصف مكسورة بسبب أن صانعها أصيب بخيانة ذلك اليوم، هزائمها مصفوفة خلفها في رف خائف يرتعد من إثم قديم ارتكبه، كل لوازم الاحتفال حاضرة، شمعة روسية، جوليا بطرس الغاضبة، طيف شاعر لا يعجبه شيء

obeikandi.com

حتى الباص، ارتدت فستانًا بنفسجيًا من الساتان البرّاق وراحت ترقص ألمًا كزوربا اليوناني. الأشياء من حولها بدأت ترقص خطًا، فرحًا، ولكن الاحتفال أسعدها حقًا وبدأ جسدها يفرز هرمونات النسيان.

القصة الرابعة

بمقهى المنظر الجميل، في موعد مع عنترة أقنعه أن داحس والغبراء منعته المزيد من الحب، وأن ما كتبه عن عبلة أروع من بطولاته، وما تناسل عنها من خرافات. وأنا أداعب التاريخ على طاولتي جلست إليّ عبلة. تنظر تجاهي وأنا مندهش من عدم سماعي لوقع سنابك الخيل ولهذيان الهودج. قالت: كان على نيلسون مانديلا أن يظهر قبل هذا الوقت كي يكتب عني عنترة أكثر. فرحلت وتركت خلخالاً عربيًا عربون محبة على طاولة أمازيغي يشرب الشاي المنعنع بالجنوب المغربي.

القصة الخامسة

بين النسيان والتكرار مسافة ندم، اركضي في باحات صدري، شرياني الخليجي ينبض باقترابك مني، ولمفاوياتي المغربية تنتبه لجريانك النهري أمام عذاباتي، متيم بك عاديّ جدًا أن أغطس في حلك وأنت كالماء تنفلتين من ذراعي، كلما حاولت أن أكون شمسًا تسطع لك وحدك تكونين رملاً صحراويًا يحرق نفسي ويسد بخبث مسالكي العاطفية وأنحني، في قضايا البُعد الكل خاسر ومحامي الدفاع يراقص شاهد الإثبات ويحتفل الكل بخوفي المؤبد من ضياعك مني. «تاسانو» أأرحل مع القافلة القادمة صيفًا أم أرقد في قبر بروضتك؟ ألك كهف أنام فيه عدد سنين، أم أستوي سحرًا فرعونيًا مؤجلاً في أهرامات نهدك؟ «تاسانو» أمهليني قرنًا ونيف،

علّني أوفيكِ حق الانتظار. سأكون هناك في المحتضر مكفنًا مغسلاً أنتقي من جيدك أنواع موتي. وستكونين لي أنثى سراب أنثى فراغ أنثى كهف بالأطلس أناديها «تاسانو» وقفة الأعشاب التي تلتقطينها من أجل بقرتك الوحيدة، «تاسانو» يتيمة كرواية، وحيدة كبصمة، عميقة كأخدود حب، «تاسانو» أحبك.

القصة السادسة

جرح بالجرح، دم ينزف من الدم، ورصيف طويل ملتوٍ تسير عليه كليوباترا وهي تسمع مطر مطر مطر بصوت حزين كالسياب. إمي حنا، كيف الهدوء والدواخل تغلي؟ إمي حنا، كيف السير والسلاسل؟ كيف الأثر والعواصف؟ كيف القافلة تضيع والقصائد؟ بي ما بي من من سوالف اليتم، إمي حنا اليتم رفقتنا القديمة، هل نبرأ من العمق فينا؟ أنداوي انكسار غصن بلفه بتويجات زهره؟ أنقطع الجذر لنطعم الثمرة؟ إمي حنا، دليني على حاشية لا تلفظ شاعرًا، إمي حنا دليني على قنطرة لا ترفض يتيمًا، دليني على متشرد لا يحمل كيسًا مخدرًا، إمي حنا، الوقت ضد الوقت، والرؤيا ضبابية الحلم، وما تبقى من الآتي انتهى. «إمي حنا هان تسى تباقي» وما عاد في الأحشاء طي لاحتضان المستحيل الذي يسيل نحو الأمام هروبًا، ويسير ضد احتمالاتي فرحي.. جيكور، أساكا، أفنسو، السكيرات، أنفكو، سطيف الجزائرية بغداد والنواحي، قرى الليل والحزن المدوي.

-١١-

تناولنا العشاء على إيقاع نكت عمراوي وضحكات الحاجة، رغم ثقل جثته فهو خفيف الظل، صاحب نكتة، قال بأنه ينسى العمل تمامًا حين يكون في سهرة عائلية كهذه، أي شخصية هذه التي أقنعت ماريا بالزواج، لا بد أن فيه شيئًا مميزًا، قدرته الفائقة ربما على التسيير، رغم أنه حاصل على إجازة فقط، لكنه استفاد من خبرة وثروة والده ليضاعف حصته من إرثه بعدما توفي الحاج عمراوي، إخوته اكتفوا بمناصب إدارية ومرتب كل شهر في حين غامر هو بداية بكل شيء، مشكلته الوحيدة هي في انكبابه على الأكل كلما شعر بتوتر في العمل، وهذا سبب سمنته المفرطة رغم ضغط ماريا عليه ليهتم بصحته، ولكن لماذا أبحث عن مبرر خارج ذاته هو كشخص، كرجل، ربما هي معجبة به لا بماله، خصوصًا أنها هادئة جدًا في علاقتها به، ربما أنا المريض الوحيد داخل هذه المجموعة أنا المحمل بعقد تاريخية لا تفك أزرارها، ربما أنا الوحيد الذي يحمل هم الكون في جعبتي، حتى تحليلاتي تسير وحزني المؤبد.

بعد العشاء ذهبت وماريا في جولة حول الضيعة، كانت المواشي نائمة في الحظائر، الدجاج في الخم مستسلم لريشه، الديك واقف على رجل واحدة، يتمايل بين الفينة والأخرى ليغير قائمته. جناح الجمال ومشروع حليب النوق المعلب أثار انتباه ماريا.

ماريا تمسك بيدي فجأة، يدها حنونة بنفس الملمس، بنفس الأثر القديم، لكنها كهربائية الطبع.

- دعني أمسك يدك.

- تفضلي.

وكان صمت، صمت، صمت، بدت لي حركتها مثيرة للشك، وتبادرت لذهني رواية «قصة حب مجوسية» لعبد الرحمن منيف، لا أريد أن أكون مجوسي العقيدة، يدها جمرة، وأنا ماء، أحسست بشيء مفقود في المشهد، أنا وهي وضيعة، ولا شيء يجمعنا، حتى الشك القديم في وجود عاطفة لنبحث لها عن اسم غير موجود، أنا وهي وممر طويل مظلم، به إنارة خفيفة محسوبة المدى، كل شيء معد للحظات رومانسية تلتصق مرة أخرى بالذاكرة، ولكني لست مجوسي القلب.

جولتنا معًا لا تثير الحنين، كأن ذاكرتي شفيت من مرض هروب الأرشيف، كنت أمشي وأنا أضغط على يدها، نحن الرجال تعلمنا معاملة الجسد مهما كان صاحب هذا الجسد.

أنا وهي.. وطاولة وحب عميق.

الآن أنا وهي وضيعة، وممر وظلمة، وشركات وصفقات، وزوج وأم، وذكريات ونهايات، وحلم وقصص، وتاريخ ونضال، وعالم كبير ولا شيء.

كرهت دومًا حياة التفاصيل، لذلك استهوتني القصص القصيرة جدًا، كحبنا، كان بحجم الكون في ذرة، كان يحتضن العالم في كرة البلور السحرية التي تستعملها العرافة البرتغالية، كان كمرآة تعكس كل عمق العالم الذي أمامها، كان حبًا مربكًا يجعلك تشك في كل شيء تعلمته مذ ولدتك أمك، كان يجعلك تشك في الحب نفسه، وفي طبيعته المتحولة.

كالقصص القصيرة جدًا تختزل الكبير في الصغير، العميق في السطحي، المعقد في البسيط.

- أنير.. لم فجّرتم شاحنات شركة زوجي، كان المشروع ضخمًا، لقد جعلت التحدي الشخصي بيننا ينسحب على مصلحة المنطقة. فكرت بعنف الشباب فقط. قالت.

- كانـت إهانـة لشـعب المهجريـن، مـا دامـت المنطقـة تصلـح للمشـاريع لـم تـم ترحيلهـم إذن؟ لـم نكـن نملـك شـيئًا لنخسـره، هزيمتنـا في النضـالات الأولى نتيجـة القمـع والـضرب والمحاكمـات علّمتنـا أن نراهـن عـلى كل شيء نملكـه ضـد مـا لا نملكـه، كنـا نحتـاج أن ننتقـم لأنفسـنا وكانـت فرصـة لنعيـد بعـض كرامتنـا المهـدروة، مـا كان عليـك أن تفكـري في مـشروع عـلى أنقـاض كرامتنـا، فهـو لا محـال سـيمر عـلى جثتنـا وعـلى قبورنـا.

- هـل تعتقـد حقًـا أن مشروعًـا بهـذه الضخامـة يعتمـد عـلى فكـرتي؟ الأمـر يتجـاوزني، الفكـرة كانـت مرافقـة لبنـاء السـد، وقـد نقـول إن السـد بُـني مـن أجـل الفكـرة نفسـها، لكـن الظـروف الأمنيـة العالميـة سـاعدتكم، أعطيتـم وهمًـا بـأن خلايـا نائمـة وراء التفجـير، حققتـم هدفكـم، ولكـن الصمـت جعلكـم تنتـصرون للتطـرف.

- الإنسـان المقهـور يواجـه التطـرف بتطـرف أقـصى. كنـا مسـتعدين للمـوت.

- هل أنت مرتاح الآن؟

- جـدًا، لقـد أخبرتـك أنـي تجـاوزت مرحلـة القلـق حـتى في شـكلها الفكـري والوجـودي، أنـا مـن حـزب الهـدوء الآن. وأنـت؟

- أنـا لا أنتمـي لأي عاطفـة، أعيـش اللحظـة كمـا هـي، أنـا مسـكوكة مـن معـدن الترتيـب الداخـلي.

لا أسـتطيع أن أصـدق كل هـذا التأقلـم المصطنـع، امـرأة برجوازيـة بـدون أسـئلة وبـدون اضطرابـات عاطفيـة، أردت أن أختبرهـا وأفجـر نبـع البـوح عندهـا أريـد أن أراني مـن جديـد، أريـد إعصـارًا يكـسر ناطحـات كبريائهـا المعهـود، كنـت أعشـق تعاليهـا النفـسي، أخـذت يدهـا بـين كفـي وقبّلتهـا بخفـة، لـم تنسـكب «لافـا» البـوح الشـفيف كمـا كنـت أظـن، لكـن هـذه بتلـك، فهـي أمسـكت يـدي دون إنـذار وأنـا قبلتهـا، قبلتهـا قبلـة خفيفـة كأنهـا ريشـة بيضـاء لحمامـة تائهـة مـرت

علـى أصابعهـا، ريشـة خفيفـة مـن بطـن الحمامـة لا مـن جناحهـا.
تذكـرت عمـراوي فجـأة، لا يمكـن أن أخـون رجـلاً في زوجتـه، مهمـا كان هـذا الرجـل، الـزواج ربـاط مقـدس عنـدي، لا يمكنـني طعـن رجـل مثلي تركـني مـع زوجتـه، كنـت منـذ عصـور مـا قبـل المراهقـة أكـره أن أسـتغل امـرأة متزوجـة، وحـتى غـير متزوجـة، لا بـد أنهـا أخـت رجـل مثـلي، خالـة رجـل مثـلي، أم رجـل مثـلي.
إن خنتـه سـأكون بذلـك قـد خنـت عـرق النخـوة ككل. أشـد مـا أكـره الخيانـات!
لـن أخـون رجـلاً في بيـتي تركتـه رفقـة أمـي لأخـرج مـع زوجتـه للتـنزه ليـلاً في حديقـة ضيعـتي الخلفيـة.
كان اختبار ذكريات فقط.
- أنـت تحـب العواطـف القصـوى، تحـب بلـوغ الحـد في كل شيء. تحـب بشـدة وتكـره بشـدة، تحـب بسرعـة وعمـق، وتتخـلى بسرعـة كأنـك سـطحي، كنـت تخيفـني بمشـاعرك.
- لا تتضـح رؤاي إلا في الأعمـاق، السـطح تعمـره الأوراق اليابسـة والتـبن والحـشرات المائيـة.
الألـم في رأسي يـزداد، لا أسـتطيع مقاومتـه، بـدأت أشـعر بـدوار غريـب، لكـني لا أريـد أن أفـوت فرصـة الفهـم، لذلـك سـألتها:
- هـل أحببتـني حقًـا؟ هـل أحببـت مسـاعد الكاتـب العمومـي؟ هـل أحببـت الطفـل المهجـر المثقـل بالألـم هـل أحببـت أنـير المناضـل؟ أخبريـني الحقيقـة.
- أحببتـك حقًـا وبشـدة، ولكنـك كنـت تعيـش داخلـك، لـم تـترك لي فرصـة الدخـول لحياتـك، كنـت قلعـة موصـدة بإحـكام، كان الحـزن يغطيـك حـد العتمـة، مـا الفائـدة مـني إن كنـت لا أصلـح لتهويـة غـرف قلبـك، أنـت تعتـبرني أمـيرة وأنـا أردت أن أكـون فقـط سـيدة أحاسيسـك.
- طنجة غيرتك.

- طنجة منحتني مسافة أستطيع من خلالها رؤيتنا، جمعنا الحب وفرقتنا أشياء أخرى، كنت متشبثًا بالمكان، وأنا كنت سندبادية الطبع، كنت صامتًا حد القلق، وأنا كنت ثرثارة حد الشفقة، كنت تغلق قلبك بعشرة مفاتيح، وأنا كنت شفافة كزجاج، أحسست بأني أعاشر جبلًا لا رجلاً. كان عليّ أن أرحل.

- ما كان عليك أن ترحلي.

- لم تمنعني، كان لي كبرياء أنثى تتدلل.

- وكان لي منطق صمت أحتمي به ضد التذلل، احترمت قرارك، ودست على قلبي.

وألم رأسي يزداد ولم أعد أطيقه، أخبرت ماريا أني لست على ما يرام، أشعر بالدوار وبالصداع ينهش رأسي.. شعرت باليبس في فمي وفي حلقي، ودمعة حارقة انسابت على خدي، شعرت بالدوار يأخذني فاستسلمت للحرارة.

ومات الكلام في فمي.

obeikandl.com

obeikandl.com

ملحق
طائر يستريح

obeikandl.com

obeikandl.com

كل شيء أبيض

حين يعطيك الألم هدنة فليس لتستكين للراح، بل لتنظر حولك فتجد كل شيء يبكي من حولك.. الوسادة، السرير، المصباح الطبي، المناديل الورقية، الأنابيب الشفافة بعض دمك عليها، الحقن المنسية على الطاولة بسبب إهمال الممرضة.. وأنا.

ما يخيف في غرفة الإنعاش ليس بياض الأسرّة أو زرقة الأغطية، إنه صوت الآلات تيت تيت تيت. والباقي محض إيمان، أي سكينة تلك التي ترافق المريض المستسلم المتيقن من أنه سيشفى بإذن الله لا بتعقد الآلات.

أبحث في داخلي، أطوي المسافات بيني وبين نفسي علّني أجدني في بقعة سلام هناك، أكوي جراحاتي كي أعقمها من الألم، أعزله عن مقامات العصر فيحرقني كنيزك أخطأ مساره الكوني، كسير كأسير فقد قضيته بعدما فقد حريته. كسنديانة خربة تحوي أعشاش الغربان السوداء، كشاعر خانته قصائده الأربعين، ألثم صبري كصنهاجي يستمع ليوسف بن تاشفين وهو يسبر أغوار القلوب والنفوس، هناك في داخلي صحراء من رمل وحنين، قبائل متناحرة فتواها غزو وضرب وقرع وحرق لكل نخيل الواحات وإرباك لاستكانة العصافير والأوهام في، جيش مدجج باللا رغبة، بلذة الهزيمة، بحلم موؤد مخبوء داخل سطل طمي وأنين. أريد نافذة لا بوزفورية الزوايا، أطل منها إلى خارجي كي أستنشق هواء الآخرين.. والحنين عقدتنا القديمة كاليتم يرافقنا عبر دروب السراب

في صحرائنـا المغمـورة بالصمـت، هـو الجنـوب النـدي بالاسـتعارات يهشـم سـكوني واسـتكانتي، أفاعـي الصحـراء تبحـث دومًـا عـن طائـر متعـب يحـط عليهـا مـن شـدة الحلـم، أنـا طائـر متعـب ولا أفـاعٍ تلتهمـني، أنـا طائـر، أنـا سـائر لا أسـتريح.

جسـد منهـك وأعـين ذابلـة، تثقلـه الذكريـات، يبـدو كعربـة محملـة بالزمـن البطـيء، يصـارع الريـاح بـين الفينـة والأخـرى ويغلـب أحيانًـا وينهـزم أخـرى، إنـه هـو تاريـخ قائـم عـلى الـذات والآخـر الغـادر، مطـروح للنبـش والتلفيـق، كذاكـرة مترنحـة سـكرانة يعبـث بهـا المؤرخـون. حـزن هنـا وحـزن هنـاك، فرحـة متواريـة خلـف الجـدار خجـلاً مـن الواقـع، سلسـلة انكسـارات وسـجاد سـقوط.

زفـرت زفـرة عميقـة، أخـذت هـواء كثـيرًا مـن قنينـة الأكسـجين، وقـررت أن أنتـصر، أن أعـود، لـن يخونـني جسـدي، فهـو لـم يخـني مـن قبـل، كـم مـرة عـاشرت الشـاش والبيتاديـن وقنينـات الأكسـجين، ولـم ينالـوا مـني، كنـت تحـت الحراسـة المشـددة لأني كنـت حسـب تعبيرهـم، عنـصرًا محرضًـا، ولكـني قاومـت جروحـي، وقمـت مـن جديـد، سـأنتصر مـرة أخـرى.

حـين يهـددك المـوت ترغـب بالحيـاة بشـدة، تتمسـك بـكل خيـط أمـل.

تلـك الضربـة الـتي أفقدتـني الوعـي أثنـاء هجـوم العسـكر عـلى المظاهـرة لفضّهـا، بقيـت دون أن تلتئـم، كان حـذاء العسـكري مطعمًـا بالحديـد، ضربـني فـوق أذني اليـسرى وأرداني بطـلاً، يقـول الطبيـب ببرودة الأطبـاء إنـه تحـوّل إلى ورم خبيـث، في مرحلـة ثالثـة، وسـينتشر بسرعـة إذا لـم نحاربـه بالأشـعة، هكـذا دون سـابق إنـذار يتحـدث كأن شـيئًا لـم يقـع.

- أمـي، ضعـي يـدك عـلى جبيـني، واقـرئي سـورة الكهـف، لا تبـكي إمـي حنـا، إن كنـت تحبينـني لا تبـكي، كفكفـي دمعـك وابتسـمي، أحتـاج

ضحكتك أكثر حبيبتي.

لا يهمني مرضي، أخاف فقط من دمع أمي، أمي التي واجهت التهجير وواجهت الترمل، كانت أقوى من نخلة، حنونة مع الجميع، لا أريدها أن تنكسر، لذلك أحاول أن أبتسم في وجهها ولكن هذه الأنابيب والآلات تحيط بي كشرنقة.

أحس بالألم، كل خلية في جسدي تطالب بحقها في الألم، حتى حلمة أذني تتألم، كل ذراتي تحترق، مرض لعين، ملعون كالسد، ماؤه لهيب يحرق، يدمر، هي ذاكرتي تسقط كل الصفحات الشاحبة، ها هي ذاكرتي تنتصب مرايا.

أريد أشعة كيماوية. أريد سمًا أكبر أقتل به الوحش بداخلي، أقتل به السم الذي يستولي على أذني، ورأسي، وكل جزء مني، لن أستسلم لمستعمر يستوطن جسدي، إما أن يغادر أو نموت معًا، مزيدًا من سم الأفاعي دكتور، أريد احتراقًا كاملاً أنهي به عذابي، أريد أن أعيش، أريد أن أهزمه، سأهزمه.

القوارير والعقاقير تتفخت بلا استحياء.
والشاش أبيض كلساني متكلس.
لا يتذوق.
كيف الهروب والأنبوب إلى شرياني؟
وذات الرداء الأبيض تغرز شوكها وتستبق.
يا أختي؟
هي ألف إبرة تصطف بي
للجلد ما حنت
هي كالبرق للعظم تندلق.
ريح حرى تلفح خدي سكرانة.
بجفني ترقد

لها الفك ينفلق.
جنبي وجنبي أتقلب المواضع ما اتفقت
والمواجع بين أضلعي
تحكي وتتفق.
الريح والطواحين والأرض والأعاصير.
ودمي دمي ينضب كل ليلة
والألم ينطلق.
هنيهات الزمن من عمر رئتي ينفث الموت.
وزوايا من كبدي تتشقق.
أفرش الدمع، أبكي سيلاً.
وعيني دين الحزن تعتنق.
الورم في خليتي جبان يختبئ
يا جبانًا
أمن لحمي ودمي تزدرد وتسترق؟
وأنا ككل فانٍ تأتي عليّ شهقة.
أكون فيها كشعرة في العجين
تختنق
فقل للسكينة ذات الخمار الأبيض
هي الروح تحترق
هي خاتمتي أهدهدها، كفني أغزله
كقميص مكوي
أردد الشهادتين حين أنطق
ما الموت؟
الموت جاري وحقي عليه.
وإن طال البين يزور جلدي ويتصدق
قل للمنية هي تفتك وأنا مستبشر

obeikandl.com

وجه الرحمن أرغب وأتشوق
إلهي، ربي لك الأمر عجل بالشفاء.
أنت الرحيم
الرفيق أنت المترفق.

تارودانت
المغرب
٢٠١٤/١٠/١

Obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

استهلال ٧

الفصل الأول «نوستالجيا حب ووطن يتعرى»........... 23
الفصل الثاني «أوراق الورد الحزينة»..................... 117
الفصل الثالث «سقوط الأقنعة»............................ 233
الفصل الرابع «شريان ريح شاردة»........................ 269
ملحق «طائر يستريح».. 317

obeikandl.com

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..

بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..

بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..

هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب ..

لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :

محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450

أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :

info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

وتابعنا :

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing

obeikandl.com